غزوات الرسول (ص) وسراياه

جدلية الدعوة والقوة

حسن سلهب

دار الهادي

غزوات الرسول(ص) وسراياه

جدلية الدعوة والقوة

حسن سلهب

قدَّم له:

الدكتور ابراهيم بيضون

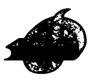




للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م



دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان

Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

الإهداء

إلى عافية أمي، الغائبة منذ ولادتي، ولم تزل

إلى عيني أبي، تقطران دمعاً على فتوّة لم تنل حقها من العلم

إلى كرم زوجتي، يمنح العمر، ولا يوفر الجهد

إلى هؤلاء، أهدي باكورة مسيرتي مع الكتاب.

حسن



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم: الدكتور إبراهيم بيضون

كانت «المغازي» مما أثار مبكراً اهتمام نخب المسلمين فبدأوا منذ النصف الثاني من القرن الأول الهجري على جمع تراث الرسول أقوالاً وأفعالاً وهو ما عرف بالسيرة النبوية التي شكّلت ـ وإن لم يقصد رواتها ذلك ـ أول«فنون» التاريخ في الإسلام.

وكان سبيلهم إليها ما اختزنته ذاكرة «المدينة» التي أصبحت منذ الهجرة مركز الحدث ومحور الحركة في الدولة الصاعدة، ومن ثم منطلقاً لمدرسة ما عرف بالحديث والسيرة، كانت ما تزال رائدة في هذا الاتجاه حتى بدايات العصر العباسي. كذلك القرآن بما احتواه من مادة حدثية غزيرة، شكّل مصدراً أساسياً للسيرة التي كان من أقطاب رواتها «عروة بن الزبير» و«ابن شهاب الزهري» و«محمد بن اسحق المطلبي» وجميعهم ينتمون ثقافياً إلى تلك المدرسة الرائدة وعنهم اقتبس كبار المؤرخين من أمثال الطبري والبلاذري مروياتهم في هذا المجال.

وإذا كانت السيرة تعني التأريخ الشمولي للرسول دعوة ودولة، فإن أبواباً تفرعت عنها، مع تطور الوعي بالتاريخ لدى المسلمين الذين اتسعت آفاقهم واكتسبوا خبرات جديدة مع انتشار حركة الفتوح والاحتكاك بثقافات الشعوب التي انضوت تحت سيادة الإسلام.

في ضوء ذلك لم يعد التأريخ محصوراً بالعلوم الدينية، ولكن تغيّر مفهوماً ليصبح علماً «مستقلاً» يتوخى العبرة ويستلهم التجربة، فضلاً عن تطوّر المنهج باتجاه أكثر شمولية بتناوله الأنساب والطبقات والفتوح والخراج، وما إلى ذلك من موضوعات أخذت تندرج في التاريخ الإسلامي.

وتفرعت عن السيرة المغازي التي ظلت منهجياً في اطار الأولى، مع تركيز أكثر على الجانب العسكري في حياة الرسول دون أن ينفصل أحدهما عن الآخر إذ كانت «السيرة» ما تزال الجامع للموضوعتين، إن لم تندرجا في ثنائية يعبر عنها بـ«السيرة والمغازي» على غرار بعض الصياغات التي ظهرت على غلاف كل من مصنّفي الزهري وابن اسحق الذين حملا العنوان السابق عينه.

والمغازي هي انبثاق عن منظومة الجهاد التي كانت في أصول الإسلام، فرضاً من الله لقتال أعدائه من أجل أن يحل السلام وينتشر العدل، فهو غاية سامية في سبيل الله، وحماية العقيدة وتحصين المجتمع من الأخطار، فلم يكد الرسول يقطع شوطاً في تنظيم السلطة والجماعة في المدينة، حتى أعلن الجهاد ضد المشركين، وذلك في الشهر السابع على هجرته إلى المدينة، «وكان ذلك استجابة لما جاء في "سورة الحج" مسوغاً البدء في قتال المشركين الذين أذاقوا المسلمين الاضطهاد ودفعوهم إلى الهجرة من ديارهم».

﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ(٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٤٠)** ﴾ [الحج/٣٩ - ٤٠].

ولقد استهدفت العمليات العسكرية للمسلمين المشركين من قريش وحلفاءهم من بعض قبائل العرب. وقد اصطلح على أن الغزوة ما يتولى قيادتها الرسول فيما السرية التي ينتدب لقيادتها واحداً من أصحابه، وإذ بلغت الأولى سبعاً وعشرين والثانية خمساً وثلاثين. بيد أن هذه العمليات وإن كانت مستنفرة لغايات عسكرية، إلا أن تسعاً منها فقط جرى فيها قتال فعلي فيما الأخرى لم تتعد نطاق الاتصالات بالقبائل وجعلها على احتكاك بالإسلام من خلال العهود التي عقدت معها.

فالجهاد ليس، كما في وعي الناس، رسالة حرب، ولكنه دعوة إلى السلام في اطار الحوار وخطاب العقل، وهو ما عبرت عنه غالبية السرايا والغزوات التي تمت في هذا الاطار، باستثناء تلك التي استهدفت قريشاً وحلفاءها (ثقيف ـ هوازن) وجاءت دفاعاً عن العقيدة ودرءاً لخطر محدق بها.

ومن هذا المنظور كان اختيار حسن سلهب هذه الغزوات والسرايا النبوية موضوعاً لرسالته في الدبلوم، مدفوعاً بأن الدراسات والأبحاث التي تناولتها سواء بصورة مباشرة، أو في سياق المرحلة، لم تضف جديداً إلى ما هو معروف لدى مصنفي السيرة والمغازي (عروة بن الزبير، ابن اسحق، الواقدي، ابن سعد وغيرهم). فلم يكن الجانب العسكري ما يكفي قراءته في هذه العمليات، بقدر ما كان للجوانب الأخرى، لا سيما السياسية والاجتماعية والاقتصادية من تأثير في بلورة متغيرات المرحلة، الناجمة عن الهجرة إلى المدينة والتحديات المواجهة لها، وذلك بما يلبي عنوان الرسالة في تحديد الأبعاد وأهميتها في القراءة العلمية لهذه الموضوعة. ولقد كان سلهب دقيقاً في التعبير عن هذه الإشكالية. إذ قال في المقدمة: «بقي الموضوع خاضعاً

للاهتمام بشكل جزئي ضمن عناوين أخرى يضطر فيها الباحث للاستفادة من المادة التاريخية بالقدر الذي يحتاجه بحثه معرضاً في غالب الأحيان عن كثير من المعطيات التي من شأنها تقديم صورة متكاملة عن المضمون الأساسي والخلفية المركزية لهذه السلسلة الطويلة من الغزوات والسرايا..... وهذه الدراسة بطريقة ما ـ هي قراءة في العناصر الأساسية لغالبية المتغيرات التي أسفرت عنها تجربة الرسول في الصميم».

في ضوء هذه الرؤية الواعية لتداعيات المرحلة، خاض سلهب تجربته الأولى في البحث التاريخي، وقدّم لنا دراسة تتسم بالرصانة وكثير من الموضوعية مكتنهاً أبعاد الحملات العسكرية، المنطلقة من المدينة، سواء المندرجة في اطار الصراع مع قريش وحلفها الوثني، الهادفة إلى تأليف القبائل أو تحييدها، أو تلك المتجهة نحو الشام في محاولة التأثير على ولائها للبيزنطيين، في وقت قلل الامبراطور المنتصر حديثاً على الفرس، من الاعتماد عليها، لاغياً الوسيط أو ما عرف بـ«الحاجز» المنوط بالغساسنة من قبائل الأزد، بعد التشكيك في موقفهم خلال الحرب مع الفرس. ولقد كرس الفصل الخامس من الرسالة لبحث هذه الإشكالية المهمة، منتهياً إلى فرضية بأن «السعي من أجل تحجيم النفوذ الرومي في بلاد الشام، وبالتالي القدرة على التواصل مع القبائل فيها» كان من بين أهداف السرايا المتجهة إلى هذه المنطقة، وصولاً إلى غزوة تبوك بقيادة الرسول، وإذا كان في قوله عن التواصل مع القبائل الشامية ما يقارب الحقيقة، إلا أن القول عن تحجيم النفوذ الرومي (البيزنطي) لا تدعمه المعطيات التاريخية، إذ كان من المبكر الاعتقاد أن القوة الإسلامية باتت في موقع يؤهلها لتحقيق هذا الهدف. فيما المؤشرات تجعل من العلاقة الاستقطابية مع هذه القبائل ما قصده الرسول

من حملاته غير المتكافئة عسكرياً مع القوات البيزنطية، مما يتجلى خصوصاً في سرية مؤتة التي انطوت على لبس بهذا الشأن في المرويات التاريخية، كان ناتجاً عن القراءة غير الواقعية لها، إذ كانت تعبر عن مغزى أقرب إلى السياسة منه إلى الحرب.

وفي المجمل، إن حسن سلهب عالج موضوعة مهمة بعقل الباحث الواعد، فبدا رصيناً في أحكامه غير منجرف وراء النصوص التيي كان الفكر الديني طاغياً عليها، لا سيما وأنها تندرج في أعمال السيرة النبوية التي رويت أخبارها تقرُّباً للرسول وليس بدافع تأريخي للمرحلة، ومن هنا كانت المهمة صعبة، وتطلبت قراءة شاقة لاستخلاص المعطيات الملائمة لحركة الحدث في سياقه وتداعياته وتفاعلاته المختلفة.

ونراه معبراً عن تحديات هذه القراءة في قول مناسب «إن ما عانيناه في هذه الدراسة لا يرتبط أساساً بالمعلومات المطلوبة فيها، فقد حوت المصادر الرئيسية في هذا المجال قدراً مهماً من المعلومات والتفصيلات الضرورية، ولكن الجهد الأساسي كان منصباً في غالب الأحيان على فهم الخلفية الخاصة بكل عمل من الأعمال الحربية، وبالتالي ربطها بالخلفية العامة لهذه الأعمال كافة، كما كان الجهد أحياناً مرتبطاً في توضيح المعلومات الواردة، وممارسة بعض النقد حولها، وكشف بعض الغموض الذي يكتنف اجزاؤها الأساسية».

ولا شك أن هذا القول ينطوي على فكر نقدي لم يكن غائباً ـ وإن بصورة جزئية ـ كما اعترف الباحث ـ عن هذه الرسالة وهو ما يجعلنا أمام صفتين من أفضل صفات المؤرخ عنيت بهما:

النقد والتواضع، ولقد كان متسلحاً بحق بهما على مدى الرسالة محاولاً قدر الامكان مقاربة الحقيقـة التاريخيـة، متوسـلاً منطـق الحـدث أكثـر مـن الحدث عينه، في الوصول إليها.

ومن يتوخى النقد في بحثه لا يتبرم بالنقد. هكذا كان دأب سلهب فـي تجربته مناقشاً، محاوراً متقبلاً الملاحظات بصدر رحب، ومنهج واضح، وهي صفات تشي بظهور مؤرخ واعد، نرجو له متابعة المسيرة إلى ما هو أفضـل، فهو خليق لذلك وجدير بأن نعقد عليه الآمال الكبار.

د. ابراهيم بيضون

بيروت في ٢٠٠٢/١٢/١٢

المقدمة

شكلت الغزوات والسرايا التي قادهـا الرسـول(ص) أو أرسـلها خـلال السنين العشر الأولى من التقويم الهجري، مجالاً خصباً ومادة غنية للدراسات والبحوث التاريخية. ومع ذلك فإننا لم نعثر على مصنف علمـي يضـع هـذه المادة قيد الدراسة والبحث بشكل يطاول الجوانب الأساسية فيها كافة فضلاً عن مجمل المعطيات الواردة حولها.

وبقي الموضوع خاضعاً للاهتمام بشكل جزئي ضـمن عنـاوين أخـرى يضطر فيها الباحث للاستفادة من هذه المادة بالقـدر الـذي يحتاجـه بحثـه، منتقياً أبرز الأحداث والنتائج في هذه الغزوات والسرايا، ومعرضاً في غالـب الأحيان عن كثير من المعطيات التي من شأنها تقـديم صـورة متكاملـة عـن المضمون الأساس والخلفية المركزية لهذه السلسـلة الطويلـة مـن الغـزوات والسرايا.

لذلك فإن هذه الأعمال الحربية تشكل موضوعاً قائمـاً بذاتـه، يمتلـك العناصر الكافية، ليس للدراسة والبحث فحسب، بـل ليكـون مرجعـاً رئيسـاً لغالبية الأحداث التاريخية الإسلامية التي جرت في عهد الرسول(ص) خلال الفترة المدنية، حيث لا يمكن تأريخ الإنجازات التـي حققهـا الرسـول(ص) منذ وصوله إلى المدينة حتى رحيله، من دون الإحاطة الدقيقة بهذه الأعمـال الحربية المتواصلة.

إذن، فإن هذه الدراسة ليست قراءة في الجانب المهم من تجربة الدعوة

الإسلامية فحسب، بل هي أيضاً ـ وبطريقة ما ـ قراءة في العناصر الأساسية لغالبية المتغيرات التي أسفرت عنها هذه التجربة في الصميم. حتى غدا التساؤل في هذا المجال يطرح إمكانية اعتبار هذه الأعمال بمثابة البرنامج الأساس الذي تمكّن الرسول(ص) خلاله من إنجاز مهمته الأساسية في الدعوة إلى الإسلام.

وتبقى إشكالية إعتماد القوة في تحقيق هذه المهمة في مقدّمة المسائل المطروحة في أكثر من فصل لهذه الدراسة، ربما لخصوصية التجربة الإسلامية في هذا المجال، ما دعانا لطرح التساؤل حول ضرورة ذلك في تجربة الإسلام الأول، وما إذا كان ذلك سبيلاً وحيداً لتحقيق ما أُنجز؟

ثم تتفرّع لدينا إشكاليات عديدة على رأسها الإشكالية الجغرافية للغزوات والسرايا.

فالتركيز على الناحية الغربية من المدينة قبل بدر، ثم الانتقال إلى الجهة الشرقية منها، وبعد ذلك بدء التوجه نحو الشمال مع بدء التصدُّع في منظومة قريش الإيلافية، هذا التوجُّه الذي اتخذ سياقاً مختلفاً عما ألفناه في باقي الجهات لم تضعفه إلتفاتة نحو الجنوب في المرحلة الأخيرة من هذه الأعمال، كما لم تخفّف من جدّيته ونموّه.

كل ذلك يطرح تساؤلاً حول الخلفية التي تم تصنيف هذا التوالي على أساسها، وما إذا كان ذلك يخضع لمؤثرات وعوامل مختلفة أو موحدة.

ويمضي بنا التساؤل بعد ذلك حول المعايير المعتمدة في تأجيج الصراع هنا حتى النهاية ومتابعته هناك حتى أقرب تغيير في الموازين لإنهائه بطريقة مثيرة، ثم تجنبه هنالك ما أمكن توقعاً للظروف المقبلة.

ولعل الصراع مع اليهود كان نموذجاً في ذلك التأجيج، والصراع مع قريش كان نموذجاً في تلك المتابعة، ثم الصراع مع القبائل الشرقية ـ النجدية خصوصاً ـ كان نموذجاً لهذا التجنُّب، وربما كان من أَبرز وظائف هذه الدراسة تحديد تلك المعايير ومناقشتها على ضوء المعطيات المتوافرة.

ثم يصل بنا التساؤل في سياق الغزوات والسرايا إلى طرح إشكالية حول أصل التعبيرين، وما إذا كان المعنى المقصود منهما في موضوعنا، هو المعنى نفسه المتداول في تلك الحقبة التاريخية أو حتى بعدها.

فالملاحظ من خلال القراءة المتأنية لغالبية الغزوات والسرايا أن عنصر القوة لا يعدو فيها، كونه أسلوباً في التهديد أو التخويف لفرض حقائق أخرى أو تحقيق إنجازات ثانية لا علاقة لهما بالهزيمة أو النصر فضلاً عن الغنيمة أو السلب. ولقد أخذت الدراسة على عاتقها السعي في جلاء هذا الغموض الذي يخيم على هذا الموضوع بدءاً من قراءَة عنوانه الأول.

تلك أبرز التساؤلات التي تحاول هذه الدراسة الإجابة عنها وعن غيرها، مما سيجعلها في مهمة دقيقة للغاية. المضمون الأساس فيها بحث الخصوصية الإسلامية في تجربة القوة وما إذا كانت فعلاً الآلية الوحيدة في التطورات التي شهدتها منطقة شبه الجزيرة العربية في تلك الفترة.

ولقد تم تقسيم هذه الدراسة إلى خمسة فصول مع مدخل اعتمدنا فيها الأولويات الزمنية والفعلية التي سلكها الرسول(ص) إلى حدٍّ ما.

في المدخل ألقينا بعض الضوء على ظروف الهجرة إلى المدينة والعوامل الرئيسة التي أمَّلت خيار الهجرة بالنسبة إلى الرسول(ص) والمسلمين مفترضين تعدُّداً في هذه العوامل يبدأ من الصعاب التي عاشتها

الدعوة في مكة مروراً بالخطر الذي واجهته في الفترة الأخيرة منها، وانتهاءً بالمقوّمات التي كانت تمتلكها المدينة، ثم المعطيات الجديدة التي توافرت للمسلمين فيها حتى ذلك الحين.

إضافة إلى ذلك، فقد حاولنا تحديد العناصر الأساسية في الغزوة والسرية الإسلامية، وما يعني ذلك من تحديد المصطلح لهاتين العبارتين مقارنة بالدلالة اللغوية والموضوعية السائدة في ذلك الزمن، مصنفين أعمال الرسول(ص) الحربية إلى مجموعات ذوات عناوين مختلفة بالإجمال، وفقاً لمقدّمات تلك الأعمال ونتائجها، مفترضين تعديلات جوهرية في الشكل والمضمون للغزوة والسرية في التطبيق الإسلامي، كان الرسول(ص) قد أدخلها في غالب بعوثه الحربية.

في الفصل الأول: تم البحث في محور الصراع مع قريش، هذا الصراع الذي كان في مقدّمة الأولويات التي حدّدها الرسول(ص) زمنياً وفعلياً. وكانت فرضيتنا الأساسية في هذا الفصل: الصراع في سبيل الإخضاع، ليس لقريش فحسب، ولكن لكل ما تمثله هذه القبيلة من نظام علاقات مع القبائل المنتشرة في الجهات المختلفة لشبه الجزيرة العربية، حيث كان سقوط ذلك نتيجة حتمية لخضوع قريش كما كان بمثابة التمهيد الأساس لإخضاع هذه القبائل بشكل غير مباشر.

وخصصنا الفصل الثاني: لبحث الصراع مع اليهود، حيث اعتبرنا هؤلاء بالمرتبة الثانية بعد قريش في تحديد أولويات الصراع، من دون التوقف أحياناً عند فرض هذه الجماعات نفسها وخطرها في أوقات مختلفة، كان الرسول(ص) لا يزال فيها مشغولاً بصراعه الأول. أما الفرضية الأساسية فقد قامت على اعتبار الصراع في سبيل الإلغاء من دون أن يعني ذلك إنهاء

الوجود اليهودي المدني في شبه الجزيرة مطلقاً، ولكن المقصود بالدرجة الأولى الوجود العسكري والأمني وحتى الاقتصادي بصورة ما، ثم الديمغرافي نسبياً، وفي المدينة على الأقل.

وخصصنا الفصل الثالث: في الصراع مع القبائل، وقد اتخذ البحث إتجاهاً في التقسيم والتشعب فرضته فوارق جغرافية وموضوعية، وإذا كانت الفرضية الأساسية في هذا الصراع تكمن في إلحاق هذه القبائل بالدولة الإسلامية تمهيداً لدخولها الإسلام فعلياً، فقد تفاوت ذلك بعض الشيء حيث كان التوقيت كما كان الموضوع خارج توقعات الرسول(ص) الفعلية، مما جعل مجموعة كبيرة من هذه السرايا أو الغزوات تحت تأثير التداعيات الخاصة بالصراع مع قريش أو اليهود أكثر من ارتباطها بسياقها الخاص. ولقد بدأت القبائل الصراع بعد بدر في وقت لا يظهر فيه أن الرسول(ص) كان عازماً على فتح هذه الجبهة الثقيلة والصعبة بعض الشيء.

وكان تقسيم القبائل الجغرافي في هذا الصراع متلائماً نسبياً مع محورية مكة والمدينة، وفي الاتجاهات الطبيعية الأربعة. ونظراً لكثافة الأعمال الحربية في الجهة الشرقية وتيسيراً في الفهم، فقد أفردنا فصلاً خاصاً بهذه الجهة كما تم توزيع السرايا والغزوات فيها ضمن خمس حلقات متوالية تحددت وفقاً لتداعيات الصراع مع قريش:

فكانت **الحلقة الأولى** تختص بالفترة بين بدر وأحد.

والثانية بين أحد والأحزاب.

والثالثة بين الأحزاب والحديبية.

والحلقة الرابعة للفترة بين الحديبية وحنين.

أما **الحلقة الخامسة** والأخيرة فقد ارتبطت بالفترة الأخيرة من الصراع الإسلامي القبلي في هذه الجهة.

ثم كان البحث في الغزوات والسرايا التي تتعلق بالناحية الشمالية حيث اتخذ الصراع حيزاً خاصاً وكان عنصر المبادرة سائداً في غالبية أعمالها، الأمر الذي يختلف مع الجهة السابقة في هذا الأمر، حيث كان التوقيت فضلاً عن المبادرة خارج توقعات الرسول(ص) الفعلية نسبياً، كذلك كان طابع التأسيس يغلب على أعمال هذه الجهة كافة كما كان المستقبل حاضراً بشكل مؤثر في تحديد القسم الأكبر من النتائج فضلاً عن الأهداف.

أما العمليات الخاصة في الاتجاهين الغربي والجنوبي فكانت محدودة مقارنة بالجهتين السابقتين، ما دعانا لدمجها مع الغزوات والسرايا في الشمال ضمن الفصل الرابع.

وإذا بدأ الرسول(ص) بالتعاطي السياسي ـ إذا جاز التعبير ـ مع قبائل الجهة الغربية في وقت مبكر من وصوله المدينة، ثم أعقب ذلك بعض السرايا والغزوات المحدودة، فقد تأخر اهتمام الرسول(ص) بالجهة الجنوبية وقبائلها إلى فترة ما بعد حسم الصراع مع قريش واليهود، مما جعل الأعمال الحربية في هذه الجهة، تأخذ طابعاً ديناميكياً في الحصول على النتائج وتحقيق الأهداف أقل دمويةً من باقي الجهات، وفي سرعة ملحوظة في هذا المجال.

الفصل الخامس والأخير: كان خاصاً بالبحث في المواجهة مع الروم وقد حاولنا اعتماد عنصري الكثافة في التحضير، وتحديد الجهة قبل انطلاقة السرية أو الغزوة، طريقة في تمييز هذه الأعمال عن مثيلاتها مع القبائل الشمالية، وإن أدت في بعض الأحيان إلى نتائج متشابهة أو كانت في ضمن

العمل الواحد، كما سنرى في سرية دومة الجندل الأخيرة وارتباطها العضوي بغزوة تبوك، ولا داعي لتأكيد أن هذا الفصل كان طريقة في الفهم والتصنيف من دون الإخلال بالرابطة الموضوعية بين الأعمال كافة. وقد ارتأينا وضع سرية أسامة بن زيد في عداد أعمال هذا الفصل مع أنها جرت فعلياً بعد وفاة الرسول(ص)، لكن بحكم أنها قراره وفكرته، فقد دخلت في السياق نفسه من دون التعرض للنتائج أو التفصيلات التي جرت بعد رحيله.

وكانت فرضية هذا الفصل: السعي من أجل تحجيم النفوذ الرومي في بلاد الشام وبالتالي القدرة على التواصل مع القبائل فيها.

وفي الحقيقة إن ما عانيناه في هذه الدراسة لا يرتبط أساساً بالمعلومات المطلوبة فيها، فقد حوت المصادر الرئيسة في هذا المجال قدراً مهماً من المعلومات والتفصيلات الضرورية، ولكن الجهد الأساسي كان منصباً في غالب الأحيان على فهم الخلفية الخاصة بكل عمل من هذه الأعمال الحربية وبالتالي ربطها بالخلفية العامة لهذه الأعمال كافة، كما كان الجهد أحياناً مرتبطاً في توضيح المعلومات الواردة وممارسة بعض النقد حولها وكشف بعض الغموض الذي يكتنف أجزاءها الأساسية ويبقى المكان الذي حدثت فيه هذه الأعمال في درجة الحد الأدنى من الوضوح أحياناً، حيث استغرق البحث وقتاً طويلاً للتعرُّف إلى بعض المسميات في تلك المنطقة، لم تيسِّره كثافة المعلومات الجغرافية التي تحويها مصادرنا.

وقد كان كتاب المغازي للواقدي المصدر الرئيس الذي استقيت منه أكثر المعلومات وأدقها كما كانت سيرة ابن هشام وغزوات ابن سعد فضلاً عن تاريخ الطبري والدرر لابن عبد البر مصادر أساسية في هذا البحث، وكانت الاستفادة من فتوح البلدان للبلاذري والكامل في التاريخ لابن الأثير

واضحة في بعض فصول هذه الدراسة.

أما في المصادر الجغرافية فقد اعتمدت بشكل رئيس على معجم البلدان لياقوت الحموي، ومعجم ما استعجم للبكري، كما كانت لنا استفادة من كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني، وكتاب البلدان لليعقوبي على أن المعلومات الجغرافية الثمينة التي كانت في كتاب الغزوات لابن سعد أخذت مجالاً واسعاً في الاستفادة، وكذلك بعض الشيء في تاريخ الطبري وغيره.

أما في المراجع، فقد كان كتابا المستشرق وات: محمد في المدينة، ومحمد في مكة، وكذلك مجموعة المؤرخ بيضون، الحجاز والدولة الإسلامية، تاريخ بلاد الشام، الأنصار والرسول(ص)، في مقدِّمة المراجع الرئيسة التي حاولت الاستفادة منها.

كما كانت لنا محاولة استفادة أساسية من كتابي المؤرخ صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، والدولة في عهد الرسول(ص) فضلاً عن كتاب نشأة الدولة الإسلامية للدكتور عون الشريف قاسم ولا بد من التأكيد أن الاستفادة من مراجع أخرى بصورة مباشرة أو غير مباشرة كانت مفيدة جداً بالنسبة إليّ سواء تم ذكرها في الهوامش لوضوح الفكرة أم لم يجر ذلك حيث تتفاعل الفوائد العلمية في ذهن الباحث فتخرج بطريقة بعيدة نسبياً عن ما كانت عليه.

لا بد لي في هذه المقدِّمة من الاعتراف بالتقصير أو القصور أمام هذا الموضوع الذي لم أتمكن من إعطائه حقه الكافي في الدراسة والبحث نظراً لغزارة المعلومات المرتبطة فيه فضلاً عن غنى الأبعاد التي دار فيها.. فحسبي أنني قدمت إسهاماً محدوداً في هذا المجال.

في النهاية، لا يفوتني تقديم الشكر الكبير للأستاذ المؤرخ الدكتور إبراهيم بيضون لنصائحه الثمينة التي كانت عاملاً أساسياً في بلورة الكثير من الأفكار المفيدة في هذه الدراسة. كما أشكر الأستاذ انطوان ضومط على ملاحظاته الدقيقة التي قدّمت دفعاً مهماً لهذه الدراسة في الاتجاه السليم، والشكر أيضاً للدكتورة نشأت الخطيب التي أضاءت زوايا أساسية في خلفية الدراسة ونتائجها.

كذلك أرى من واجبي التعبير عن شكري للدكتور محمد مخزوم (رئيس قسم التاريخ سابقاً) الذي واكب دراستي هذه بالكثير من النصائح والمساعدة الأبوية، ويبقى للدكتور حسن جابر في هذه الدراسة مكان عزيز حيث نالت البداية الكثير من تفكيره وإضاءاته.

والتحية والتقدير للشيخ الصديق الدكتور محمد شقير الذي تفضّل بمراجعة النسخة الأخيرة لهذه الدراسة، وشجعني على نشرها، بعد أن كنت عازماً على تأجيل ذلك إلى فترة غير قريبة.

والشكر لله سبحانه وتعالى أولاً وأخيراً.

حسن سلهب

تحويطة الغدير، في ٢٠٠٥/٢/١٢

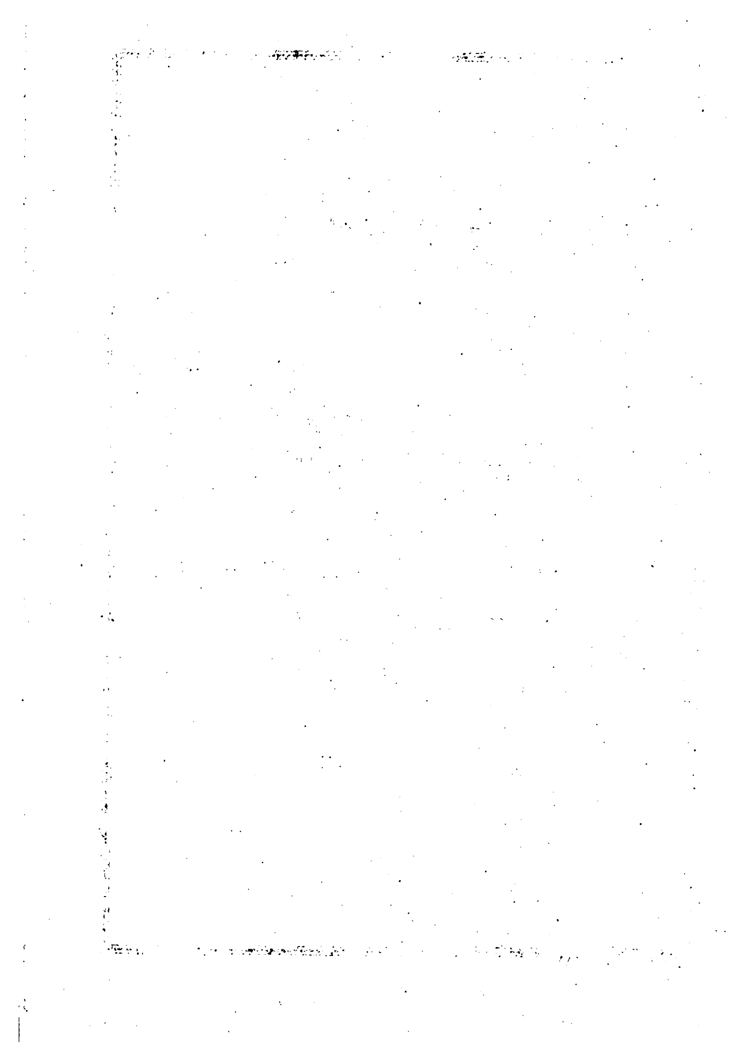


مدخل الدراسة

ـ الدعوة في مكة

ـ الأوضاع العامة في المدينة

ـ غزوات الرسول(ص): قراءة في المصطلح والدلالة



إن مراجعة المصادر التي تحدثت عن مسيرة الرسول(ص) في مكة خلال السنوات الخمس الأولى للبعثة، لا تشير إلى ما يمكن تسميته بالتطلع نحو الخارج أو التخلي عن مكة[1] بطريقة أو أخرى، كما لا نستوحى من هذه المصادر توقفاً تاماً في حركة الدعوة حتى ذلك الحين مع كل النمو البطيء والانتشار المحدود داخل صفوف قريش.

ومن الصعب تقدير الاتجاه الذي كانت ستسير فيه الأمور لو ان الرسول(ص) لاقى النجاح المطلوب في مكة أو تمكن من إقناع عشيرته وبني جلدته بالدين الجديد، وهل كان سيكفيه ذلك للاستقرار في مكة، وتحديد هذا البلد مركزاً نهائياً لدعوته ثم دولته؟

ليس لدينا ما يشير إلى ذلك، ولعلَّ الاتجاه نحو الشمال في كل الأحوال، وفي غير طريقة، كان حركة تقدِّرها عوامل عديدة بينها الطبيعي والإرادي كما بينها أيضاً الاستثنائي المثقل بضرورة الأمن والاستمرار.

ويبدو أن الرسول(ص) كان متأثراً بالعوامل من النوع الثاني في الحد الأدنى وبالدرجة الأولى.

((١) يورد ابن سعد عن الرسول(ص) قوله أثناء فتح مكة: "إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إليّ، يعني مكة، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت" ابن سعد، غزوات الرسول(ص) وسراياه، تقديم أحمد عبد الغفور عطار، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٨١، ص: ١٣٧.

الدعوة في مكة

مع السنة الخامسة للبعثة شرعت قريش بتشديد سياسة الضغط على المسلمين التي كانت أطلقتها بعد دخول الدعوة في مرحلتها العلنية قبل قرابة السنتين "فوثبت كلٌ قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم"[1] فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع الرسول(ص) دفعت بالأمور نحو هجرة مجموعة من المسلمين إلى الحبشة حيث تمت الخطوة الأولى لخروج الدعوة الإسلامية من مكة.

وإذا كانت هذه الهجرة نوعاً من تحييد مجموعة كبيرة من المسلمين عن واقع اتسم بالكثير من الاضطهاد والافتتان بالدين، فإن ما تبقى من رجال الدعوة في مكة وفي مقدمتهم الرسول(ص)، سيتعرضون إلى تجربة جديدة من التصعيد القرشي تمثلت بالمقاطعة، حيث توافقت رموز القبائل في مكة على منع التعاطي مع المسلمين، وبالتالي قطع كل أنواع العلاقات الاجتماعية وغيرها معهم، في إجراء هدفه الأساس حصر الدعوة ومنع انتشارها، فضلاً عن التضييق على أهلها حتى التخلي عنها.[2]

---

(١) الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار التراث، طبعة ثانية ج٢، ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨.

(٢) "اجتمعت قريش فائتمرت بينها أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على أن لا ينكحوا إلى بني هاشم وبني المطلب، ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، فكتبوا بذلك صحيفة" المصدر السابق.

ولا شك في أن نتائج هذا الإجراء جمّدت نسبياً ـ ولفترة قاربت الأربع سنوات[1] ـ حركة الدعوة فارضة على جميع الملتزمين بها، تجربة قاسية في الصبر وتدني مستوى العيش على أكثر من صعيد.

"فأقاموا على ذلك من أمرهم سنتين أو ثلاثاً، حتى جهدوا ألا يصل إلى أحد منهم شيء إلا سراً".[2]

وإذ تخرج الدعوة وروّادها الأوائل من المقاطعة بقليل من الخسائر الذاتية وكثير من عمرها الدقيق، فقد فقد الرسول(ص) إثرها (إثر المقاطعة) إثنين من داعمي الدعوة شكّلا رافدين أساسيين لها منذ البعثة.

ففي العام نفسه توفيت زوجة الرسول(ص) التي "كانت له وزير صدق على الإسلام"[3] خديجة بنت خويلد كما توفي عمه أبو طالب الدعامة المعنوية الفاعلة والشخصية المكية القادرة على فرض المعادلة القبلية في الدفاع والحماية "ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب"[4] على حد تعبير الرسول(ص).

وكان لا بد من اتخاذ قرار جديد، يتجاوز الواقع الذي فرضته قريش على الدعوة. وجاءت فكرة الهجرة إلى الطائف أوّل تعبير عن الابتعاد الجدي للرسول(ص) عن أهله وبالتالي قلقه على مصير الدعوة في تلك الأثناء، كما مثلت الخطوة الأولى في طريق التأثير في قريش عبر التضييق

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١، ص٣٣٥.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت ج٢، ص ٢٦٤.
(٤) الطبري: تاريخ الأمم، ج٢، ص ٣٤٤.

على مصالحها "وربما شعر الرسول(ص) بسوء استغلال المكيين لأهل الطائف أو أنه لاحظ مصالح المكيين فيها" [1] فأراد الاستفادة من هذه الظروف في تهديد المجال الحيوي لقريش كما يهدِّد أيضاً بأهل الطائف "تجارة المكيين مع اليمن"[2] على حد تعبير مؤرخ معاصر.

لم يحالفه التوفيق في الطائف حيث تعرَّض إلى ضروب من الإهانة والإحراج الشخصي وعاد إلى مكة يطلب الجوار من أكثر من قبيلة وشخص وأجيب بالرفض قبل أن يتصدَّى "المطعم بن عدي"[3] الذي تسلّح مع أهله لتأمين الحد الأدنى من الأمن للرسول(ص) حيث ضعفت همم بني هاشم عن مساندة قريبهم وحمايته في أعقاب وفاة أبي طالب "ربما أدركت، بعد المقاطعة، ما يصيبها من أضرارٍ مادية ومعنوية، إذا استمرت في حمايته"[4] كما يرى المؤرخ نفسه.

عاد الرسول(ص) ـ إذن ـ إلى مكة في أضعف الظروف، وبالكاد أمن أبسط شروط الأمن لأي فرد عادي في ذاك البلد. وهبطت مع عودته هذه كل الاحتمالات في إنجاز أي شيء في ذاك الوطن لمصلحة الدين الجديد، وضاقت السبل إلى حدودها الأخيرة. فقد جاء الوقت الذي دخلت فيه حياة الرسول(ص) في دائرة الخطر الحقيقي، بعد دخول كل شيء له في تلك الدائرة، "ولربما كان قرب وقوع الخطر هو الذي عجَّل برحيل

---

(١) العلي، صالح أحمد: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، (د.ت) ص ٤٠٥.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) ابن هشام: المصدر السابق، ص ٢٢٥.

(٤) العلي، صالح أحمد، المرجع السابق، ص ٤٠٤.

محمد"[1] واجتمعت قريش مرة ثانية على إجراءٍ جذري مثَّل الذروة في العداوة الشخصية للرسول(ص) دون الخروج عن توازنات القبائل، ولكن ـ هذه المرة ـ عبر إخراج بني هاشم كلياً من دائرة التأثير.

إذن لم يعد ثمة شيء يبرِّر بقاء الرسول(ص) في مكة، كما لم يعد بإمكانه الاستمرار حياً فيها، وربما دار في ذهن الرسول(ص) ترك مكة في كل الأحوال، وربما أيضاً منعه من ذلك تعدُّدٌ في الاتجاه، لكن مع وصول الأخبار الأخيرة عن مؤامرة إغتياله [2] ومع تزايد مؤيديه في يثرب حسم خياره بطريقة عاجلة، ودخل هو ودعوته ومن بقي من أصحابه معه تجربةً جديدة في الهجرة كانت نتائجها بحجم الآمال المنشودة.

---

(١) وات، مونتغمري: محمد في مكة تعريب شعبان بركات، منشورات المكتبة العصرية، ص ٢٣٧.
(٢) ابن هشام: السيرة، ج٣، ص٧ و ٨.

الأوضاع العامة في المدينة

تشير المصادر التاريخية[1] إلى اللقاء الأول الذي جمع الرسول(ص) بشخصيات من المدينة في الفترة التي سبقت يوم بعاث [2] حيث قام أحد بني عبد الأشهل يرافقه وفد من يثرب، بزيارة إلى مكة يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، وتتوقف الرواية عند رفض الوفد الدعوة إلى الإسلام في هذا اللقاء، كما تتحدث عن إسلام أحد أعضاء الوفد، إياس بن معاذ الذي كان غلاماً حدثاً، ما فتىء يذكر ربَّه الجديد تكبيراً وتحميداً، حتى مات من دون أن يشك أحدٌ بإسلامه.

تلك أبرز رواية عن أول اتصال للرسول(ص) بعرب المدينة.

وإذا كان الأمر كذلك فما هو سر رفض الأوس التجاوب مع دعوة الرسول(ص)؟ وهل كان ذلك تعبيراً عن المنحى العام في يثرب أم إنه ردة فعلٍ فورية خاصة بزعيمٍ مشغولٍ بالتحضير لحربه المقبلة؟ كما بإمكاننا التساؤل: هل ثمة تحول جديد في واقع يثرب سيؤدي إلى ذلك التقارب التاريخي في العقبة؟ أم إن نضوجاً في الظروف الموضوعية يأخذ مداه

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

(٢) "موضع في نواحي المدينة كانت به وقائع بين الأوس والخزرج في الجاهلية". الحموي، ياقوت: معجم البلدان، ج١ص٤٥١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ،ج١ ص٦٨٠. الهمداني:صفة جزيرة العرب، ص ٢٦٤..

الطبيعي على نار القلق والخوف من "حرب الجميع ضد الجميع؟".[1] وهو الأرجح والأقرب إلى الواقع.

إن الإمعان في فهم الأوضاع التي عاشتها المدينة عشية الهجرة تلقي بعض الضوء على الأسباب التي أدت إلى انتقال الدعوة الإسلامية إلى يثرب.

تتحدث المصادر[2] بإسهاب عن الظروف القاسية التي عاشتها يثرب وقبيلتا الأوس والخزرج تحديداً بعد وقعة بعاث، حيث كانت الأمور في ذروة الاضطراب الأمني والاجتماعي، مما دفع الجميع نحو التفكير في مخرجٍ يضع حداً لهذه الحالة الصعبة.

وكان الفراغ العام في السلطة مضافاً إليه هذا "التكوين الهجين"[3] للقبائل في المدينة أو "التركيب السكاني غير المتجانس"[4] يطبع الواقع ويعيق تطوُّره، كل ذلك سوف يضغط على القيِّمين على هذه الحاضرة المرتبكة نحو القبول بإطار من الحكم لا يشعر فيه أحدٌ بالدونية تجاه الآخر.

وهذا ما تفتقر إليه يثرب في تلك الأثناء، ما يستدعي تحقيق ذلك من الخارج، ولعل هذا ما كان يدور في ذهن الوفد الذي قابل الرسول(ص) في المرة الأولى بالعقبة "فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك".[5]

لا تورد المصادر الكثير من التفصيلات المتعلقة بالدين الجديد؛ وما إذا

(١) وات، مونتغمري: محمد في المدينة، ص ٢٦٣..

(٢) ابن هشام: السيرة ج٢ ص٢٧٧. الطبري: تاريخ الأمم ج٢ ص٣٥٤.

(٣) القمني، سيد محمود: حروب دولة الرسول(ص)، سينا للنشر، ١٩٩٣ ج١، ص ٣٠.

(٤) بيضون، إبراهيم: الحجاز والدولة الإسلامية، ص ٤٠.

(٥) ابن هشام: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٧٧.

جرت مناقشات فكرية حول طبيعة الإسلام، بل اكتفت بالإشارة إلى تجاوب الوفد اليثربي الثاني، بعد عامٍ على اللقاء الأول في العقبة، حيث أبدى استعداده لدعوة الأهل آملاً بذلك، كما يتوقع للرسول(ص) مكانة مرموقة وعزيزة في حال استقامت الأمور، وهكذا تدخل الأمور في مرحلة زاخرة بالتطوُرات مع إرسال مندوب الرسول(ص) مصعب بن عمير مع الوفد المبايع، حيث قام بنشر مبادىء الدين الجديد في أنحاء يثرب ليعود بعد عامٍ يرافقه وفدٌ كبير من يثرب لديه كل الاستعداد لتقبل الدين الجديد بكل مستلزماته.[1]

إذن وجد زعماء يثرب في الرسول(ص) الشخصية المناسبة للبدء في معالجة الأوضاع المتفاقمة في مدينتهم، فهو خارج كل الحزازات في المدنية، كما يتمتع بالقوة والنزاهة، وبإمكانه أن "يخدم الغرض"[2] أكثر من أي "مرشح حزبي من الطرف الآخر"[3] وسيكون كل ذلك باعث أمل على قيام سلطة يرضى عنها الجميع فضلاً عن تحقيق التوحيد دون "حرب أهلية وخيمة".[4]

تلك أهم الظروف الموضوعية التي أسهمت في تطوير العلاقة بين الرسول(ص) وأهل يثرب، أما الظروف المتعلقة بمدى انخراط مسلمي

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم، الجزء الثاني، ص ٣٦٣. يرى المؤرخ جعيط في اتفاق العقبة الثاني، مع كونه حلفاً دفاعياً، اتفاقاً حربياً بصورة أعم بقوله: "لكن فكرة الحرب والنية الحربية كانتا حاضرتين فيه" جعيط، هشام: الفتنة ص٢٦.

(٢) قاسم، عون الشريف: نشأة الدولة الإسلامية في المدينة، ص ١.

(٣) قاسم، عون الشريف: نشأة الدولة الإسلامية في المدينة، ص ١.

(٤) وات، مونتغمري: محمد في المدينة، ص ٢٦٨.

+ مهران، محمد بيومي: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص٤٨٢.

المدينة بالدين الجديد واستيعابهم لمبادئه وأصوله، فذلك أمرٌ سوف تكشف عنه الاختبارات المقبلة التي سوف يعبِّر فيها هؤلاء عن انخراطهم العميق في الإسلام ما يستدعي التحليل بأن الأمر "كان في صميمه خياراً ذاتياً"[1] دون التخفيف من التأثيرات الموضوعية الدائمة.

إضافةً إلى ما تقدَّم، فإن اختيار المدينة سيندرج دائماً في سياق الاستراتيجية الأساسية التي وضعها الرسول(ص) في خطته المستقبلية ـ كما سنرى لاحقاً ـ حيث ستبقى مكة المركز الرئيس في أعماله واهتماماته، ولذلك فإن المدينة مركز الاستقرار الأقرب إلى مكة، والمجال الذي تتوافر فيه كل المقومات المطلوبة في الصراع المقبل سواءً في القدرة على الصمود أو في الضغط على التجارة القرشية التي تمثل دعامة قريش في الحجاز "إن هذا الموقع [موقع المدينة] انطوى على عدة عناصر إيجابية، منها القرب من طريق القوافل المكية.. عدا المقومات الذاتية التي تتفوق بها على مكة.[2]"

ويبقى التساؤل حول موقف اليهود ـ المجموعة الحاضرة في المدينة والمؤثرة في أوضاعها كافة، وهل كان لهم ما يفسِّر هذا الصمت، الذي نستوحيه من المصادر، التي لم تسجِّل لهم ما يعبِّر عن اعتراضهم أو وقوفهم ضد دخول الرسول(ص) مدينتهم؟

في كل الأحوال سيكون لهذا الصمت ـ إذا جاز التعبير ـ دوره الإيجابي في تعزيز الظروف المؤاتية لدخول الرسول(ص) المدينة، سواءً أكان التفسير

---

(١) بيضون، إبراهيم: الأنصار والرسول(ص)، ص ٨، راجع العلي،صالح أحمد: الدولة في عهد الرسول(ص) ج١ ص ٦٢.

(٢) المرجع الثاني نفسه، ص ١٧ راجع: مرتضى، جعفر: الصحيح من سيرة الرسول(ص) الأعظم، ج٢، ص ٢٢٥ / ٢٢٦.

مبنياً على أمل اليهود في "استقطاب"[1] المهاجرين، أم في قدرة بعض الأوس والخزرج على "الانفراد بقرار دعوة النبي من دون ضمان موقف اليهود"[2] حيث إمكانية شعور هؤلاء بأنهم أصحاب الكلمة العليا في يثرب[3].

وقد شكل هؤلاء اليهود دائماً عنصر تمايز حفَّز مواطنيهم العرب نحو التطلع إلى ما يوازي مفخرتهم كونهم "أهل كتاب وعلم"[4]، لذلك سيكون للإسلام مساهمته في إنقاذ الأوس والخزرج من الشعور بالدونية أمام جيرانهم.

ولعلَّ ذلك ما يفسِّر بعضاً من هذا التجاوب السريع خصوصاً إذا ما توقفنا عند الكلمة الواردة عن زوج النبي من "أن المدينة فتحت بالقرآن"[5] الذي سيوفِّر للأوس والخزرج ميزة أهل الكتاب والعلم كما هي الحال مع أقرانهم اليهود.

ولا شك بأن الأوضاع في المدينة كانت قد بلغت مستوى عالٍ من النضوج والاستعداد، مع تمايزٍ مثير في سرعة انتشار الدين الجديد في غالب

(١) بيضون، إبراهيم: الحجاز والدولة الإسلامية، ص ١٠٧.

(٢) بيضون، ابراهيم، المرجع نفسه.

(٣) نستوحي من تاريخ ابن خلدون تفوق العرب على اليهود في المدينة عشية الهجرة، ابن خلدون: السيرة النبوية ص٢١.

- مهران، محمد بيومي: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص٤٧٩.

- زيدان، جرجي: العرب قبل الإسلام، ص٣٣٤ و٣٣٥.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم، ج٢، ص ٣٥٤.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، ص ١٧.

صفوف الوثنيين العرب في يثرب.[1]

أخيراً لا يمكن فهم دواعي الهجرة إلى المدينة تحديداً من خلال الاقتصار على الظروف الأخيرة التي عاشتها الدعوة في مكة ـ مع أهمية ذلك ـ بل لا بد من الاهتمام بصورة موسَّعة، بالظروف التي كانت تعيشها المدينة سواء تلك المرتبطة بالدعوة الإسلامية أو غيرها. ومن المرجح أن يكون الرسول(ص) قد نظر إلى هذه الظروف على اختلافها بأنها ستمثل فرصة طيبة لدعوته، وأنه سيكون للإسلام "مستقبل أفضل في المدينة"[2] على حد تعبير المستشرق وات.

قبل الدخول في صلب الأحداث لا بد لنا من التوقف أمام أمرين جديرين بالاهتمام:

الأمر الأول: وهو تساؤلٌ حول المهام أو الأعمال التي كان ينوي الرسول(ص) المباشرة بها بعد وصوله إلى المدينة، أو ما يمكن تسميته بالبرنامج لما بعد الهجرة. وهل كان واضحاً لدى الرسول(ص) على الأقل خوض تلك التجربة العسكرية بالشكل الذي ستحدث فيه، أم أن الهجرة كانت خياراً مطلوباً بذاته، بعد تفاقم الأوضاع في مكة، من دون أن يكون ثمة برنامج واضح المعالم للفترة التالية للهجرة؟

---

(١) "ونشعر من دراسة الوثائق التي بين أيدينا أن قبول الإسلام، ما عدا الشواذ التي سنذكرها، كان عاماً وأن جميع الرجال والنساء المرموقين في القبائل أسلموا بالاسم على الأقل ولا نسمع من أية شخصية مرموقة أسلمت بعد بدر". وات، مونتغمري: محمد في المدينة، ص٢٧٠. يرى توينبي أنه "... في عصر النبي كانت الشحنة الروحية في الجزيرة العربية على وشك الانفجار وجاءت رسالة محمد في الوقت المناسب" توينبي، أرنولد: تاريخ البشرية ج٢، ص٨١.

(٢) وات، مونتغمري، محمد في مكة، ص ٢٣٥.

في مناقشة هذا التساؤل لا يبدو أن المصادر تساعدنا في تحديد ما إذا كان الرسول(ص) وضع للمسلمين برنامجاً واضحاً، على الأقل في ذهنه، يباشرون بتنفيذه بعد وصولهم يثرب.

لكن الراجح لدينا أن قريش ومكة كانتا في صلب اهتماماته وأولوياته أثناء الفترة الأولى من الهجرة. يؤيد ذلك خطواته السريعة بعد استتباب وضعه نسبياً في المدينة بالإضافة إلى عدم ورود معطيات تشير إلى عزمه على إهمال هذه البلدة أو تحييدها عن مقدّمة أولوياته.

ربما لم يكن في تصوّره هذا العدد الكبير نسبياً من الغزوات والسرايا التي ستستلزمها عملية الإخضاع المطلوبة، ومن الممكن أيضاً أن لا يكون قد خطر في باله أن صراعه مع قريش سيطول إلى هذا الحد، فيمتد إلى ما يقارب العقد من السنين، وأن حجم المشكلات المتنوعة التي تولدت عنه، بالإضافة إلى الدماء التي أريقت فيه، كان إلى هذا المستوى من الضرورة والأمر المحتوم؟

أسئلةٌ تحتاج إلى الكثير من البحث والتدقيق في الأحداث المقبلة، لكن بالإمكان ترجيح بعض هذه الأمور استناداً إلى تقديرات الوضع الخاص بالرسول(ص)، حيث أننا سنرى مستوى عالٍ من التقدير الدقيق لصعوبة الموقف إلى الحد الذي كان يدفعه لاتخاذ أشّد الإجراءات التهديدية وأعنفها أحياناً من دون أي تردُّد.

الأمر الثاني: ويتعلق بالظروف التي رافقت هجرة المسلمين إلى يثرب، وخصوصاً الموقف القرشي، منذ بدء التواصل مع الأوس والخزرج، هذا الموقف الذي لم يتجاوز ـ بشكل جدي ـ التعبير عن سخط المكيين من

هذا التلاقي بين الفريقين، من دون اتخاذ أي إجراءات فعلية تحد من تنامي هذا التحالف الموجَّه ضد قريش بالدرجة الأولى.

ثم هذه اللامبالاة ـ إذا جاز التعبير ـ أمام توالي المسلمين في الهجرة إلى المدينة، حيث أن المصادر التي بين أيدينا لا تشير إلى أي إجراءات جدية أيضاً من شأنها عرقلة هذا التوجُّه الجديد للمسلمين، باستثناء السعي لاغتيال الرسول(ص) الذي لم يكن وليد قراره بالهجرة، بقدر ما كان تقديراً جديداً للخطورة التي بدأ يشكلها وجوده بالذات في تلك الفترة...

من الواضح أن قريش لم تقدِّر خطورة الهجرة بدقة، والمعطيات التاريخية المتوافرة لدينا لا تعارض ذلك، بل تؤيده وتؤكده من خلال عدم تسجيل ما يحول دون تحقيق الهجرة أو يعرقلها، وقد استنتج صاحب كتاب "الدولة في عهد الرسول(ص)" شيئاً من هذا القبيل حيث كتب بأن "قريشاً لم تعرقل هذه الهجرة ولم تدرك في البدء خطر نتائجها"[1]. ربما لأنها ـ أي قريش ـ شعرت بأن هذا الخيار الجديد للمسلمين لا يختلف كثيراً عن هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة أو حتى هجرة الرسول(ص) إلى الطائف، وأنها لم تجد في يثرب ما يمنع من تكرار الموقف في الطائف أو ما شابه ذلك.

ومن الممكن أيضاً أنها قد قلَّلت من شأن يثرب هذه البلدة المنطوية على ذاتها نسبياً[2] والبعيدة بشكل من الأشكال عن مسرح الأحداث الرئيسة التي كانت مشاهدها الأولى تدور في مكة، أو فلك المكيين الواسع. ولعلَّ

---

(١) العلي، صالح أحمد: الدولة في عهد الرسول(ص)، م١، ص ٧٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧ و٢٨.

الطابع السلمي للدعوة الإسلامية في مرحلتها الأولى في مكة حجب القيادات القرشية عن التفكير الجدي بأي خطورة فعلية يتوقّع أن يشكلها المهاجرون إلى يثرب، حيث كانت أغلب التوقعات مرتبطة بخطورة انتشار الإسلام. ولعلَّ ذلك ما سيجعل القرشيين على مستوى من الدهشة والاستغراب عند أول لقاء مسلح جدي مع هؤلاء.

غزوات الرسول (ص): قراءة في المصطلح والدلالة *

ثمّة إشكالية تطرحها عبارة "الغزوة" أو "السرية" حيث يتبادر إلى الذهن من القراءة الأولى ما يرمز إلى السلبية في استخدام القوة، وهو أمرٌ لا بد من التوقف عنده لكشف المعاني الفعلية لهاتين العبارتين في تجربة الرسول(ص) العسكرية.

في التعريف اللغوي للغزوة نجد في لسان العرب: "غزا الشيء غزواً: أراده وطلبه، والغزو: السير إلى قتال العدو وانتهابه، وأخفق الغازي: إذا لم يغنم ولم يظفر".[(١)]

لدينا عنصران في التعريف:

الأول: الإرادة والطلب، والسير إلى قتال العدو.

الثاني: الانتهاب، الغنيمة، الظفر.

وعليه فإن التعريف اللغوي ينطوي على معانٍ سلبية خصوصاً في ما يتعلّق بالعنصر الثاني لاعتبار النهب والغنيمة.

(*) قبل الدخول في الموضوع أُشير إلى أنني سوف أتجنب إلى حد كبير الخوض في تفاصيل الأحداث التاريخية، على أهميتها وضرورتها، مكتفياً بإحالة القارىء إلى المصادر وذلك تحاشياً من الوقوع في التكرار حيث أن الفصول التالية ستتعرض إلى ذلك بالكثير من الإسهاب. وإنما أردت من هذا العنوان جلاء بعض الغموض عن المصطلح ليس إلا.

(١) ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف م٥، ص ٣٢٥٣ ـ ٣٢٥٤.

وقد أورد ابن خلدون في مقدمته توصيفاً دقيقاً لهذا النوع العدواني من الحروب، فذكر المبادرين فيها بأنهم "جعلوا أرزاقهم في رماحهم ومعاشهم في ما بأيدي غيرهم ومن دافعهم عن متاعه آذنوه بالحرب ولا بغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك"[١] أما السرية فقد عرّفها صاحب لسان العرب بما يأتي:

"هي طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعماية [أو] ما بين خمسة أنفس إلى ثلاثماية، جمعها السرايا، سُمُّوا بذلك لأنهم يكونون خلاصة العسكر وخيارهم [أو] لأنهم يُنَفّذون سراً وخفيةً وليس بالوجه".[٢]

يظهر من تعريف السرية غياب القصد السلبي كما وجدناه في تعريف الغزوة، فقد اقتصر التحديد على الحجم "ما بين خمسة وأربعماية" ونوع المشاركين "خلاصة العسكر وخيارهم" والطريقة المعتمدة "ينفذون سراً وخفية".

بناءً على ما تقدّم نصوغ إشكاليتنا حول غايات وأسباب هذه الغزوات والسرايا التي أطلقها الرسول(ص) بعد وصوله إلى المدينة، وبالتالي القصد الفعلي فيها وفقاً للمعطيات التاريخية المتوافرة. ونتساءل فيما إذا كانت تندرج في سياق "الانتهاب والغنيمة كما أورد ابن منظور فتصبح طريقة في تأمين الأرزاق والمعاش كما رأينا في توصيف ابن خلدون أم هي نوع آخر من الأعمال الحربية يختلف عن ذلك؟

يذكر الواقدي أن مغازي الرسول(ص) "التي غزا بنفسه سبعاً وعشرين

(١) ابن خلدون: المقدّمة، مؤسسة الأعلمي، ص ٢٧١.

(٢) ابن منظور: المصدر السابق، م٣ ص ٢٠٠٤.

غزوة.. وكانت السرايا سبعاً وأربعين سرية".[1]

لدى مطالعة هذه الأعمال الحربية فإننا نستطيع تقسيمها إلى مجموعات عديدة بناءً على غاياتها الأساسية أو أسبابها الرئيسة.

ولا يعني هذا التقسيم وجود حدود فاصلة تماماً بين هذه المجموعات، فقد يكون للعمل الواحد أكثر من غاية أو سبب، وبالتالي يمكن النظر إليه في أكثر من مجموعة، لكن كما ذكرنا فإن المعيار الأساسي هو في الغاية أو السبب الغالب.

المجموعة الأولى: وهي الأعمال الحربية التي خاضها المسلمون مع القبائل في أكثر من جهة للمدينة ومكة معاً، رداً على عزم تلك القبائل على غزو المدينة أو تهديدها وأن "جموعاً" منها كانت على وشك القيام بعمل من هذا القبيل.

ولا يمنع أن تكون هذه الأعمال، إضافة إلى ما تقدَّم، طريقة في إثبات الحضور الإسلامي بغية التأثير في تلك القبائل "من أجل حملها على الإسلام"[2] كما يرى صاحب كتاب العقل السياسي العربي. ولا يعني ذلك عدم اهتمام هذه المجموعة من السرايا والغزوات، التي تقارب نصف مجموع الأعمال الحربية للرسول(ص) في العدد، بالغنائم والظفر، لكن لم يكن ذلك في مركز اهتمامها الأول كما يظهر في المعطيات

---

(١) الواقدي: المغازي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، تحقيق مارسدن جونس، طبعة ثالثة ١٩٨٩، ج١، ص ٧.

(٢) الجابري، محمد عابد: العقل السياسي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، طبعة ثانية ١٩٩٢، ص ١١٨.

التاريخية[١] . وبالإمكان اعتبار غزوتي ذات الرقاع، والمريسيع، وسريتي محمد بن مسلمة، وأبي عبيدة بن الجراح، إلى ذي القصة نماذج في هذه المجموعة.

المجموعة الثانية: هي أعمال توسُّعية[٢] بالإجمال أطلقها الرسول(ص) باتجاه الشمال بدءاً من السنة الخامسة، عبَّرت عن استراتيجية ثابتة للرسول(ص)، تؤكد اهتمامه وسعيه الحثيث في سبيل نشر الإسلام، وفتح المجالات أمام مصالح المسلمين الحيوية في تلك المنطقة، فضلاً عن إيجاد مناطق استقرار ثابتة في وجه الروم[٣] ، حيث بدأت علامات المواجهة معها تظهر مع مرور الوقت. وقد كانت غزوة دومة الجندل الأولى وغزوة تبوك هي كل غزوات هذه المجموعة، كما برزت سريَّتا مؤتة وبئر السلاسل في عداد سراياها.

المجموعة الثالثة: هي أعمال دفاعية بالدرجة الأولى، حيث كان الرسول(ص) والمسلمون مضطرين لخوض الحرب التي هددت وجودهم أو أمنهم، وغالباً ما وقعت هذه الأعمال قريباً من المدينة، وأشهرها غزوة أحد والأحزاب.

المجموعة الرابعة: أعمال ذات طابع أمني بشكل خاص، وهي على العموم كانت مجموعة من السرايا استهدفت أشخاصاً محددين، شكلوا بسلوكهم الشخصي مصدر أذية للرسول(ص) والإسلام، متوسلين الشعر

---

(١) الواقدي: المصدر السابق، ج١، ص ١٨٢ ـ ١٨٣ ـ ١٩٤ ـ ١٩٦ ـ ٣٩٥ ـ ٤٠٣ ـ ٤٠٤.

(٢) راجع: العلي، صالح أحمد: الدولة في عهد الرسول(ص)، م١، ص ٣٢٥.

(٣) راجع الواقدي، ج٣، ص ٩٩٠.

حيناً، أو الدعاية السيئة حيناً آخر، لتأليب جماعاتهم في أكثر من مكان، أشهر هذه السرايا كانت سرية قتل ابن الأشرف[1] (داخل المدينة) وسرية أخرى استهدفت أبي رافع: سلام بن أبي الحقيق[2] في خيبر، والاثنان يهوديان.

المجموعة الخامسة: عبارة عن سرايا استهدفت الأصنام في أكثر من مكان في شبه الجزيرة العربية، وذلك في أعقاب فتح مكة أشهرها سرية خالد بن الوليد إلى العزّى[3] وأخرى لعلي بن أبي طالب إلى الفلس.[4]

المجموعة السادسة: هي أعمال تأديبية مباشرة جاءت في أعقاب اعتداء على المدينة أو على بعض المسلمين، معظمها موجه ضد القبائل. وأشهر هذه الأعمال غزوة بني لحيان[5] والغابة[6] وسرية كرز بن جابر الفهري إلى العرنيين[7] وأخرى لزيد بن حارثة إلى حسمى.[8]

المجموعة السابعة: أعمال وقائية بالإجمال، معظمها موجّه ضد اليهود داخل المدينة وخارجها، وأشهر هذه الأعمال غزوة بني قينقاع[9]

---

(١) ابن سعد: غزوات الرسول(ص) وسراياه، تقديم أحمد عبد الغفور عطار، دار بيروت للطباعة والنشر، ص٣١و٣٢ و٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩١ و٩٢.

(٣) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٤٥ و١٤٦.

(٤) المصدر السابق، ص ١٦٤

(٥) المصدر نفسه، ص ٧٨ و٧٩ و٨٠ و٨١ و٨٢ و٨٣ و٨٤

(٦) المصدر نفسه.

(٧) المصدر نفسه، ص ٩٣.

(٨) المصدر نفسه، ص ٨٨

(٩) المصدر نفسه، ص ٢٨ و٢٩.

وقريظة.[١]

إضافة إلى ما تقدَّم، فقد كانت بعض الأعمال ذات طابع إعلامي كغزوة حمراء الأسد[٢] وبدر الموعد[٣] أو «ديبلوماسي»[٤] كغزوة الأبواء[٥] وذي العشيرة[٦] إلى غيرها من الأعمال ذات الطابع المحدود أو المتنوع بطابعه وأهدافه.

ما تقدَّم محاولة في فرز أبرز الأعمال التي قام بها الرسول(ص)، أو أشرف على مجرياتها ونتائجها بطريقة ما، وكما رأينا ليس بالإمكان تطبيق التعريف المذكور لمصطلح الغزوة ـ كما بيَّنا ـ على أيٍّ منها على الرغم من انطباق هذا المعنى على غالب الأعمال الحربية في تلك المنطقة قبل ظهور الإسلام، ذلك أنه لم تكن الغنيمة، فضلاً عن طريقة الحصول عليها، سبباً حاسماً فيها، وفي حال دخلت في سياق الأهداف فهي "من جملة الحوافز التي تحرك البعض على الأقل"[٧] في سبيل الهدف الحقيقي المتمثل بنشر الدين الإسلامي بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

فقد تم فعلاً استبدال المضمون القديم أو المتداول للغزوة القائم على

---

(١) ابن سعد: المصدر نفسه، ص ٧٤ و٧٥ و٧٦ و٧٧ و٧٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٨ و٤٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٩ و٦٠.

(٤) راجع: العلي، صالح أحمد: الدولة في عهد الرسول(ص)، ج١، ص ٢١٣ و٢١٤.

(٥) المصدر السابق، ص ٨

(٦) المصدر نفسه، ص ٩ و١٠.

(٧) الجابري، محمد عابد: العقل السياسي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، أيلول ١٩٩٢، ص ١١٣.

"الثأر وتأمين المرعى والماء"[1] بمضمون جديد يقوم على "الجهاد في سبيل الدين والمبدأ... وحماية الأمة والدفاع عنها"[2] على حد تعبير مؤرخ معاصر.

وهكذا أصبح بوسعنا تأطير هذه الأعمال الحربية كافة، بالصراع الحتمي بين القديم المتجذِّر في الحياة القبلية العربية، وبين الجديد الذي يتنافى مع كثيرٍ من تقاليد تلك الحياة بمبادئه وأحكامه، حيث سيسفر عن ذلك "تطوُّر التاريخ الإسلامي في فترة صدر الإسلام".[3]

وفي الوقت الذي يحيد فيه المسلمون عن الهدف الاستراتيجي الدائم، وتبرز الغنيمة في مستوى التأثير الفاعل ـ كما حدث في خيبر ـ يتدخل الرسول(ص) مكرساً مفهوم الجهاد[4] كشرط حاسم في قبول المشارك في الغزوة، رافضاً إقحام الغنيمة ـ على وضوحها وضرورتها ـ في الأهداف العليا للغزوة "لا يخرجن معنا إلا راغب في الجهاد، فأما الغنيمة فلا".[5]

وإذا كان للغنيمة حضورها حتى في نداء الرسول(ص) لمواجهة قافلة بدر، فإن ذلك كان امتداداً للصراع المفتوح مع قريش، منذ إعلان الدعوة في مكة، مع كل الاضطهاد الذي مارسته الأخيرة في سبيل ثني المسلمين عن

---

(١) الدوري، عبد العزيز: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، المطبعة الكاثوليكية، طبعة ثانية، ص ٣٧.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) المرجع نفسه.
(٤) يميز علي عبد الرزاق بين الإسلام كرسالة وبين الإسلام كحكومة ويعتقد أن الإقناع والوعظ أسلوبان ضروريان في الأولى في الوقت الذي يرى الجهاد ضرورة "لتكوين الحكومة الإسلامية ولا تقوم حكومة إلا على السيف.... إن الجهاد كان آية من آيات الدولة الإسلامية" عبد الرزاق، علي: الإسلام وأصول الحكم، ص١١٨.
(٥) الواقدي: كتاب المغازي، ج١، ص ٦٣٤.

الدين الجديد، فارضةً عليهم تكلفةً للالتزام بهذا الدين، طالت كل ما لديهم من إمكانات مادية في تلك الفترة.

وفي كل الأحوال، لم تكن الغنيمة مطلوبة بذاتها، فالموضوع لايوحي أبداً بأن الرسول(ص) قرَّر اعتماد الأنموذج القديم في تأمين سبل الحياة، أو قرَّر قضاء بقية عمره مقتصراً على تحقيق أسباب العيش له ولأصحابه، بل إن الأمر متعلقٌ بالتكلفة الضخمة التي تتطلبها عملية "الاستنزاف[١]" الدائم والاعتراض المستمر لحركة التجارة القرشية، في ظل عدم توافر الإمكانيات اللازمة، فكانت الغزوات ـ وتحديداً بدر ـ طريقة في تأمين تكلفة هذه السياسة.

وقد كانت الغزوة بما تعنيه من حضور للقوة مطلوبةً بذاتها في بعض الأحيان دون الوصول إلى قتال، فضلاً عن الحصول على غنائم، فيتم استعراض القوة مع عدم النية في الحرب، وهذا ما حدث في فتح مكة بشكل أساس أو في بدر الموعد وحمراء الأسد، حيث كان الرسول(ص) يريد تبليغ قريش "أنه خرج في طلبهم، ليظنوا به قوة"[٢] ولم تكن غزوة الحديبية بأهدافها الدينية ذات المضمون السياسي الواضح، بعيدة عن هذا الاتجاه في "استعراض القوة"[٣] دون استخدامها.

وقد تبلور حجم الغنيمة بالمقارنة مع أهداف الغزوة الفعلية وظهر واضحاً في الغزوة الأخيرة مع قريش حيث منع الرسول(ص) أصحابه أثناء فتح مكة من استباحة الأخيرة، وبالتالي اغتنام أي شيء فيها، وكتدبير منه "تعويضاً لهم عن

---

(١) الجابري، محمد عابد: العقل السياسي العربي، ص ١١٣.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٥٣٤.

(٣) الجابري، محمد عابد: المرجع السابق.

الغنيمة"[1] عمد إلى اقتراض[2] مبالغ ضخمة من تجار مكة ـ أعدائه السابقين ـ حيث قام بتوزيعها على الفقراء المشاركين في الحملة.

وإذا استمر الحصول على الغنائم بعد فتح مكة من خلال الصراع مع القبائل، فقد بقيت الأبعاد السياسية والدينية كامنة في دواعي الغنيمة فضلاً عن طريقة صرفها، وعلى هذا الأساس تم توزيع غنائم حنين لتأليف قلوب "أشراف العرب من المسلمين الجدد"[3] تمهيداً لتأليف قلوب أقوامهم، وكان حجب الغنائم عن الأنصار ـ مع ضخامتها ودورهم فيها، وربما حاجتهم إليها ـ دليلاً على عدم دخول الغنيمة في صميم النشاط الحربي لنشر الإسلام، بل طريقة من طرق تقريب الناس من الدين الجديد بالدرجة الأولى.

وربما حافظت الغزوة الإسلامية على الشكل السابق للغزوة في أنها تحرُّك مسلَّح فيه الكثير من المباغتة والمهارة الحربية، ولكنها أجرت تغييراً جوهرياً في المضمون الأساس لها. فقد تدنَّى الاقتصادي كثيراً لمصلحة السياسي آنياً والديني دائماً في معادلات جديدة أسهمت في تطوير تاريخ المنطقة، في وقت كانت فيه الغزوات طريقة في الحفاظ على الوجود بأبسط معانيه.

أخيراً لنا أن نتساءل فيما إذا كان لدى المجتمع العربي القبلي في ذلك الحين، وسائل أخرى في تحريك الواقع فضلاً عن تغييره من دون اعتماد القوة؟

---

(١) الجابري، المرجع السابق، ص ١١٩.

(٢) الواقدي، ج٢، ص ٨٦٣

(٣) الجابري، المرجع السابق، ص ١٦٩.

الفصل الأول
الغزوات والسرايا ضد قريش

- تمهيد

*** السرايا والغزوات الأولى**

- سرية نخلة: الصدام الأول
- غزوة بدر: نشوء التوازن

*** بين بدر وأحد**

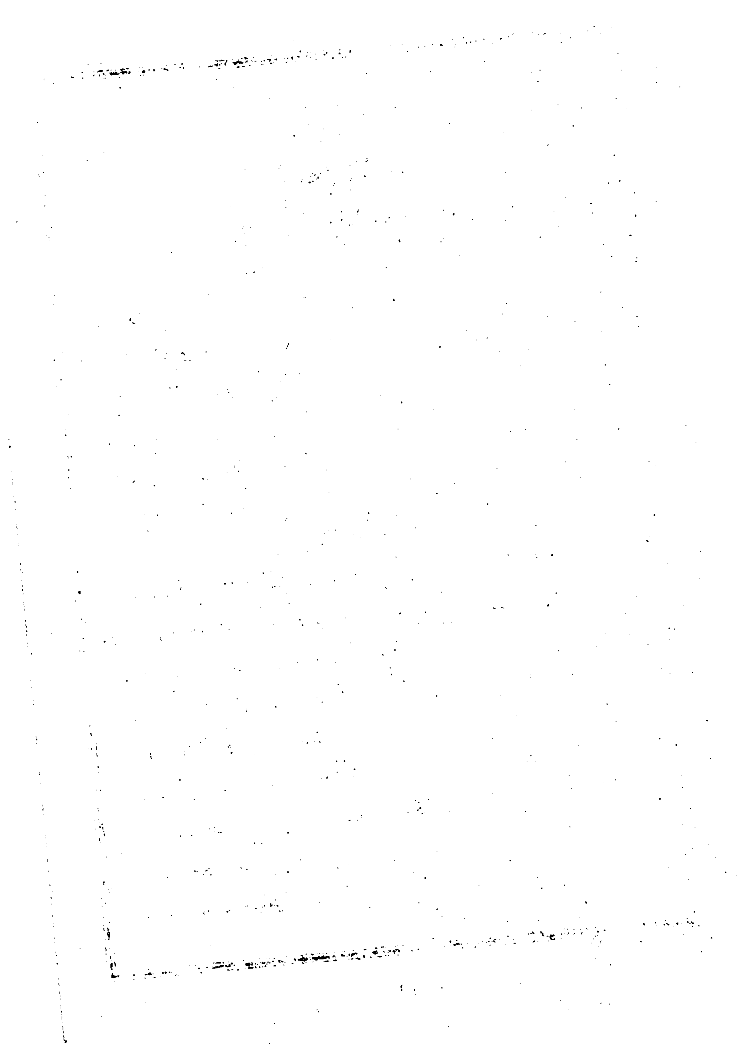
غزوة السويق

- سرية زيد بن حارثة إلى القردة
- غزوة أحد: الثأر القريشي
- غزوة حمراء الأسد: الخروج من الهزيمة
- غزوة بدر الموعد: مواجهة التحدي
- غزوة الخندق: سقوط التوازن

*** بين الخندق والحديبية**

- غزوة الحديبية: نهاية الصراع
- عمرة القضية: العودة الدينية إلى مكة
- فتح مكة: خضوع قريش

استنتاجات ختامية



تمهيد

عندما هاجر الرسول(ص) إلى يثرب كانت كلُّ الأمور تشير إلى مرحلة جديدة من التصعيد بينه وبين قريش، ولا يظهر أنه كان في صدد الإعـراض ولو مؤقتاً، عن قبيلته، أو تجنُّب المواجهة معها، بل إن أغلب الظن في ذلـك أنه قد فكر ملياً في السبل المتوافرة للتأثير فـي قـريش، وبالتـالي ثنيهـا عـن موقفها المعارض للإسلام[١] وبالتأكيد لم يكن موقفه هـذا نابعـاً مـن حالـة انفعالية نحو الأهل أو الوطن أو عصـبية تدفعـه لتحقيـق رسـالته بـين أهلـه وقرابته في إطارٍ من العصبية القبلية، بل كان منطلقه مختلفاً عـن ذلـك إلـى تقويم آخر يرى فيه قريش في علاقاتها وإمكاناتها "مفتاح السيطرة على شبه الجزيرة العربية"[٢]، حيث كانت العرب تنظـر إليهـا نظـرة التـابع والمقتـدي بنسبة عالية.

"وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحـي مـن قـريش وأمـر رسول الله (ص)، وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم".[٣]

وفي الوقت نفسه كانت آماله كبيرة بعودة قريش عن موقفها هذا بالقوة أو بغيرها، وأنه لن يمر وقت طويل حتى يتحقق ذلك، فلقد روي عنه قولـه: "لا يأتي عليكم [على قـريش] غيـر كبيـر مـن الـدهر حتـى تـدخلوا فيمـا

(١) راجع: وات، مونتغمري: محمد في مكة، ص ٢٣٤.

(٢) بيضون، ابراهيم: الحجاز والدولة الإسلامية، ص ٨

ـ مهران، محمد بيومي: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص٤٢٤.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٥، ص ٢٤٨.

تنكرون"[1] لذلك كان الصراع أمراً حتمياً في الفترة التي أعقبت وصول المسلمين إلى المدينة، ولقد وعى ذلك الجميع بمن فيهم الأنصار الذين كانوا يقدِّرون البيعة بأنها التزامٌ "بحرب الأحمر والأسود"[2] كما نقل على لسان أحدهم في بيعة العقبة الثانية، ويرجِّح المستشرق وات حدوث هذا الأمر بطريقة تتجاوز المعلومات الواردة في المصادر بقوله "ويبدو أنهم أدركوا ذلك [أي الصراع العسكري] أكثر مما تشير إليه المصادر".[3]

أما قريش فقد أدركت ذلك انطلاقاً من الأخبار التي بدأت تردها عن العلاقة الجديدة بين المسلمين وأهل يثرب، محذرة في الوقت نفسه ـ الخزرج خصوصاً ـ من هذه المبايعة على حربها على لسان أحد قادتها: "ما من حي من العرب أبغض إلينا [إلى قريش] أن تنشب الحرب بيننا وبينهم، منكم"[4] مخاطباً الخزرج.

تلك هي الصورة العامة لواقع العلاقة بين المسلمين وقريش في فترة الهجرة وهي على وضوحها، تتجه بالجميع نحو فترة من الاستعداد، ثم الحرب تسبق القدر المرسوم لشبه الجزيرة العربية، في ذلك التاريخ العاصف بتطوراته وأحداثه.

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٣٤٨.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم، ج٢، ص ٣٦٣. راجع: نويهض، وليد: الإسلام والسياسة، نشؤ الدولة الإسلامية في صدر الدعوة، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيروت ١٩٩٤، ص٧٤.

(٣) وات، مونتغمري: محمد في مكة، ص ٢٣٤.

(٤) ينقل الطبري أن وفداً من قريش حضر في المكان الذي مكث فيه الخزرج بمكة أثناء البيعة للرسول(ص) وقد توجهوا إليهم بالقول: "يا معشر الخزرج، إنا قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا؛ وإن والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم". الطبري: المصدر السابق، ص ٣٦٥.

السرايا والغزوات الأولى

تختلف المصادر التاريخية في توقيت وترتيب المجموعة الأولى من السرايا والغزوات قبل بدر، فبينما يعتبر الواقدي[1] سرية حمزة بن عبد المطلب أول عمل حربي للرسول(ص) في المدينة بعد مضي سبعة أشهر من وصوله إليها يعتبر ابن هشام[2] نقلاً عن ابن إسحق أن غزوة الأبواء التي يحدد تاريخها بعد عام تقريباً من قدوم الرسول(ص)، هي طليعة هذه الأعمال الحربية. أما الطبري فينقل الروايتين دون ترجيح[3] ويمتد الاختلاف إلى السرية الثانية والثالثة وكذلك في الغزوة الثالثة، أما الغزوة الثانية والسرية الرابعة، وهي حدود هذا العنوان.. فنجد توافقاً بين الجميع على التاريخ كما الترتيب.

لن نتوقف كثيراً عند هذا الاختلاف الذي بإمكاننا تحديد الاطار التاريخي له بين الشهر السادس من مقدم الرسول(ص)، وحتى منتصف السنة الثانية، خصوصاً أن ثمة تشابهاً بالمضمون تشترك فيه هذه النشاطات الحربية الأولى للرسول(ص).

أربع سرايا وثلاث غزوات كان معظمها يستهدف التجارة القرشية إلى الشام تهديداً واعتراضاً.

---

(١) الواقدي: كتاب المغازي ج١ ص٢.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ج٣ ص١٣٥.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم ج٢ ص٤٠٢ و٤٠٣.

في السرية الأولى[1] يوجّه الرسول(ص) عمه حمزة برفقة ثلاثين من أصحابه المهاجرين إلى سيف البحر، الطريق الساحلي للتجارة القرشية، بمهمة اعتراض القافلة القادمة من الشام إلى مكة، وعلى رأسها ثلاثمئة راكب من المكيين، فالتقى الجميع واصطفوا للقتال، لكن تدخل مجدي بن عمرو الجهيني ـ الذي كان حليفاً للفريقين ـ فصل بينهما فأكمل المكيون مسيرهم إلى مكة، وانصرف حمزة وأصحابه راجعين إلى المدينة.

أما السرية الثانية[2] فكانت بقيادة عبيدة بن الحارث ومعه ستون من أصحابه ليلاقي أبا سفيان بن حرب على ماء يقال له أحياء من بطن رابغ[3]، وأبو سفيان يومئذ في مئتين من المكيين. وتظهر أخبار هذه السرية أن الأمر اقتصر على الرمي والمناوشة، ولم تسل السيوف بين الطرفين.

وفي السرية الثالثة[4] التي كانت بقيادة سعد بن أبي وقاص إلى الخرّار[5]، كان الرسول(ص) يوجّه صاحبه لبلوغ المكان الذي ستمر به عير قريش. رافق سعداً في هذه السرية عشرون رجلاً سيراً على الأقدام يكمنون النهار ويسيرون الليل، وعندما وصلوا الخرّار، كانت العير قد مرت بالأمس.

في الانتقال إلى الغزوات كانت الأبواء[6] هي الغزوة الأولى التي قادها

---

(١) الواقدي: كتاب المغازي ج١ ص٩.

(٢) الواقدي: المصدر نفسه ص١٠.

(٣) رابغ: "على عشرة أميال من الجحفة وأنت تريد قديداً"، المصدر نفسه ص١١.

(٤) المصدر نفسه، ص١١ .١٢ –

(٥) الخرّار: "من الجحفة قريب من خم" المصدر نفسه، ص١٢.

(٦) الأبواء: "بين المدينة ومكة وهي إلى مكة أقرب، تبعد عن الجحفة ثلاثة وعشرين ميلاً". اليعقوبي: كتاب البلدان ص٧٧. راجع الهمداني: "صفة جزيرة العرب"، ص ٣٣٧.

الرسول(ص) للمضي في اعتراض القوافل القرشية، إلا أن القافلة المقصودة كانت قد مرت قبل وصول المسلمين إليها، لاختلاف التوقيت بين الطرفين فاقتصر الأمر على موادعة الرسول(ص) لبني ضمرة، هذه القبيلة التي تقطن في الممر التقليدي للتجارة القرشية إلى الشام.[١]

ثم كانت غزوة بواط[٢] من ناحية رضوى، لمعلومات توافرت عن مرور قافلة لقريش فيها أمية بن خلف ومئة رجل مع ألفين وخمسمئة بعير. وتنتهي الغزوة بعدم التقاء الفريقين وأن الرسول(ص) لم يلق كيدا.[٣]

تلى ذلك غزوة العشيرة[٤] حيث تابع الرسول(ص) سياسة اعتراض القوافل القرشية في منطقة بين مكة والمدينة من بطن ينبع[٥]. ويُذكر بأن هذه القافلة هي قافلة بدر الشهيرة في رحلتها إلى الشام، كما يتحدث الواقدي عن خروج الرسول(ص) في خمسين ومئة من رجاله. انتهت هذه الغزوة كسابقاتها بعدم التقاء الفريقين لتفاوت التوقيت وبموادعة أخرى مع "بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة[٦]" قبل عودته إلى المدينة.

قبل الحديث عن السرية الرابعة التي اختلفت بنتائجها عن كل ما سبق، نتوقف لتقويم هذه الأحداث بصورة عامة.

---

(١) الواقدي، ج١ ص١١ و١٢.

(٢) بواط: من أرض جهينة، الهمداني: صفة جزيرة العرب ص٣٢١.

(٣) الواقدي: المصدر السابق، ص١٢.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية ج٣ ص١٣٥.

(٥) ينبع: بين مكة والمدينة، وبين ينبع والمدينة تسعة بُرد، الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج٥ ص٤٥٠، ابن سعد: غزوات الرسول(ص) ص١٠.

(٦) ابن سعد: غزوات الرسول(ص) ص١٠.

أولاً: انطلقت هذه السرايا والغزوات، دون أي حادثة أعقبت الهجرة إلى المدينة، ما يعني وجود مشروع صريح لدى الرسول(ص) في كسر شوكة قريش، بأي ثمن ومن دون أي تسويغ مباشر، وبذلك يكون للهجرة معنى آخر ليس لنشر الدعوة فحسب بل لتوفير الشروط الملائمة للمعركة مع قريش بالدرجة الأولى، كهدف مرحلي.

ثانياً: في تقويم النتائج التي قدمتها هذه الجولة الأولى مع قريش، نحن أمام ترتيبات سياسية (موادعة القبائل) واستعدادات ميدانية، لتحسين الظروف وبالتالي الموقف، للحرب المقبلة أو في أحسن الأحوال للتحدّي المقبل.

هذه الاستعدادات التي تمثلت بتأهيل المسلمين للحرب، عبر توجيههم في حملات عسكرية، هي أقرب للمناورة منها إلى الحرب. فليس من الصدفة دائماً أن لا يلتقي الطرفان كما وليس من الصدفة أن يخضع المسلمون لبعض الموانع في سل السيوف إذا ما كان بنيتهم خوض الحرب بشكل جدي، فإذا أخذنا الاتجاهات المختلفة لهذه الحملات مع الاهتمام بتنامي أعداد المشاركين فيها، حيث وصلت في غزوة العشيرة إلى مئة وخمسين رجلاً نكون أمام ما يشبه التدريب[1] والتمرس على خوض الحرب المقبلة في غير مكان، فضلاً عن اختبار وتقويم الرسول(ص) للموقف الجهادي لأصحابه.

ثالثاً: نتوقف أيضاً أمام مشاركة المهاجرين فقط دون الأنصار[2] في

---

(١) لمزيد من الوضوح، راجع بيضون، ابراهيم: الأنصار والرسول(ص) ص٢٤.

(٢) الواقدي: كتاب المغازي ص١١.

هذه الحملات وما ينطوي عليه هـذا الفـرز فـي بـاكورة النشـاط العسـكري للرسول(ص) في المدينة، وهل كان ذلك التزاماً بمقتضـيات البيعـة الأخيـرة حيث التزم الأنصار الموقـف الـدفاعي للمسـلمين. أم أن الرسـول(ص) لـم يشعر بضرورة مشاركتهم في تلك الفترة التي كانت فيهـا الأهـداف مقتصـرة على التهديد والتحدّي دون الحرب الفعلية، وهو ما يمكن ترجيحه في هـذا المجال "حيث المرحلة كانت لا تزال مقتصرة على السرايا الصغيرة[1]" كمـا يرى المؤرخ بيضون.

---

(١) بيضون، إبراهيم: الأنصار والرسول(ص) ص٢٤.

سرية نخلة: الصدام الأول

في رجب وعلى رأس سبعة عشر شهراً من مقدم الرسول(ص) إلى المدينة وبعد شهر على غزوة العشيرة، بعث النبي عبد الله بن جحش، في ثمانية من المهاجرين، وكتب له كتاباً أمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين من المدينة، فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحداً، طالباً منه سلوك طريق النجدية، وعند نشر الكتاب وجد ابن جحش أن عليه أن يسير حتى ينزل نخلة[1] بين مكة والطائف وأن يترصّد بها قريشاً ويأتي للرسول(ص) بأخبارهم.

ويمضي عبد الله بن جحش في تنفيذ الكتاب مع أصحابه فينزل بنخلة حيث مرّت عير قريش، وفيها عمرو بن الحضرمي وثلاثة من بني مخزوم. تشاور أصحاب الرسول(ص) في أمرهم وكان آخر يوم من رجب، ويقال أول يوم من شعبان، فغلب على الأمر الذين يرون القتال، فخرج أحدهم فرمى عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، وشدّ القوم عليهم فأُسر اثنان من بني مخزوم، فيما فرّ الثالث إلى قومه، واستاقوا العير التي كان فيها خمر وأدم[2] وزبيب جاء به المهزومون من الطائف. وصل الخبر إلى قريش التي أعلنت أن محمداً استحلّ الشهر الحرام، فقد أصاب الدم والمال، فيما واجه

---

(١) نخلة: "موضع على ليلة من مكة، وهي التي ينسب إليها بطن نخلة". البكري: معجم ما استعجم م٢ ج٤ ص١٤٨.

(٢) أدم: "ما يؤكل بالخبز أي شيء كان" ابن منظور: لسان العرب م(١) ص٤٥.

المسلمون اعتراضاً من الرسول(ص) على عملهم هذا، مع تذكيرهم بأنه ما أمرهم بالقتال في الشهر الحرام طالباً حبس الأسيرين وممتنعاً عن العير.

فيما تقدم موجز الرواية التي نقلها ابن هشام[1] والواقدي[2] لسرية نخلة أو عبد الله بن جحش.

الواضح من طريقة الإعداد لهذه السرية، أن الرسول(ص) لم يستهدف صداماً مباشراً مع قريش، فالهدف الأساسي، كما وجدناه في كتاب السرية، هو الرصد ونقل المعلومات. ويؤكد ذلك موقف الرسول(ص) من أصحابه حين ذكرهم بأنه لم يأمرهم بقتال.

وعليه لم يكن بنية الرسول(ص) خرق التقليد العربي في الحرب بما يخص الأشهر الحرم.

وقد تعرّض القرآن لهذا الموضوع في آية[3] تؤكد حرمة القتال كما هو الحال عند العرب، إلا أنه برّر فعل المسلمين في نخلة عبر المقارنة بين مستوى الجرم في خرق الأشهر الحرم من جهة، وما فعلته قريش بالمسلمين في إخراجهم من مكة وفتنتهم عن دينهم من جهة أخرى، معتبراً الجرم الثاني أكبر عند الله.

من دلالات هذه السرية، نقف عند أمرين أساسين:

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ج٣ ص١٤٧.

(٢) الواقدي: المغازي ج١ ص١٤ .١٦ – ١٥ –

(٣) **﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصدّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل...﴾** قرآن كريم: سورة البقرة، آية ٢١٧.

الأمر الأول: كما رأينا فقد سال الدم للمرة الأولى بين المسلمين وقريش، وكانت أحداث نخلة خطوة متقدمة في التصعيد حتى ذلك الحين، ما يعني اضطرار قريش فيما بعد للرد وفقاً لمنطق الثأر على الأقل.

الأمر الثاني: نلحظ في هذه السرية امتداداً غير متوقع لأعمال الرسول(ص) العسكرية، حيث تم تجاوز طريق مكة ـ المدينة إلى مكة ـ الطائف، وهو بلا شك تطور نوعي و"مباغتة كبيرة بالنظر لبعدها عن المدينة"[1] على حد تعبير أحد المؤرخين المعاصرين، مما سيثير غضب القرشيين ويحملهم على الرد في الوقت المناسب، كما سنرى في الأحداث الآتية، حيث اعتبرت قريش هذه العملية استفزازاً كبيراً لمكانتها[2] وتحدياً محرجاً لها أمام أعين القبائل.

(١) العلي، صالح أحمد: الدولة في عهد الرسول(ص) م١ ص٢١٨.

(٢) راجع: وات مونتغمري: محمد في المدينة ص١٦.

غزوة بدر: نشوء التوازن

ظلت قافلة قريش، منذ فاتت الرسول(ص) في غزوة العشيرة، موضع اهتمام منه ومتابعة، لذلك ما إن وصلته أخبار انصرافها من الشام حتى ندب أصحابه إليها، مشجعاً لهم للحصول على الغنائم "هذا عير قريش فيها أموالهم، لعل الله يغنمكموها"[1] "فخف بعضهم، وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله(ص) يلقى حرباً"[2] وكان عدد الذين خرجوا للقافلة "ثلاثماية وخمسة"[3] مع اهتمام بارز بالغنائم. وصلت أخبار خروج المسلمين إلى أبي سفيان قائد القافلة، فأرسل إلى قريش يدعوها لإنقاذ أموالها وتجارتها، ثم انحرف في طريقه معتمداً خط الساحل، حيث تمكن من إبعاد قافلته عن خطر المهاجمة، ولما أحس بالإطمئنان، أرسل إلى قومه ثانية يدعوهم للعودة، لكن أبا جهل رفض ذلك وأصرّ على قومه في ورود بدر، عازماً على ما يمكن تسميته باستعراض القوة في موسمٍ من مواسم العرب حيث سوقهم كل عام.

وكان عدد الذين خرجوا بقيادته تسعمئة وخمسين رجلاً، بينهم غالبية أشراف مكة وزعماؤها. تدنّى هذا العدد عندما عادت قبيلتا زهرة وعدي بعد علمهما بنجاة القافلة لحسابات خاصة داخل الاطار القرشي "إذ إنهما اعتقدتا

(١) الواقدي: المغازي ج١ ص٢٠.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ج٣ ص١٥٣.

(٣) الواقدي، ج١ ص٢١.

أن أبا جهل وأصدقاءه سيكونون المستفيدين.[1]"

بقيت القافلة هدفاً للمسلمين حتى وقت قريب من المعركة، عندما وجدوا أنفسهم أمام المعسكر القرشي فتغيرت الأمور في غير اتجاه، وكان لا بد للرسول(ص) في هذا الموقف الجديد من التأكد أن الأنصار الذين خرجوا معه للمرة الأولى عازمين على الوقوف إلى جانبه حتى النهاية، ولقد سمع كلاماً مطمئناً لدى سؤالهم في هذا المجال.

التقى الطرفان في بدر[2] يوم الجمعة صبيحة السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، واستهلت المعركة بمبارزة القادة حيث تمكن ثلاثة من قادة المسلمين من إلحاق الهزيمة بثلاثة من كبار القرشيين، قبل أن تحتدم المعركة فتسفر عن هزيمة قريش، ومقتل سبعين رجلاً منها أبرزهم قائد الحملة وأسر سبعين آخرين في حين لم يفقد المسلمون أكثر من أربعة عشر رجلاً. وعاد الفريقان كل إلى موطنه في أجواء تنذر بالمزيد من التفاعلات المقبلة.

فيما تقدم لمحة سريعة عن أبرز أحداث اللقاء الدموي الأول بين المسلمين والقرشيين كما يوردها كل من ابن هشام[3] والواقدي[4]. فما هي الدلالات والأبعاد؟؟

---

(١) وات مونتغمري: محمد في المدينة ص١٨.

(٢) بدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة، وبين بدر والمدينة سبعة برد. الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج١ ص٣٥٧ و٣٥٨.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ج٣ ص١٥٣ و١٥٩ و١٦٦ و١٧٣ و٢٤٠ و٢٤٦ و٢٦٢ و٢٦٣ و٢٧٠.

(٤) الواقدي: كتاب المغازي ج١ ص٢٧ و٤٣ و٤٤ و٤٨ و١٠٢ و١٤٤ و١٤٥ و١٥٧.

انطوت معركة بدر على كثيرٍ من الدلالات والأبعاد، كما حفلت بالكثير من الأحداث التي كانت تتوالى بمستوى عالٍ من التطور، فالمواجهة التي حصلت لم تكن في مقدمة التوقعاتِ المحتملة لدى الفريقين، كذلك النتائج جاءت مخالفة لتقديرات القرشيين، في حين أنها لم تعبر كثيراً عن الإمكانيات المتواضعة لدى المسلمين، في ما يأتي أمور عدة:

الأمر الأول: فرضت نتائج بدر معادلة جديدة في الصراع الإسلامي القرشي، انتقلت فيها الأوضاع إلى مستوى من التوازن في الحضور العسكري فضلاً عن السياسي. فلم يعد المسلمون بعد بدر جماعات مهاجرة، تبحث عن مصيرها ومستقبلها في ظروف من الضعف وتفاقم الحاجة، كما لم تعد قريش القوة المهيمنة الوحيدة في منطقة الحجاز تتنقل بتجارتها حيث تشاء في ظل "نظام الايلاف"[(١)] أو الاحترام القائم على السيادة القرشية، فدلالات هذه المعركة تنبىء بظهور تدريجي لقوة جديدة تدفع قريش والقبائل المجاورة إلى إجراء أدق الحسابات والاحتمالات عند التفكير في أي مواجهة قادمة.

الأمر الثاني: عاد المسلمون إلى مدينتهم وبحوزتهم الكثير من عناصر القوة المادية الملحة في ذلك الوقت، فالمعلومات الواردة[(٢)] تشير إلى غنائم متعددة للمسلمين؛ وصفت بأنها "أدم كثير" مع "مئة وخمسين بعيراً" بالإضافة إلى "سبعين أسيراً" وصلت فدية بعضهم إلى "أربعة آلاف درهم للرجل"[(٣)] ما

(١) راجع: بيضون، ابراهيم: الحجاز والدولة الإسلامية ص٩.
(٢) الواقدي: ج١ ص١٠٢.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ج٣ ص٢١٢.

استدعى تبلور نظام خاص في توزيع الغنائم عرف "بالخمس" يكون فيه للرسول(ص) القرار في طريقة توزيع الغنائم كذلك نظام "الأنفال" الذي حدّد نوعاً من الأموال ومرجع أمره، إلى الرسول(ص) خاصة.

لا شك بأن هذه الغنائم كانت موضع حاجة ملحة، وخصوصاً بالنسبة إلى المهاجرين الذين مضى على هجرتهم عامين تقريباً، دون أن يتوافر لهم ما يذكر في تأمين معيشتهم. ولعلّ ذلك ما يفسّر هذا الاهتمام البارز بالغنائم سواءً في طريقة دعوة[1] الرسول(ص) لأصحابه للخروج، أو في مضمون دعائه لربه حين خرج من المدينة: "اللهم إنهم حفاة فاحملهم، وعراة فاكسهم، وجياع فأشبعهم، وعالة فأغنهم".[2]

في هذا المجال أيضاً ـ وفي أبعاد الحصول على غنائم بدر سوف يرمز الإسلام ليس فقط إلى شقاوة الحياة وهجران الأهل والأوطان بل إنه في إيحاءته الجديدة، يعد بالغنائم الوفيرة، التي تنقل المسلمين، ومن يرى خيارهم، إلى حياة أفضل اقتصادياً مما سيسهم لاحقاً "في جذب الاتباع من مستضعفي القبائل ومحاربيهم".[3]

الأمر الثالث: أيضاً سيعود المسلمون إلى مدينتهم أكثر "تماسكاً"[4] وأشد تلاحماً حيث اختلط للمرة الأولى دم المهاجرين بدم الأنصار في أحداث تبعث على الكرامة الدينية لكل من أسهم أو شارك فيها ممهدين بذلك لمرحلةٍ طويلة من الجهاد المشترك بمزيدٍ من الانصهار والتعاون.

---

(١) "هذه عير قريش فيها أموالهم، لعل الله يغنّمكموها"، المصدر نفسه، ص ٢٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦.

(٣) القمني، سيد محمود: حروب دولة الرسول(ص) ج١ ص ٥٤.

(٤) خليل، عماد الدين: دراسة في السيرة، ص ١٥٤.

ومن جهة أخرى قدّمت نتائج بدر مجموعة من الأدلة العملية في صدق الدعوة التي يحملها الرسول(ص) من خلال التفصيلات المدهشة التي رافقت الأحداث إلى النصر[1] مما يعزّز الإيمان في قلوب المسلمين، وبالتالي الانتماء لهذا الدين الجديد في وقت ازدادت فيه "مكانة محمد(ص)"[2] تألقاً ومهابةً في صفوف أصحابه، الأمر الذي سيجعل من المسلمين في المدينة قوّة نوعية فيها الكثير من عوامل الطاقة والتفاعل بين المسلمين ودينهم من جهة، أو بين المسلمين أنفسهم وقيادتهم من جهة أخرى.

الأمر الرابع: ما هي أبرز التداعيات الداخلية والخارجية للهزيمة على الصعيد القرشي؟

لقد فقدت قريش سبعين رجلاً بينهم مجموعة من أشرافها وقادتها وفي مقدمتهم قائد الحملة أبو جهل وعتبة وشيبة ابني ربيعة وأمية بن خلف، كما أسر سبعون آخرون، وأهم من ذلك كله، فقد أثرت الهزيمة في "الناحية المعنوية"[3] لقريش وهيبتها ليس فقط أمام المسلمين، ولكن أيضاً أمام القبائل العربية المجاورة التي وصلتها هذه الأخبار، وهذا هو المأزق الكبير الذي ستعيشه قريش بكثيرٍ من القلق والشعور بالدونية. ولا شك أن عوامل عديدة أسهمت في هذه الهزيمة؛ أوّلها غياب الوحدة والتماسك في صفوف القرشيين خصوصاً بعد نجاة القافلة ـ العنصر الحيوي الذي كان وراء هذا الاجتماع والحشد الكبير للمكيين ـ فانسحاب قبيلتي زهرة وعدي قبل

---

(١) راجع: وات، محمد في المدينة، ص ٢٤.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) العلي، صالح أحمد: الدولة في عهد الرسول(ص)، ج١، ص ٢٢٣.

المعركة أفقد الحملة ما يقارب المئتي رجل[1] والتردُّد في متابعة الحملة إلى بدر انتشر في صفوف القادة[2] البارزين فيها فضلاً عن القاعدة.

صحيحٌ أن أيًّا من الطرفين لم يكن يتوقع[3] المعركة بالطريقة التي صارت إليها عدا عن النتائج التي أسفرت عنها، لكن تفاقم الأوضاع منذ السرايا والغزوات الأولى كان يفرض على الطرفين، وخصوصاً على قريش فعل شيء ما، لقد وجدت نفسها أمام هذا الفعل دون قضيَّةٍ مثيرة.

وعليه سيعود القرشيون إلى مكة دون قيادة وسيستقبل أبو سفيان المهزومين والمجروحين بكثيرٍ من رباطة الجأش، كما سيدعوهم مع من بقي في مكة إلى الكف عن إظهار الحزن والعزاء، موجهاً الأنظار نحو الجولة المقبلة التي سوف تشكل تكتلاً متماسكاً لقريش بعد أن قدَّمت لها بدر قضيتها المثيرة، التي نقلت الصراع من مرحلة التحدِّي والتهديد إلى مرحلة الحرب الحقيقية بكل مخاطرها وفداحتها.

أخيراً من المفيد التوقف قليلاً عند الاختلاف الذي قدَّمته المصادر بين الزعماء القرشيين في خصوص المسير إلى حرب المسلمين في بدر حيث أورد الواقدي[4] كراهية أهل الرأي من قريش الحرب، وفي مقدمتهم الحارث بن عامر، وأمية بن خلف، وعتبة وشيبة ابني ربيعة وحكيم بن حزام

---

(١) الواقدي، الجزء الأول، ص ٤٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٣.

(٣) خصوصاً بالنسبة إلى المسلمين، وقد أشار ابن عبد البر إلى ذلك بقوله "لم يحتفل في الحشد لأنه أراد العير، ولم يعلم أنه يلقى حرباً" متحدثاً عن موقف الرسول(ص) من حشود قريش في بدر. ابن عبد البر: الدُّرر في اختصار المغازي والسير، ص ٦٨.

(٤) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٧.

وغيرهم، وأن أبا جهل مع بعض فريقه من المتحمسين للحرب رجّحوا خيارهم الحربي في ظل ظروف عسكرية مؤاتية.

لا نعرف مقدار التأثير الذي كان يمكن أن يلعبه ذلك الفريق المتردّد في الحرب فيما لو جرت الأمور كما كان يرى قبل بدر، لكن من المؤكد أن هذا الفريق الذي يمكن تسميته بالتيار العاقل، غاب كلياً بعد معركة بدر، خصوصاً وأنه فقد اثنان من أركانه على أرض المعركة، هما عتبة وشيبة ابني ربيعة، بالإضافة إلى الهزيمة التي مني بها الجميع.(١)

---

(١) يميز صاحب كتاب الإسلام والسياسة بين معارضة أبي جهل من جهة وأبي سفيان من جهة أخرى بقوله عن الأولى بأنها "صدامية عنيفة" والثانية "سياسية وأحياناً سلمية" نويهض، وليد: الإسلام والسياسة، ص٦٦.

بين بدر وأحد

غزوة السويق[1]

في الشهر الثاني والعشرين من هجرة الرسول(ص)، وبعد قرابة الشهرين والنصف على بدر، خرج أبو سفيان في مئتي راكب من أصحابه يريد المدينة ذلك أنه حين رجع إلى مكة، ورأى ما رأى من نتائج بدر، نذر أن لا يتناول الدهن أو يقرب النساء حتى يغزو محمداً. فكان خروجه براً بيمينه، فلما وصل قريباً من المدينة أرسل مجموعة من أصحابه فأتوا ناحية يقال لها العريض[2] فوجدوا بها رجلاً وحليفاً في حرث لهما فقتلوهما وأحرقا بيتين في نفس المكان، ثم انصرفوا راجعين فخرج الرسول(ص) في طلبهم، ولم يتمكن من إدراكهم ورافقه مئتا رجل من المهاجرين والأنصار في هذه الغزوة،عادوا جميعاً إلى المدينة،وقد سميت بالسويق لكثرة ما رمى القرشيون هذا النوع من الطعام أثناء انصرافهم ليتخففوا منه.

لا شك أن ما أراده أبو سفيان من هذه الغزوة كان نوعاً من ردّ الاعتبار لقريش بعد مأساتها في بدر، ولعل السرعة التي تمت فيها هذه الغزوة، بالإضافة إلى عدد المشاركين فيها من قريش، بالمقارنة مع الأهداف المنجزة (قتل رجلين ـ حرق بيتين...) ثم هذه العودة المرتبكة ـ نوعاً ما ـ حيث

---

(١) الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨١. ابن سعد، غزوات الرسول(ص) وسراياه، ص ٣٠. ابن هشام، ج ٣، ص ٣١٠ ـ ٣١١.

(٢) العريض: "واد بالمدينة"، الحموي، ياقوت معجم البلدان، ج ٤، ص ١١٥.

أنهم لم يتمكنوا من الاحتفاظ بزادهم، أقول لعل ذلك يشير إلى القلق الشديد الذي عاشه أبو سفيان مع أصحابه في كلٍّ الوقت الذي استغرقته هذه الغزوة.

وفي كلٍّ الأحوال، فإن اختيار أبي سفيان عدم مواجهة المسلمين بعد علمه بلحاقهم به ـ وإن كان يعبر عن الطريقة أو الخطة التي اعتمدها منذ خروجه من مكة ـ إلا أن ذلك لن يؤثر في الأجواء التي تركتها بدر لمصلحة المسلمين.

سرية زيد بن حارثة إلى القردة[1]

ينقل الواقدي كلاماً لصفوان بن أمية أحد وجهاء قريش يعبِّر فيه، عن الأوضاع الصعبة التي تعيشها التجارة القرشية جرَّاء سياسة اعتراض العير التي اعتمدها الرسول(ص) منذ أكثر من عامٍ ونصف. فيقول إن محمداً وأصحابه عوَّروا على قريش تجارتها، فما تدري كيف تصنع بالمسلمين الذين لا يبرحون الساحل بعد دخول عامة هذه المنطقة في موادعة الرسول(ص) كما يتساءل عن الطريق الذي يمكن سلوكه بعيداً عن هذا التهديد.

هذه الأوضاع وغيرها من العقبات التي سدَّت الطريق الساحلي سوف تدفع زعماء قريش وفي مقدمتهم صفوان ابن أمية للبحث عن طريقٍ آخر، يحافظون من خلاله على استمرار تجارتهم التي تمثل الشريان الحيوي للمكيين في تلك الفترة.

وقع الخيار على طريق العراق ومن المدينة إلى الشرق، حيث قام ابن

---

(١) القردة: "من أرض نجد بين الربذة والغمرة ناحية ذات عرق" ابن سعد، غزوات ص ٣٦.

أمية بتجهيز حملة تجارية فيها الكثير من الذهب والفضة وزن ثلاثين ألف درهم كما رافقه رجالٌ من قريش ببضائع مختلفة، ووصلت أخبار القافلة إلى الرسول(ص) الذي أرسل إليها زيد بن حارثة في مئة راكب في شهر جمادى الآخرة على رأس سبعة وعشرين شهراً من الهجرة إلى المدينة، فاعترضوا القافلة وأصابوا العير وأفلت أعيان القوم كما أسروا رجلاً أو رجلين واغتنموا حمولة القافلة التي قُدِّر خُمُسها بعشرين ألف درهم.(١)

في سرية ابن حارثة نتوقف عند هذا النجاح الكبير الذي أحرزته سياسة الرسول(ص) في قطع الطريق التجاري الطبيعي للقوافل القرشية، وهو أمرٌ إن دلَّ على شيء، فهو يدل على عمق المأزق الذي عاشته قريش في ذلك الحين حتى إذا ما بدا لها طريقٌ آخر على صعوبته ومجاهله، سارعت القوة الإسلامية لقطعه مع السيطرة على غنائم أول قافلة تسير عليه، وهو الحصار الحقيقي الذي يأتي بعد هزيمة قاسية في بدر، إضافة إلى ذلك يبرز أمامنا هذا الامتداد الجديد للسرايا في جغرافية المنطقة، والمرونة العالية في قطع المسافة إلى الشرق مع تجاوز كل العقبات التي بإمكان القبائل القاطنة في الطريق أن تضعها وتهدِّد كلَّ حركة في منطقتها.

مرةً جديدة بعد الحضور بين مكة والطائف في سرية نخلة حضورٌ آخر بين مكة والشام عبر العراق في سرية زيد بن حارثة.

أما الغنائم فقد تميزت بكثافتها وارتفاع في أثمانها، حيث يقدَّر المجموع بمئة ألف درهم إذا ما اعتمدنا معادلة الخمس الذي قدِّر بعشرين

---

(١) الواقدي، المغازي، ج١، ص ١٩٧ و١٩٨. ابن هشام، السيرة، ج٣، ص ٣١٧. ابن سعد، غزوات، ص ٣٦.

ألف درهم، وهو رقمٌ مميزٌ بـالنظر إلـى حجـم العمليـة وتكلفـة الاسـتعداد وبالتالي التضحية بها.

مع سرية القردة قضى المسلمون على كلِّ أملٍ في تأجيل حسم الأمـور لدى قريش وستشهد الفترة المقبلة ذروة الاستعداد العسـكري فـي صـفوف المكيين حتى ذلك الوقت.

غزوة أحد[1]: الثأر القرشي

بعد عام تقريباً على معركة بدر، كانت فيها قريش قد أخذت وقتها في الإعداد والتحضير لمعركة الثأر، بدأت الأمور تأخذ صورتها الأخيرة، فقد أقنع أبو سفيان الذين شاركوا في قافلة بدر المشهورة ببذل الأرباح كافة في التحضير والتجهيز. فلم تزل العير موقوفة حتى تجهزوا للخروج إلى أحد، فباعوها، وصارت ذهباً عيناً. وإذا كانت العير ألف بعير، وكان المال خمسين ألف دينار وكان الربح أيضاً في الدينار ديناراً، فنحن أمام تمويلٍ مميزٍ للحملة الجديدة.

إضافة إلى ذلك أرسلت قريش أربعة منها يسيرون في العرب، يدعونهم إلى نصرهم فتجاوب قسمٌ منهم، وكانت ثقيف في مقدمتهم وذكر الواقدي أنها القبيلة التي أوعبت في هذه الحملة، كما خرج أبو عامر الراهب في خمسين رجلاً من أوس كان قد تلكأ في الحضور إلى بدر، وكان مجموع الذين خرجوا من قريش مع من ضوى إليها ثلاثة آلاف مقاتل بعدة وسلاح كثير في مئتي فرس، وكانوا سبعمئة دارع[2] وثلاثة آلاف بعير.

كما خرجت النساء ومعهن الدفوف، يحرضن الرجال ويذكرنهم قتلى

---

(١) الواقدي: المغازي ج١، ص ١٩٩، ٢٠٠، ٢٢٢، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٤٤، ٢٨٣، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣١٨. ابن سعد: غزوات الرسول(ص)، من ص: ٣٦ ـ ٤٨. ابن هشام: السيرة، ج٤، ص ٩ و١٣ و٢٦ و٥١ و٥٧ و٨٣ و٨٥

(٢) دارع: "ذو درع [أي] لبوس الحديد" ابن منظور: لسان العرب م(٢)، ص١٣٦١.

بدر في كل منزل، يتقدمنهن نساء كبار القرشيين.

ووصلت الأخبار إلى الرسول(ص) عن طريق عمه العباس ورجالٍ من بني خزاعة، فدعا قومه وأصحابه إلى المواجهة، وخطب فيهم خطبةً دعاهم فيها للالتزام بالطاعة والامتناع عن المعصية، فخرج معه في بدء الأمر ألف رجل، إلا أن رأي عبد الله بن أبي (الزعيم المرشح لعرب المدينة قبل وصول الرسول(ص) إليها) في مواجهة قريش من المدينة، دفعه للعودة ومعه ثلثُ الناس، كما ينقل ابن هشام[1].

في هذا الوقت، عرض الأنصار على الرسول(ص) الاستعانة بحلفائهم من اليهود فرفض معتبراً أن لا حاجة للمسلمين إليهم.

وصل المسلمون إلى أحد[2] وباشر الرسول(ص) تنظيمهم، وتحديد أماكنهم، وأوضح خطته في حماية ظهور المسلمين؛ فطلب من الرماة بأن يمنعوا الخيل من مواقعهم في الجبل مشدّداً عليهم ضرورة الثبات سواء في النصر أو الهزيمة.

في هذا الوقت، كانت قريش قد وصلت إلى مكان قريب من أحد أخذت فيه حاجتها في الرعي والماء من أراضٍ تابعة للأنصار في منطقة الغرض.[3]

وجرت المعركة في الخامس عشر من شوّال من السنة الثالثة للهجرة

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص ٩.

(٢) أُحد: "جبل أحمر، ليس بذي شناخيب، وبينه وبين المدينة قرابة ميل في شماليها.." الحموي: ياقوت، معجم البلدان، الجزء الأول، ص ١٠٩.

(٣) "النواحي. الخصبة من المدينة" الحموي، ياقوت معجم البلدان، المجلد الرابع، ص ١٠٢.

في أجواء غير متكافئة بين الطرفين، وتمكن المسلمون بدءاً من قتل أصحاب اللواء القرشي كافة، كذلك كشفوا أعداءهم عن معسكرهم وباشرت النساء بالهرب، كما تقدَّم المسلمون من الغنائم، فانشغل قسم كبير منهم بها، وترك غالبيةُ الرماة أماكنهم لمشاركة إخوانهم في الغنيمة، الأمر الذي سيلفت نظر قادة قريش فيقوموا بعملية التفاف واسعة قضوا فيها على ما تبقى من رماة الجبل، فانكشف المسلمون أمام محاربيهم، ودخلت المعركة مرحلة جديدة ضعفت فيها قوة المسلمين عن المواجهة، وتعرَّض الرسول(ص) لجروحات عديدة في جسمه وأخذت أعداد المسلمين بالتساقط أمام القرشيين مما دفع الرسول(ص) وأصحابه إلى الانسحاب إلى مواقع المسلمين ناحية الشعب في الجبل في عملية تراجع أعقبتها حركة توحيد في صفوفهم رسمت حدوداً جديدة مع محاربيهم في وقت أخذ التعب والإرهاق من قريش مأخذاً كبيراً في همتها وعزيمتها، وانتهت المعركة بعد أن أعرضت الأخيرة عن بعض الآراء التي كانت ترى دخول المدينة، وذلك بفعل الإرهاق، وغموض الأوضاع العسكرية بالنسبة إليها داخل المدينة.[1]

وتختلف المصادر في عدد الذين قتلوا من المسلمين في بدر، فبينما يذكر الواقدي[2] أن عدد شهداء الأنصار بلغ سبعين رجلاً وأربعة من المهاجرين يورد ابن هشام أن جميع من استشهد من المسلمين من المهاجرين والأنصار خمسة وستون رجلاً[3]، وكان من أبرز الذين فقدتهم المعركة من المسلمين عم الرسول(ص)، حمزة بن عبد المطلب، وسفيره

---

(١) الواقدي: المغازي، ص ٢٩٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٠٠.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص ٨٣.

الأول إلى المدينة قبل الهجرة، مصعب بن عمير، وعبدالله بن جحش، قائد السرية المشهورة إلى نخلة.

لم تتحدث المصادر عن أي نكسةٍ للمسلمين منذ بدأ الرسول(ص) بتجريد غزواته وسراياه ضد قريش أي: من حوالى عامين من الزمن. فقد سيطر النمو وحرية المبادرة طوال هذه الفترة وربما خُيِّل للمسلمين حينذاك أن ذلك يعود لحقيقة موقفهم الديني، وأن استمراره أمرٌ حتميٌ في كل الأحوال.

لكن نتائج أحد كانت دون التوقعات على الأقل في صفوف المسلمين، فما هي الدواعي والأسباب؟

لا شك أن القرشيين عندما خرجوا من مكة هذه المرة كانوا يدركون تماماً أنهم في الطريق إلى الحرب، كما كانت لديهم أكثر من قضية يدافعون عنها أو يلتزمون بها، ولقد حوصروا في خياراتهم، ولم يعد أمامهم إلا المواجهة فقتلاهم ببدر، ما زالت تتفاعل في تجميعهم وتوحيدهم، وتوقف تجارتهم والمصدر الفعلي لحياتهم بات أمراً يهدِّد كل ما لديهم من طاقة على الاستمرار فضلاً عن المكانة والسمعة، ولن يكون بمقدورهم الاستمرار على هذا المنوال لأن السياسة التي عرفوها لمحمد (ص) لن تكتفي بكل ذلك.

ثم إن الأمر لم يعد قضية قرشية فقط، بل بدأت القبائل العربية المجاورة تأخذ دورها في الصراع، ذلك أن الجيش الإسلامي - إذا جاز التعبير - لن يوفرها في المستقبل كما في الحاضر.

هذه هي أهم العناصر التي ستمكن قريش من القيام بمبادرة حربية،

فتحشد لها ثلاثة آلاف مقاتل بمستوى عال من التجهيز في العتاد والأموال فضلاً عن دخول العنصر النسائي كتعبير بأنّ قريش التي جُرحت وتأذّت كلُّها هي حاضرة اليوم للأخذ بالثأر، أما في الجانب الإسلامي، فلم تكن الحرارة بالمستوى نفسه.

فلقد أصيب المسلمون بالخطوة الأولى، والقرار الأول في المعركة بسبب اختلافهم على المكان الذي يواجهون منه الهجمة القرشية، من المدينة أو من خارجها؟ الأمر الذي أفقد القوة الإسلامية ثلث عددها[1] قبل بدء المواجهة وهو أمرٌ زاد في ضآلة العدد إذا ما قورن بأعداد المكيين.

يرمز ذلك إلى الارتباك الذي عاشه المسلمون لدى تلقيهم نبأ الحملة القرشية، وما يعني ذلك من ضرورة السرعة في الاستعداد بكل طريقة ممكنة، في وقت كانت فيه قريش قد أخذت حاجتها في تأمين كل مستلزمات الحرب، ولم تكن استفادتها الخاصة من أراضي الرعي التابعة للأنصار وكذلك حصولها على حاجتها من الماء من المكان نفسه أمراً عسيراً عليها.

حضر المسلمون إلى الطرف الذي اختاروه وأوضح الرسول(ص) خطته في الحرب معتمداً على سياسة الظهر المحمي، وبدأت المعركة واستفاد المسلمون كثيراً من عقيدة الجهاد في الدفاع عن أنفسهم وعن كل الإنجازات التي حققوها حتى ذلك الوقت، وانكشفت المرحلة الأولى عن إمساك المسلمين بزمام المبادرة فسقط لواء المكيين دون أن يتمكن أحد من رفعه وتراجع هؤلاء إلى الخلف، ولحقت بهم نساؤهم، وعجّل المسلمون

---

(١) ابن هشام: السيرة، ج٤، ص٩.

في الحصول على الغنائم فسقط العنصر الأساسي في سياسة الظهر المحمي بهبوط الرماة من الجبل واستغل فرسان المكيين هذه الثغرة، فانقلبت الأمور لغير مصلحة المسلمين[١]. هذه هي الدراما الحربية في أُحُد، حيث أضاف الذين تركوا مواقعهم في حماية ظهور المسلمين ضعفاً إلى ضعفهم كما زادوا المكيين قوةً إلى قوتهم، الأمر الذي طرح للمرة الأولى مستوى التزام المسلمين حينذاك بتوجيهات الرسول(ص)، كذلك مستوى إنغماسهم في عالم الغنائم وعجزهم عن مقاومة المغريات المادية في أشد الأوقات حراجةً وهو ما تفاجأ به أحد[٢] أصحاب الرسول(ص) المشهود له بإيمانه وعصاميته في قوله إنه لم يظن أن "أحداً من أصحاب الرسول(ص) يريد الدنيا"[٣] حتى سمع الآية التي تتحدث عن الذين تركوا مواقعهم في حماية ظهور المسلمين.

والحديث أيضاً عن مستوى التزام أصحاب الرسول(ص) بتوجيهاته لم يبدأ فقط في القسم الأخير من المعركة فحسب، بل إن التساؤل في خلفية عودة ثلث المسلمين مع عبدالله بن أبي قبل بدر المعركة يُعدّ وجيهاً بمقدار التأثير الذي عكسته هذه العودة في جبهة الأنصار[٤] وإذا ما تمادينا بالاستفهام في هذا المجال فإن أسئلةً تطرح حول مدى انخراط هذه المجموعة في الإسلام وتقيُّدها بتعاليمه؟

وعليه بإمكاننا اعتبار ضعف التماسك بين المسلمين وسقوط بعضهم

---

(١) الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٣١.

(٢) عبد الله بن مسعود.

(٣) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٢٢.

(٤) راجع: بيضون، ابراهيم: الأنصار والرسول(ص)، ص ٣٢.

أمام مغريات الغنائم "اجتماع الفوضى وحب السلب" أحد أهم العوامل التي أسهمت بالوصول إلى النتيجة التي صارت إليها معركة أحد كما يرى ذلك المستشرق[1] وات.

تلك أبرز عوامل النتيجة؛ فما هي أبرز أبعادها؟

لا يمكننا القول إن نتائج أحد أعادت المسلمين إلى الوراء وتحديداً إلى ما قبل بدر، كما لا يمكننا القول إن معادلة التوازن التي فرضتها بدر قد اختلت كلياً، فالنتائج على قساوتها لم تفرض معادلة جديدة؛ كما أنها لم تخرج الطرفين عن دائرة السجال الذي يسيِّر الحروب قبل حسمها.

ولعلَّ ذلك ما نستوحيه من كلامٍ لأبي سفيان يعتبر فيه أن يوم أحد كان مقابلاً ليوم بدر طالباً موعداً لمعركةٍ جديدة بعد عام، الأمر الذي ثبته الرسول(ص) بقوله: "هو بيننا وبينكم موعد"[2] يتضح لنا الموضوع بصورة أكثر إذا ما أجرينا مقارنة بسيطة بين نتائج بدر وأحد حيث طال القتل في الأولى رموز القرشيين وقيادة الحملة فضلاً عن أسر سبعين قرشياً وهو ما لم يحدث في معركة أحد باستثناء مقتل عم النبي حمزة بن عبد المطلب.

وإذا تعادلت أرقام القتلى القرشيين في بدر[3] (٧٠ رجلاً تقريباً) بقتلى المسلمين في أحد[4] (٧٠ رجلاً تقريباً) فإن عدد قتلى المسلمين في بدر[5]

---

(١) وات: محمد في المدينة، ص ٤١.

(٢) ابن هشام: السيرة ج٤، ص ٤٣.

(٣) ابن هشام: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٧.

(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص ٨٣

(٥) ابن هشام، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٦٢ و٢٦٣.

(١٤ رجلاً تقريباً) كان أقل من قتلى القرشيين في أحد [١] ٢٢ رجلاً تقريباً) يضاف إلى ذلك أن الجموع العسكرية في أحد كانت ثلاثة أضعاف جموع بدر مما يقلّل من مستوى خسائر أحد عندما تتعادل مع بدر. إضافةً إلى ما تقدّم فإن "نجاح المسلمين في الخروج من تطويق المشركين والتخلُّص منه بخسائر عشرة بالمئة بقواتهم القليلة يعتبر نصراً لهم"[٢] على حد تعبير أحد المؤرخين المعاصرين.

لقد تمكنت قريش فعلاً من الثأر[٣] للدم الذي أُريق في بدر، ولكنها بذلك، قامت بكل ما لديها من قوة، وإن إعراضها عن متابعة المعركة إلى المدينة ـ مع كل التبريرات ـ يعتبر رضوخاً قرشياً لمعادلة التوازن المفروضة منذ بدر، وإن القدرة على الصمود[٤] لدى الفريقين ما تزال حقيقة قائمة.

نتوقف في معركة أحد عند بروز اليهود، وجماعة المنافقين (كما جرى الاصطلاح عليهم)، حيث تتحدث المصادر[٥] عن اتخاذ هذين الفريقين مواقف تراوح بين الشماتة وإظهار المخالفة، بعد وصول أخبار أحد، ما يعني بدء تبلور وضع جديد داخل إطار المدينة. الأمر الذي سيدرك الرسول(ص) مخاطره جيداً في أعماله الحربية المقبلة مع الفريق الأول، اليهود. في وقت وعى فيه بدقة "طغيان الباعث الإقليمي على أي خلفية دينية"[٦] على موقف

(١) المصدر نفسه، ج٤، ص ٨٥

(٢) خليل، عماد الدين: دراسة في السيرة، ص ١٦٤.

(٣) راجع: العلي، صالح أحمد: الدولة في عهد الرسول(ص)، المجلد الأول، ص ٢٢٩.

(٤) راجع: وات، ص ٤٢ و٤٣.

(٥) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣١٧ ـ ٣١٨.

(٦) بيضون، إبراهيم، الحجاز والدولة الإسلامية، ص ١١٢.

لفريق الثاني، المنافقين.

أخيراً، لا يظهر لنا أن نتائج أحد ـ على قساوتها بالنسبة إلى المسلمين ـ ستسهم في تأجيج الصراع، أو الارتفاع به نحو مستوى جديد أشد عنفاً وأكثر خطورة، ذلك أنه سيكون بإمكاننا العثور، بين هذا الصخب والردود العنيفة، على عوامل وظروف جديدة، تشير إلى تطوُّر مختلف في الصراع لن يندفع معها أحد الفريقين، نحو المزيد من العنف وإراقة الدماء.[1]

لقد استعادت قريش شيئاً من هيبتها ـ بل جل ما أرادت من ذلك ـ التي افتقدتها في بدر، وهو أصعب ما كانت تعانيه منه وأشد الأمور تأثيراً فيها.

وإن تجارتها المهددة، قضية يمكن معالجتها بالكثير من التعاون مع القبائل الشريكة، والقليل من التضحية وسفك الدماء. وإن الطرق السابقة تم اختيارها بناءً على تقويم سابق للقوة الإسلامية، وها هي الأمور تشير إلى عدم الدقة والموضوعية في التقويم السابق، ما يقتضي إعادة النظر في الطرق المعتمدة، وفي كل الأحوال لا شيء يؤكد وجود تناقض جوهري بين الفريقين سابقاً، ولا الأوضاع الراهنة كرَّست شيئاً من هذا القبيل.

---

(١) يلاحظ هشام جعيط أن زعماء قريش وبالأخص أبا سفيان لم يريدوا استثمار تفوقهم استثماراً كاملاً خلال معركتي أحد والخندق ويعلّل ذلك بقوله: "كأنهم كانوا يريدون أن يتركوا لهذا النبي المتحدّر من قريش، فرصة لتنفيذ مشروعه"، جعيط، هشام: الفتنة، جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، ص١٣. راجع أيضاً أبو خليل، شوقي: في التاريخ الإسلامين ص٧٧.

غزوة حمراء الأسد[1]: الخروج من الهزيمة

لم يمض يومٌ على أحد حتى بعث الرسول(ص) من يؤذن بالمسلمين لطلب العدو الذي لا يزال في طريقه إلى مكة، ويعلّق ابن اسحق على هذه المبادرة المثيرة أن الرسول(ص) كان يستهدف إرهاب أعدائه "مرهباً للعدو وليبلغهم أنه خرج في طلبهم، ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم".[2]

وأصرَّ الرسول(ص) على عدم خروج الذين لم يشهدوا القتال بالأمس معرضاً عن الذين استأذنوه، ثم سار بأصحابه الذين بلغوا خمسمئة رجل[3] حتى انتهوا إلى حمراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال، فقام بها ثلاثة أيام كاملة عاد بعدها إلى المدينة. وتذكر الرواية أن الرسول(ص) كان يأمر المسلمين في النهار بجمع الحطب، فإذا أمسوا أمرهم بأن يوقدوا النار حتى ترى من مكان بعيدٍ، ولقد كانوا في تلك الليالي يوقدون خمسمئة نار.

تعتبر غزوة حمراء الأسد، من أكثر الغزوات الإعلامية التي قادها الرسول(ص)، كما تعتبر في مقدّمة الغزوات السياسية التي كانت أهدافها

---

(١) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٣٤ ـ ٣٤٠.

(٢) ابن هشام: السيرة، ج٤، ص ٥٢. ابن خلدون: السيرة النبوية، ص١٣٤.

(٣) يعود تقدير هذا العدد إلى عدد النيران التي كان المسلمون يوقدونها في تلك الغزوة "فلقد كانت تلك الليالي توقد خمسمئة نار" الواقدي، ص ٣٣٨.

بعيدة نسبياً عن منطق الحرب والقتال.[1]

وخرج المسلمون بجراحاتهم وتعبهم الشديد ليمضوا ثلاثة أيام، هي غاية في الاستنفار والجهوزية في وقت هم أحوج فيه إلى الراحة ومداواة أجسامهم المثقلة بالجراح، ولكن الرسول(ص) ـ الذي لم يسلم هو من الجراح في أكثر من مكان في جسمه ورأسه ـ كان يرى ضرورة إنهاء أُحد بخاتمة أخرى هي أقرب إلى مستقبل الصراع مع قريش من مشهدها الأخير وهو العارف الخبير بتداعيات الأمور المعنوية سواءً عند الطرف المعادي أو حتى داخل الجماعة التي يقودها.

في حمراء الأسد أيضاً يستثيرنا من جديد هذا الانصياع اللافت لأوامر الرسول(ص) من قبل أصحابه، خصوصاً إذا ما استعدنا الصورة السابقة في أحد، حيث السقوط للبعض أمام الغنائم كان بديلاً من الالتزام بالتوجيه فنتساءل عن هذا الانضباط الشديد مع كل الجراحات والإرهاق الذي أخذ من الجميع مأخذاً بليغاً؟ وهل كان المسلمون يكفِّرون عن الخطيئة التي اقترفها بعضهم في أحد؟ أم إنهم لمسوا بأيديهم نتائج التقصير الفادح الذي كانوا وراءه فهم يحاولون التخفيف قدر إمكانهم من المأساة التي صنعتها أيادٍ فيهم؟ وهو ما يمكن ترجيحه في هذا الأمر.

بإمكاننا الاعتقاد أيضاً أن الرسول(ص) في حمراء الأسد لم يكن فقط بصدد إرهاب العدو والإسراع في طي ما يمكنه من مأساة أحد، بل إضافة إلى ذلك، كان مهتماً بساحته الداخلية[2] ، وحريصاً على معنويات أصحابه

---

(١) يرى شوقي أبو خليل في حمراء الأسد "مناورة عسكرية رائعة وبارعة أعادت الروح المعنوية العالية للمسلمين" أبو خليل، شوقي: في التاريخ الإسلامي، ص٨٠

(٢) راجع: بيضون، ابراهيم: الأنصار والرسول(ص)، ص ٣٣.

عبر اللحاق بالعدو مسافة ثمانية أميال مبتعداً بهم عن المدينة ثلاثة أيام كاملة يجنبهم بذلك الاستغراق في المأساة مع إكثار الحديث والتأويل، مستبدلاً بذلك كله فصلاً جديداً من فصول الجهاد، يشعر فيه المسلمون بأن زمام المبادرة ما زال بأيديهم.

أخيراً، إذا كان لنا أن نجري مقارنة عامة بين غزوتي حمراء الأسد والسويق باعتبار أنهما كانتا طريقة في استعادة المكانة التي فقدها الفريق الأول في بدر ثم الثاني في أحد، فإننا أمام الملاحظتين الآتيتين.

الملاحظة الأولى: توقيت الغزوتين من بدر وأحد، فبينما كان على المسلمين في غزوة حمراء الأسد أن يبادروا فوراً من دون أن يعبأوا بالجراح والإرهاق فضلاً عن ضحاياهم التي سقطت في أحد، فقد أخذ القرشيون وقتاً كافياً، شهران ونصف تقريباً، قبل أن يحضروا في ما سُمِّيَ بغزوة السويق.

الملاحظة الثانية: طريقة الحضور حيث كانت في السويق نوعاً من المباغتة؛ ذهب ضحيتها رجلين كانا في حرثهما أعقبها هروب أمام المسلمين اضطُرَّ عندها المهاجمون إلى التخفُّف من أحمالهم (جراب السويق) بغية العودة السريعة وبالتالي تأمين السلامة.

أما في حمراء الأسد، فقد قام المسلمون الذين شاركوا في أحد دون غيرهم، وقد قضوا قرابة الخمسة أيام يرسلون الإشارة تلو الأخرى في الاستعداد للمواجهة، في المكان الذي اقتربوا فيه من أعدائهم الذين حملوا نصرهم مع حرصٍ وتمسكٍ شديدين بهذه النتيجة، ما دفعهم إلى عدم الإكتراث، وربما الخوف على هذا النصر من القوة التي قامت من جديد في حمراء الأسد.

ما يمكن استنتاجه من هاتين الملاحظتين، هذا التفاوت الملحوظ في مواجهة التطوُّرات حيث تظهر فيه القوة الإسلامية في حالة إقبال مع اتجاه الأحداث، بينما الانحسار وربما التراجع يسود الجبهة القرشية عندما تكون التكلفة استثنائية بنوعٍ ما.

غزوة بدر الموعد[1]: مواجهة التحدّي

ذكرنا قبل حمراء الأسد، أن أبا سفيان عندما همّ بالانصراف من أُحد نادى بالمسلمين أن بدر المقبل موعدٌ جديد في القتال وقد أجابه الرسول(ص) عبر عمر بن الخطاب مؤكداً ذلك.

وكان بدر الصفراء مجمعاً يلتقي فيه العرب وسوقاً تقوم لهلال ذي القعدة إلى ثمان ليالٍ خلون منه، فإذا قضت هذه الليالي تفرّق الناس إلى بلادهم، فلما دنا الموعد كره أبو سفيان الخروج فحاول تخذيل الرسول(ص) عبر إيعازه بذلك لنعيم بن مسعود الأشجعي، على أن يكون له، بالمقابل، بدلاً مرموقاً من المال، وخرج أبو سفيان على حاله تلك حتى نزل مجنةً من ناحية الظهران[2] ، حيث بدا الرجوع، منادياً قومه بأنه لا يصلحهم إلا عام خصب يرعون فيه الشجر ويشربون فيه اللبن، وأن هذا العام عام جدب معبراً عن عزيمته الشخصية بالرجوع فرجع الجميع.

أما الرسول(ص)، فقد كان مصراً وبقوة على هذا الخروج "وإن لم يخرج معي أحد" فخرج معه ألف وخمسمئة من المسلمين، وكانت الخيل عشرة أفراس، تجدر الإشارة إلى أن مجموعة كبيرة من المسلمين خرجت

---

(١) استقينا معلومات هذه الغزوة من: الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٨٤ ـ ٣٨٧. ابن هشام: السيرة، ج٤، ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٢) واد قرب مكة وعنده قرية يقال لها مر الظهران. الحموي، ياقوت: معجم البلدان، المجلد الرابع، ص ٦٣.

بتجارات إلى بدر في سياق هذه الحملة مما جعلهم أكثر أهل ذلك الموسم.

أقام المسلمون ثمانية أيام في بدر بعد وصولهم إليها لهلال ذي القعدة على رأس خمسة وأربعين شهراً من مقدم الرسول(ص)، وفي السنة الرابعة للهجرة، وانتهى الموعد بغير لقاء، حيث كان القرشيون قد غادروا المنطقة قبل وصول الرسول(ص)، فاستفاد المسلمون من أوقاتهم في الموسم وأنجزوا تجارتهم بصورة جيدة، حيث تحدَّث عثمان بن عفان عن أرباح مضاعفة ربح فيها للدينار ديناراً.

وهناك حضورٌ آخر للرسول(ص) بعد حمراء الأسد، وبعد عام على مأساة أحد، يؤكد فيه عزمه على متابعة الحرب في أكبر تجمّع عسكري، أحرزه حتى ذلك الحين متجاوزاً بذلك تداعيات النكسة الماضية محافظاً على الإيقاع التصاعدي في النمو على أكثر من صعيد.

وإذا كان أبو سفيان يبحث في الظروف المؤاتية ويعتبر أن الجدب(١) كافياً في تأجيل اللقاء، فإن ذلك لا يعدو أكثر من غياب للدافع الحقيقي المطلوب في هذه الحروب، فقد تمكن المكيون في أحد من تحقيق الثأر بشكل كاف، وهو الهدف الذي كان بإمكانه تجميعهم، وتوحيدهم وبث الحماس في رجالاتهم، أما وقد انتهى ذلك، فإن الهدف الثاني إخراج التجارة القرشية من دائرة التهديد والخطر الإسلامي ـ تلزمه مقدمات أخرى ـ واستعدادات ليس من شأنها تحقيق النصر في معركة فقط، بل المطلوب هذه المرة تحقيق الهزيمة النهائية، فلا تقوم بعدها للمسلمين قائمة. وقريش

---

(١) ابن عبد البر، الدّرر، ص ١٢١.

تعرف تماماً أن ذلك لم يعد بمستوى قدراتها، منذ بدر وأن الأمر يحتاج إلى أحلاف أخرى يجتمع فيها كلُّ المتضررين من مكانة وسياسة محمـد (ص) وهو ما لم تتمكن قريش من إنجازه بعد في هذا الموعد.

غزوة الخندق[1]: سقوط التوازن

بعد غزوة بدر الموعد في السنة الرابعة للهجرة وحتى السنة الخامسة، مرَّ عام كاملٌ لم تتحدث فيه المصادر عن أي نشاط حربي بين قريش والمسلمين؛ وهي أطول فترة زمنية تشهد هذا الهدوء بين الفريقين منذ بدء الصراع.

وجاءت غزوة الخندق بعد هذه الفترة ـ من خلال المشاركين فيها ـ تكشف عن حجم التحدّي الذي شكلته الدعوة الإسلامية ليس لقريش فحسب، بل لكل المجموعات البشرية القاطنة في القسم الغربي لشبه الجزيرة العربية.

يبدأ الحديث عن غزوة الخندق بذكر مجموعة من قبيلة بني النضير اليهودية ـ التي أخرجها الرسول(ص) من المدينة قبل فترة وجيزة ـ قَدمت على قريش في مكة تدعوهم إلى حرب الرسول(ص) معربةً عن استعداد القبيلة بأن تكون معهم على الرسول(ص) حتى "نستأصل محمداً"[2] على حد تعبير الرواية. فتحالفوا على ذلك، وتعاقدوا ثم قامت هذه المجموعة بتأليب القبائل العربية فاستجابت غطفان ـ القبيلة الكبيرة في تلك المنطقة ـ بعد أن وعدت بتمر خيبر سنة كاملة وكذلك فعلت بنو سليم بعد أن

---

(١) المعلومات المذكورة تعود إلى: الواقدي: المغازي ج٢ ص٤٤٠ ← ٤٩٦ ابن هشام: السيرة ج٤ ص ١٧٠← ١٩٢.

(٢) المصدر الأول السابق، ص ٤٤١.

اشترطت خروج قريش.

ومع شهر ذي القعدة من السنة الخامسة خرج الجميع في أكبر حشد عسكري في تلك الفترة بلغ "عشرة آلاف"[1] رجل.

شاركت قريش في تلك الحملة بأربعة آلاف رجل وقاد عيينة بن حصن ألفاً من بني فزارة، كما خرجت أشجع بأربعمئة رجل وكذلك فعلت بنو مرة.

تجدر الإشارة إلى أن بني النضير، وهي القبيلة التي أثارت العداوة للمسلمين وأول من مشى في التحضير لهذه الحملة، لم تذكر في عداد المجموعات التي شكلت الحملة، وبقي العدد الفارق بين الإجمالي ومجموع التفصيل المذكور يطرح التساؤل حول صحة المجموع؟ أو عدم إيراد بعض المشاركين.

ووصلت أخبار الحملة إلى الرسول(ص) عند فصولها من مكة إلى المدينة عبر مجموعة من بني خزاعة مثل كل مرة.

تداول المسلمون في طريقة المواجهة، فاستقرَّ الرأي على حفر الخندق في الجهة الشمالية من المدينة باعتبارها الأكثر انكشافاً أمام الجيوش القادمة كما قرَّ الرأي في الدفاع عن المدينة من داخلها، وخرج المسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع[2] في ثلاثة آلاف من المسلمين وأمر بالذراري والنساء فجعلوا بالآطام.

---

(١) الواقدي، المصدر السابق، ص ٤٤٤.

(٢) سلع: جبلٌ بالقرب من المدينة. الحموي، ياقوت: معجم البلدان، الجزء الثالث، ص ٢٣٦.

في هذه الأثناء دخل حيي بن أخطب النضري "زعيم بني النضير" على كعب بن أسعد القرظي صاحب عقد بني قريظة، فأقنعه بنقض العهد مع الرسول(ص) بعد جدال طويل، فأضاف عدواً جديداً للرسول(ص) من الداخل مع الأعداء الذين يحاصرون المدينة من الخارج.

وباشرت الأحزاب (الاسم الذي يطلقه المؤرخون على الجيوش التي تحالفت مع قريش في الخندق) حصار المدينة الذي امتدّ إلى ما يقارب الشهر لم تكن فيه بين الفريقين حربٌ إلا الرمي بالنبل، وضاق الجميع ذرعاً كما عانوا ظروفاً طبيعية ولوجستية غاية في الشقاء والقساوة. فلما اشتد البلاء، بعث الرسول(ص) إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف، وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما، وجرى الصلح حتى كتبوا الكتاب، ولم تقع الشهادة ولا العزيمة الأمر الذي أحدث خللاً في جهة الأحزاب من دون أن يلتزم الرسول(ص) أمام غطفان بشيء.

كذلك أرسل النبي نعيم بن مسعود الأشجعي ـ الذي كان يخفي إسلامه ـ في مهمة تخذيل غاية في السرية[1]، حيث تمكن من إثارة الريبة والشكوك ـ وهي قائمة أصلاً ـ بين قريش من جهة، ويهود بني قريظة من جهة ثانية.

ولما تفاقمت الظروف على الفريق المحاصر، بعد وقت طويل نسبياً دون أي تغيير في مجرى المواجهة، قام أبو سفيان منادياً الناس بضرورة

---

(١) يعطي العقاد في كتابه عبقرية محمد دوراً بارزاً لعملية التخذيل هذه بقوله: "ما نجحت دعوة قط برجل واحد نجاح هذا الرجل ولا انتهزت فرصة..... كما انتهزت هذه الفرصة" العقاد، عباس محمود: عبقرية محمد، ص٤٩.

الانسحاب بعد أن قدَّم ما يشبه التقرير الفعلي عن الأوضاع التي آلت إليها الأمور:

هلك الكراع[1] والخف[2]، ولم تف بنو قريظة بعهدها، والريح شديدة ما تبقي على شيء كما لا تقوم معها نار.

وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم ولم يسقط في هذه الغزوة، على ضخامتها، سوى تسعة من المسلمين وثلاثة من الأحزاب.

في أول التحليل لغزوة الخندق يبرز التساؤل حول عدم حدوث معركة جدية مع كل هذه الاستعدادات الحربية وضخامة المشاركين فيها؟ وماذا كانت تفعل هذه الجيوش طوال فترة الحصار التي ناهزت الشهر تقريباً؟

في الإجابة عن هذا التساؤل نحن أمام نوعين من التفسير يتكامل أحدهما مع الآخر:

الأول: وهو التفسير العسكري، حيث حدَّد الرسول(ص) مكان وطريقة المعركة بالطريقة التي يفوِّت فيها على المكيين استخدام خيالتهم العنصر الفاعل لديهم مما أضعف آمالهم[3] في تحقيق النتيجة المطلوبة، فقد استحدث المسلمون طريقة متقدِّمة في الدفاع عن المدينة تمثلت في حفر الخندق الذي يعتبر خطوة متطوِّرة وفاعلة للدفاع في تلك الفترة، ولعلَّ نتائج

---

(١) الكراع: "يستعمل الكراع أيضاً للإبل كما استعمل في ذوات الحافر" ابن منظور: لسان العرب م(٥) ص٣٨٥٨.

(٢) الخف: "خف البعير وهو مجمع فِرْسن البعير والناقة" ابن منظور: لسان العرب م(٢) ص١٢١٣.

(٣) وات: محمد في المدينة، ص ٥٧.

أُحد كانت حاضرة في تفكير الرسول(ص) بشكل مؤثر لدى رسمه خطة الدفاع حيث اتفق المسلمون على الثبات في المدينة، وعدم الخروج منها كذلك عالج مشكلة الرماة في أحد، عبر الخندق أولاً، ثم تثبيتهم بصورة ذكرتهم بنتائج تركهم هذه الأماكن الحاسمة إبان معركة أحد، كل ذلك في وقت لم ترد فيه معلومات عن أي ثغرة، كان بإمكان الأحزاب الدخول منها إلى المدينة وهو أمرٌ يبدو أن الرسول(ص) قد أجرى له حساباته اللازمة.

أما **الثاني**: فهو التفسير الموضوعي، حيث برزت عوامل عديدة لم تمكن الأحزاب من الصمود فضلاً عن استثمار قوتهم بشكل كامل وموحَّد، إذ أصيبت جيوش الأحزاب في بدء وصولها إلى منطقة المدينة "بمشكلة التموين"[(١)] حيث تتحدث المصادر عن جدب مرَّت فيه المنطقة في ذلك العام، مما جعلهم يبحثون في الحصول على علف أفراسهم من الأيام الأولى للمعركة، يضاف إلى ذلك سوء الأحوال الجوية من بردٍ[(٢)] وعواصف جعل الحصار مهمة شاقة على الأحزاب.

أما داخل جبهة الأحزاب، فقد غابت الأهداف الواحدة؛ وإن تقاطعت عند ضرورة تحقيق الهزيمة في الجيش الإسلامي.

فالقبائل المشاركة بمعظمها "لم تكن لها مبررات مقنعة أو دوافع عميقة"[(٣)] في الحرب، الأمر الذي كشفت عنه المحاولة التي قام بها الرسول(ص) في تحييد قبيلة غطفان، وكانت أمام الأحزاب فرصة تاريخية

---

(١) العلي، صالح أحمد: الدولة في عهد الرسول(ص)، ص ٢٤٢.

(٢) الواقدي: المغازي ج٢ ص٤٨٨ و٤٨٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٣٧.

في تفعيل الاتفاق الذي جرى مع قريظة، حيث كان بالإمكان القضاء تماماً ليس على المسلمين فحسب، ولكن ربما على رسالة محمد [1] أيضاً. لكن ضعف الثقة بين الفريقين بالإضافة إلى عملية التخذيل بينهما، التي قادها الرسول(ص) عبر أحد المسلمين الذي كان يخفي إسلامه، فوّت هذا التعاون الخطير.

إذن عانت الأحزاب ضعف التماسك فضلاً عن ضعف الثقة بين الفرقاء الثلاثة الأساسيين: قريش، القبائل، واليهود.

تستوقفنا في غزوة الأحزاب كلمات للرسول(ص) وأصحابه، تبدو غريبة تماماً عن واقع المسلمين في تلك الأثناء، حيث الخوف والجوع والقلق على الذراري والأهل بلغ مبلغاً شديداً منهم.

ينقل الواقدي[2] استشرافاً للرسول(ص) يرجو فيه الطواف في "البيت العتيق وأخذ المفتاح" كما يتوقّع هلاك كسرى وقيصر وإنفاق أموالهما في سبيل الله، وفي موقع آخر[3] يخاطب صاحبه سلمان، مؤكداً له أن فتوحات عديدة سوف تتحقق بعده، حيث يهرب هرقل إلى أقصى مملكته ويظهر المسلمون على الشام واليمن، وكذلك المشرق حيث يُقتل كسرى بعد ذلك.

والمثير في ذلك أن أحد أصحابه، معتب بن قشر، استخف بهذا الكلام، حيث عبر عن التناقض بين الواقع وتلك الكلمات بقوله: إن محمداً يعدهم

---

(١) راجع: وات، محمد في المدينة، ص ٥٨.

(٢) الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٤٦٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٥٠.

"بكنوز كسرى وقيصر" في وقت لا يأمن فيه المسلم "أن يذهب إلى حاجته".[1]

من دون الخوض كثيراً في صحة هذه الروايات ودقتها، فإننا بالإمكان اعتمادها في تفسير الكثير من الخطوات اللاحقة للرسول(ص)، كما يمكننا على هذا الأساس اعتبارها أموراً دارت في ذهن الرسول(ص) ـ على الأقل في ذلك الوقت ـ حيث تمكن ببعد نظره توقع نهاية حملة الأحزاب التي كانت مخيبة لأعدائه، بقدر ما كانت دفعاً قوياً في نمو دعوته وانتشارها.

أخيراً ماذا عن قريش، والصراع معها بعد الأحزاب؟

وهل ثمة مستقبل جديد بين الرسول(ص) والمكّيين؟

في الحقيقة كلُّ الأمور تشير إلى أن الخندق سيكون "آخر محاولة تقوم بها قريش للانتصار على الرسول(ص) والقضاء على الإسلام".[2]

فمنذ انطلاقة الحملة لوحظ تمايزٌ في كمية الأخبار ونوعيتها عن استعداد قريش، تحديداً، ومواقفها، إذا ما قورن بتلك الأخبار عشيَّة أحُد وبدر.

فالخطوة الأولى في بدء هذه الحملة يعزوها المؤرخون لليهود، وأن قريشاً كانت في موقع التجاوب. لا يعني ذلك انكفاءً مكياً عن حرب الرسول(ص)، بل تراجع ملحوظ في مستوى الحماس والمواقف المثيرة، وهو أمرٌ يمكننا ترجيحه بناءً على تلك المقارنة مع بدرٍ وأحد. كذلك

---

(١) الواقدي، المصدر نفسه، ص ٤٦٠.

(٢) العلي، صالح أحمد، الدولة في عهد الرسول(ص)، ص ٢٤٨.

سيكون أبوسفيان ـ وفقاً للمصادر ـ صاحب القرار الفعلي في إيقاف الحرب، بعد حديثه عن الظروف القاسية التي آلت إليها الأمور. ولئن كانت خسارة الأحزاب "ثلاثة نفر"[١]، فيما كانت عند المسلمين "ستة"[٢] نفر، فإن انقلاباً في موازين القوى قد تولَّد نتيجة هذا المآل المثير لهذه الحملة الضخمة. فسقط التوازن فعلاً بعد ثلاثة أعوام تقريباً على نشوئه في بدر، ولئن تأخرت الأيام قليلاً في بلورة ذلك ميدانياً، فإن ملامح الاتجاه العام في ذلك ظهرت منذ أفول الأحزاب عن المدينة.

من جهة أخرى، قد يكون ما تقدَّم طريقة في فهم الظروف التي رافقت معركة الأحزاب، لكن وإن سارت الأمور في غير مصلحة مهاجمي المدينة، فقد مرَّ المسلمون في أصعب تجربة عسكرية حتى ذلك الحين على الإطلاق، وإن النهاية التي آلت إليها هذه المعركة كانت إستثنائية إلى حدٍّ كبير، ذلك أنه لا يمنع توقُّع هزيمة ساحقة للمسلمين أمام هذا الحجم الضخم من الأحزاب، وأن الأمور لو سارت في طريقها الطبيعي، وفي ما يتعلَّق بالموقف الأخير لقريظة واستعدادها المبدئي للمساعدة ضد المسلمين خصوصاً، لكانت النتيجة مخالفة لما وصلت إليه الأوضاع، كما رأينا.

وإن عملية التخذيل التي قام بها الرسول(ص) مع عيينة بن حصن خصوصاً، أشارت إلى حجم المأزق الذي وصل إليه المسلمون إذا ما وجدنا نمطاً جديداً للرسول(ص) في مواجهة أعدائه بهذه الطريقة، حيث أننا، في حدود معلوماتنا حول الأساليب المعتمدة من قبل الرسول(ص)، لم نعثر

---

(١) الواقدي: المغازي، ج٢، ص٤٩٦.

(٢) المصدر نفسه.

على موقف مثيلٍ له في هذا المجال.

تحدثت المصادر ـ كما أشرنا ـ عن ظروف طبيعية صعبة عاشها محاصرو المدينة، كما رأى بعض المؤرخين ضعفاً في حماس هؤلاء الذين لم تكن لهم "مبررات عميقة أو دوافع عميقة في المشاركة"[١] ، كما قيل عن أهمية حفر الخندق الشيء الكثير، ولا بد أن سمعة المسلمين العسكرية، ومكانتهم لدى أعدائهم اليهود خصوصاً، قد أسهمت في إنهاء المعركة على هذا الشكل.

لكن، يبقى التساؤل قائماً حول هذه النهاية الاستثنائية لغزوة الأحزاب، إذا ما توقفنا عند عدد القتلى الذي لم يتجاوز العشرة لدى الفريقين خصوصاً ما يستدعي النظر في إمكانية عدم حصول معركة فعلية، وأن المعطيات المتوافرة لدينا عن هذه المعركة أقل مما حدث فعلاً.

(١) العلي، صالح أحمد: الدولة في عهد الرسول(ص)، ج١، ص ٢٣٧.

بين الخندق والحديبية

يذكر الواقدي[١] سرية أعقبت غزوة الخندق بأربعة أشهر تقريباً (جمادى الأولى سنة ست) بقيادة زيد بن حارثة إلى العيص[٢] تستهدف عيراً لقريش أقبلت من الشام، حيث قام يرافقه مئة وسبعون من المسلمين باعتراض القافلة قبل الاستيلاء على حمولتها التي وصفت بأنها فضة كثيرة لصفوان بن أمية، كما أسروا ناساً ممن كانوا في العير، منهم أبو العاص بن الربيع والمغيرة بن معاوية بن أبي العاص، وتنتهي أحداث الرواية بإسلام أبي العاص بعد استجارته بزوجته السابقة بنت الرسول(ص).[٣]

يورد الواقدي في سياق حديثه في السرية عن جماعة، بأن طريق العراق وليس العيص، كانت الطريق التي اعتمدتها قافلة صفوان، وهو أمرٌ لا يمكن ترجيحه خصوصاً إذا ما راجعنا أحداث سرية القردة[٤] منذ أكثر من ثلاث سنين التي كانت بقيادة زيد كما كان الهدف قافلة صفوان بن أمية أيضاً، ما يعني إمكانية وجود سريتين لا واحدة.

في كل الأحوال تبقى سرية ابن حارثة في سياق سعي قريش الدائم

---

(١) الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٥٥٣ ـ ٥٥٤.

(٢) العيص: من ناحية ذي المروة على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون منها إلى الشام. الحموي، ياقوت: معجم البلدان، الجزء الرابع، ص ١٧٣.

(٣) المدعوة "زينب"، الواقدي ج٢، ص٥٥٣.

(٤) الواقدي، ج١، ص١٩٧.

لمتابعة تجارتها (الشريان الحيوي لها) وإن كانت عاجزة عـن ضـمان أمنهـا بالشكل المطلوب، كذلك يتابع الرسول(ص) حملته في التضييق على قريش حتى آخر المطاف، محافظاً على هذا السلاح الذي سـوف يعتبـر مـن أبـرز العوامل التي ستكون وراء الانهيار المقبل للنظام الاقتصادي القائم[1] وبالتالي المكانة لقريش قبل الإسلام.

(١) راجع: بيضون، إبراهيم: الحجاز والدولة الإسلامية، ص ٩.

غزوة الحديبية[1]: نهاية الصراع

من دون تمهيد أو استعداد مسبق يعلن الرسول(ص) عزمه لدخول مكة لأداء العمرة، كان ذلك بعد عامٍ تقريباً على غزوة الأحزاب، فاستنفر أصحابه الذين حملوا الحد الأدنى من سلاحهم وخرج الجميع بما يقارب من ألف وستمئة رجل، وفي طريقه إلى مكة، حاول استنفار القبائل العربية من بني بكر، ومزينة وجهينة إلا أنهم، وبحجة إنشغالهم من جهة، وعدم استعداد المسلمين في سلاحهم من جهة أخرى إمتنعوا عن الاستجابة، متوقعين أن لا يعود محمدٌ وأصحابه من سفرهم هذا أبداً. وصلت أخبار المسلمين إلى قريش حيث اجتمع زعماؤها للتداول في الأمر، وقرَّ الرأي بعدم السماح للمسلمين بدخول مكة، معتبرين ذلك ـ إن حصل بتلك السهولة ـ نوعاً من الإساءة إلى مكانة قريش، حيث لا تزال نتائج بدر تتحكَّم بالعلاقة بينهما.

واستنفرت قريش خيلها وأحابيشها كما جلبت ثقيفاً وعسكر الجميع في بلدح[2] ضاربين القباب[3] والأبنية ترافقهم نساؤهم والصبية.. تشاور الرسول(ص) مع أصحابه في الخيار النهائي. ولما سمع منهم كلاماً مشجعاً على الثبات، شرع

---

(١) المعلومات المذكورة في هذه الغزوة تعود إلى: الواقدي: المغازي، ج٢، ص٥٧٢ ←٦٣١. ابن هشام: السيرة، ج٤، ص٢٧٥ ← ٢٨٩.

(٢) واد قبل مكة من جهة المغرب. الحموي، ياقوت: معجم البلدان، الجزء الأول، ص ٤٨١.

(٣) القباب: جمع قبة بناء من الأدم. ابن منظور: لسان العرب م(٥) ص٣٥٠٧.

بتوجيه رسائله لقريش يعرض فيها أهداف حملته، كما يعرب عن استعداده للتفاوض. وتعددت الوفود بين الطرفين، وبدا من خلال المداولات أن توافقاً ممكناً بين الفريقين تقف دونه هواجس قريش في المكانة والسمعة، الأمر الذي دفع الرسول(ص) لأخذ البيعة من أصحابه على عدم الفرار خصوصاً بعد وصول إشاعة مقتل عثمان بن عفان موفده إلى قريش.

أثرت هذه البيعة في نفوس القرشيين ولعبت دوراً في تسريع الاتفاق، حيث تقدَّم سهيل بن عمرو ممثلاً المكيين لعقد صيغته النهائية بعد أن مرَّت الأمور بكثيرٍ من الأخذ والرد، ثم انتهى إلى الصلح المشهور الذي عرف بصلح الحديبية[١] وهذه خلاصته العامة:[٢]

١ ـ إيقاف الحرب عشر سنين.

٢ ـ حرية التعاهد والتعاقد مع القبائل من قبل الطرفين.

٣ ـ إلتزام الرسول(ص) بإعادة الذين يأتونه من قريش دون العكس.

٤ ـ تأجيل عمرة الرسول(ص) إلى العام المقبل.

تم توقيع الصلح بين الطرفين في ظل أجواء متشنجة من قبل المسلمين حيث تحدثت المصادر عن شعورٍ عميق بالخيبة والدونية سيطر على قسمٍ كبيرٍ منهم، الأمر الذي كان يحتاج إلى وقت وجهدٍ خاص من قبل الرسول(ص) قبل عودتهم إلى الاستكانة.

تلك أبرز الأحداث التي رافقت الحديبية فما هي أبرز الإشارات التي أضاءتها؟ وبالتالي التداعيات؟

---

(١) الحديبية: طرف الحرم على تسعة أميال من مكة. ابن سعد: غزوات، ص ٩٦.

(٢) الواقدي: المغازي ج٢ ص٦١١ و٦١٢.

الإشارة الأولى التي نلحظها في الحديبية تلك المبادرة المفاجئة التي ميَّزت دعوة الرسول(ص) للعمرة. صحيحٌ أن نتائج الأحزاب دشَّنت مرحلة متقدِّمة في منعة المسلمين ومكانتهم في المنطقة إلا أن الجميع ومنهم المسلمين لم يتوقعوا هذا الاستثمار الدقيق "للانهيار السريع في الموقف المكي" [١] الأمر الذي انفرد فيه الرسول(ص) في البدء كما سينفرد في فهم نتائجه وقبولها ـ باستثناء قلة من أصحابه ـ في النهاية.

الإشارة الثانية التي نلحظها في غزوة الحديبية تتمثل ببراعة الرسول(ص) في الفصل بين المكيين، والقبائل المجاورة، عبر إعلانه عن المضمون الديني البحت لحملته هذه. هذا المضمون الذي أحرج قريش أمام القبائل التي ترى فيه تماهياً مع تقاليدها وقناعاتها الدينية، لذلك أضعف "مركز قريش الروحي بكشف التناقض في موقفها أمام العرب كافة". [٢]

الإشارة الثالثة التي تضيئها الحديبية تكمن في الموقف الحواري [٣] الجديد الذي اختاره الرسول(ص) مع مكة بعد سنوات قاسية في الحرب والتضييق، وهو موقف عبَّر عن استراتيجية تتصل برؤيته المستقبلية لقريش ومكانتها في نشر الدعوة، حيث كان يستهدف نظامها الوثني من دون التأثير في هذه المكانة التي يرى فيها مفتاحاً في التحولات المقبلة ما يعني "إسقاط النظام الوثني من دون قريش" [٤] على حد تعبير المؤرخ بيضون.

أما في التداعيات فنتوقف عند الأمور الآتية:

---

(١) بيضون، ابراهيم: الحجاز والدولة الإسلامية، ص ١١٤.

(٢) قاسم، عون الشريف: نشأة الدولة الإسلامية، ص ٦٥ و٦٦.

(٣) راجع: بيضون، إبراهيم: الحجاز والدولة الإسلامية، ص ١١٣.

(٤) المرجع نفسه، ص ١١٤.

الأمر الأول: فيما يتعلّق بالصراع الإسلامي القرشي، مثّلت الحديبية الفصل الأخير فيه، وعبَّر الصلح في بنده الأول عن ذلك بوضوح، وإن ارتبط ذلك بفترة زمنية محددة، فإن الظروف المقبلة ستحمل الطرفين أكثر من أي وقت مضى على تثبيت ذلك نهائياً.

وانتهى الصراع فعلياً، أما الأحداث في السنتين المقبلتين فلن تكون أكثر من بقايا متقطِّعة محدودة التأثير في العلاقة الجديدة بين الطرفين.

الأمر الثاني: في الوقت الذي بدأت فيه أبواب مكة بالشروع ـ ولو بطريقة محدودة ـ أمام المهاجرين العائدين كانت أبواب القبائل العربية تفتح على مصاريعها[1] للدين الجديد، حيث أسهم بند الصلح الخاص بحرية التعاقد بشكل خاص، ومجمل الموقف الإسلامي بشكل عام، في دفع هذه القبائل نحو إعادة النظر في جدوى استمرارها في الموقف السلبي من الإسلام مما سيجعل الصلح بشكل عام والبند الثاني منه خصوصاً موضع إستفادةٍ مثيرة وكثيرة للإسلام.[2]

الأمر الثالث: فيما يتعلق بالنقطة الثالثة التي أثارت المسلمين بشكل قوي، والتي كان بإمكانها تهديد الصلح برمته لولا بعد النظر لدى الرسول(ص)، فقد كانت نقطةً موقتة في مصلحة قريش؛ وهو نوعٌ من التجاوب الذي أراده الرسول(ص) مع "المحاولة اليائسة من جانب قريش للمحافظة على ما تبقى من ماء وجوههم الذي أريق على مشهدٍ من الناس"[3] كما يعبر صاحب كتاب نشأة

---

(١) قاسم، عون الشريف: ص ٦٨ و٦٩. بيضون، إبراهيم: الأنصار والرسول(ص)، ص ٣٨.

(٢) راجع: العلي، صالح أحمد: الدولة في عهد الرسول(ص)، ص ٢٥٩.

(٣) قاسم، عدة الشريف، ص ٦٨.

الدولة الإسلامية، وهو أيضاً تجربة قاسية للمسلمين الذين ما زالوا بمكة ستجعلهم "تحت رحمة المتعصبين من رجالات قريش".[1]

لكن إذا ما واكبنا التداعيات السريعة لهذا الصلح ـ والتي ربما كانت من وعي الرسول(ص) لحظة التوقيع ـ فإننا سنرى فترة زمنية قصيرة سيعيشها هؤلاء ـ وهو ما سيحدث ـ قبل تحقيق النهاية السعيدة لهم.

قبل الانتقال إلى مرحلة ما بعد صلح الحديبية، من المفيد أن نتساءل فيما إذا كان هذا الصلح تعبيراً عن مرحلة جديدة في العلاقة بين المسلمين؛ وقريش تتميز بالاستقرار والثبات، أم إنه مؤشر مؤقت فيه الكثير من الديبلوماسية[2] والقليل من التعبير عما يجري في الواقع وبالتالي إلى ما ستصير إليه الأمور؟

ليس لدينا ما يشير إلى أن فترة العشر سنين المحددة للصلح هي فترة واقعية، وأن ما اتفق عليه من بنود كفيل بمعالجة كل التطوّرات المتوقعة طوال هذه المدة، ربما كان البند الثالث (تأجيل العمرة إلى العام المقبل) هو أكثر بنود الصلح واقعية كما أنه أكثرها تعبيراً عن حاجة قريش "لهضم" التطوّرات الجديدة متجاوزة لهذا الصلح وبنوده التي "لا تغطي الاحتمالات كافة التي قد تظهر على مر الأيام"[3] كما يرى المؤرخ العلي، وهذا ما شهدته الفترة المقبلة بالفعل.

---

(١) قاسم، المرجع نفسه.

(٢) يعبّر العقاد في كتابه (عبقرية محمد) بدقة متناهية عن هذا المنحى السياسي في الحديبية بقوله: "ولكننا لا نعرف بينها [بين أعمال الرسول(ص)] عملاً واحداً هو أدخل في أبواب السياسة وأجمع لضروبها... من عهد الحديبية في مراحله جميعاً" العقاد، عباس محمود: عبقرية محمد، ص٥٩.

(٣) العلي، صالح أحمد: الدولة في عهد الرسول(ص)، ص ٢٥٧.

عمرة القضيَّة: العودة الدينية إلى مكة

كما تقرَّر في الحديبية، أمر الرسول(ص) أصحابه، لا سيما الذين شهدوا تلك الغزوة، لقضاء العمرة، وذلك مع حلول شهر ذي القعدة من السنة السابعة، خرج المسلمون إلى مكة، وكان عددهم ألفي رجل[1]. تميزت هذه الغزوة بكثرة السلاح مقارنةً بسابقتها الحديبية الأمر الذي استغربه المسلمون فأجابهم الرسول(ص) بالعزم على الالتزام بالصلح وأن الأسلحة لن تدخل معهم بل ستكون قريبة منهم وذلك لهياجٍ محتمل من قبل قريش.[2]

ودخل المسلمون برفقة الرسول(ص) مكة لثلاثة أيام، وفقاً لصيغة العقد أنجزوا فيها مناسكهم المطلوبة وعادوا بعدها إلى المدينة دون حوادث أمنية تذكر.[3]

ما تقدَّم لمحة موجزة عن غزوة القضية؛ فما هي الأبعاد العامة لها في سياق الصراع بين الطرفين؟

بإمكاننا العثور دائماً على السياسي في حركة الرسول(ص)، وهو أمرٌ تقتضيه التطلعات العامة التي يحملها للدعوة، ولكن من الضروري البحث

(١) الواقدي: المغازي ج٢ ص٧٣١.

(٢) المصدر نفسه، ص٧٣٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٧٤٠.

ـ ابن هشام: السيرة ج٥ ص٢٠.

أيضاً في الغاية البعيدة ـ أي الإسلام ـ الذي كان العمل السياسي برمته خدمة لها وفي سبيلها فتكون ـ أي الغاية البعيدة ـ الموضوع النهائي والرئيس في سلوكه ومواقفه. ولعلَّ غزوة القضيّة كانت أنموذجاً فعلياً للتدليل على ذلك[١] حيث الوصول إلى مكة والطواف بين الركن والمقام في أجواء مفعمة بالروحانية والانعتاق إلى الله، ثم الطلب من الصحابي بلال الحبشي رفع الأذان من فوق الكعبة في صرخة تأذت منها مسامع زعماء قريش فضلاً عن شعورهم بالمهانة مما أدى ببعضهم إلى تغطية وجهه أو شكر ربه بأن الآباء لم يشهدوا هذا المشهد المذل.[٢]

وهكذا تكون غزوة القضية أول إنجاز من نوعه فيما يتعلَّق بالغاية البعيدة لحركة الرسول(ص)، حيث يُسمح ـ تحت ظرف القوة ـ للمسلمين بالعودة ولو موقتاً إلى مهد الدعوة تمهيداً للعودة الدائمة قريباً. لكن كما ذكرنا في البدء، فإن المسألة السياسية واضحة في غزوة القضيَّة كوضوح الصلح الذي جاءت بنداً في بنوده، ولعلَّ إشكالية السياسي والديني في حركة الرسول(ص) من أكثر الأمور غموضاً على الباحث والمؤرخ.

ذلك أن الصيغة التي قدَّمها الرسول(ص) في هذا المجال مزجت بين الأمرين حتى لا يعود بالإمكان طرح أي مسألة من دون الاهتمام بالجانبين معاً.

ولعلَّ ذلك يعود إلى أصل المفهوم، وأن الفصل لا يعدو كونه منهجاً غريباً بعض الشيء عن ما كان يجري في شبه الجزيرة العربية إبان ذلك التاريخ.

---

(١) راجع: وات مونتغمري: محمد في المدينة، ص ٦١.

(٢) راجع: الواقدي، ص ٧٣٧ ـ ٧٣٨.

فتح مكة(*): خضوع قريش

بعد غزوة القضية التي عبَّرت عن التزام فعلي بالصلح، وبعد أقل من عامين على عقده بين الطرفين، قامت قريش بتقديم العون والمساعدة لبني بكر في إعتدائها على بني خزاعة (حليفة الرسول(ص))، ثأراً وانتقاماً، مما سيعني نقضاً للصلح وهكذا رآه الرسول(ص).

تبدأ أحداث هذه الغزوة "الفتح" بالزيارة المفاجئة التي قام بها أبو سفيان إلى المدينة حيث التقى الرسول(ص) طالباً منه زيادة الهدنة وتجديد العهد، الأمر الذي سيستغربه الرسول(ص) قبل حضور وفد خزاعة وإطلاعه على التفاصيل، فلما تبين له الموضوع أرسل إلى قريش يخيِّرها بين أمور ثلاث، (دفع دية بني خزاعة، أو نقض الحلف مع بني بكر، أو الحرب) كانت إحداها الحرب فاختارت الأخيرة.[1]

وعزم الرسول(ص) على معاقبة قريش لنقضها الصلح ضمن رؤية أوسع وجد فيها المناسبة المنتظرة لإنهاء الصراع ميدانياً، فأرسل إلى أهل البادية وإلى من حوله من المسلمين، كما دعا أصحابه للاستعداد والتجهيز في أجواء[2]

(*) لمزيد من المعلومات راجع: ابن هشام: السيرة، ج٥، ص ٤٣ و ٤٤ و٤٩ و٥٢ و٥٥ و٦٠ و٦٦ و٦٧ و٧٤ و٨٥. الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٧٨٥ و٧٨٦ و٧٩٢ و٧٩٧ و٧٩٩ و٨٠٠ و٨٠١ و٨١٤ و٨١٥ و٨١٨ و٨٢٢ و٨٢٣ و٨٢٥ و٨٢٦ و٨٢٨ و٨٧٥

(١) الواقدي: المغازي ج٢ ص٧٨٥ و٧٨٦.

(٢) اليعقوبي، الجزء الثاني، ص ٥٨ ابن هشام، الجزء الخامس، ص ٥٢.

توصف بأنها غاية في السرية والكتمان، تمهيداً لمباغتة قريش قبل استفادتها من فرصة الاستعداد، وتجاوبت بعض القبائل العربية المحيطة (أسلم، غفار، مزينة، جهينة، أشجع وغيرهم) دون معرفة الوجهة الحقيقية للسير. وعسكر الجميع ببئر أبي عنبة[١] حيث عقدت الألوية والرايات، فكان المهاجرون سبعمئة، ومعهم من الخيل ثلاثمئة فرس، وكانت الأنصار أربعة آلاف ومعهم من الخيل خمسمئة[٢]، وكانت مزينة ألفاً فيها من الخيل مئة فرس ومئة درع وكانت أسلم أربعمئة فيها ثلاثون فرساً، وكانت جهينة ثمانمئة معها من الخيل خمسون فرساً، وكانت بنو كعب ابن عمر خمسمئة وكان مجموع الذين خرجوا مع المسلمين وفقاً لرواية الواقدي وابن هشام عشرة آلاف رجل[٣] في العاشر من شهر رمضان السنة الثامنة للهجرة.

ونزل المسلمون بالقرب من مكة، مما دفع قريش إلى إرسال أبي سفيان مرة ثانية برفقة اثنين من زعمائها لثنيه عن الحرب وبالتالي تجديد العهد.[٤]

ودخل الثلاثة على الرسول(ص) بعد تمهيد من العباس بن عبد المطلب، ومكثوا عامة الليل خرجوا بعدها معتنقين الإسلام، ونال أبو سفيان من الرسول(ص) مكانةً عزيزة في أول إجراء استقطابي لزعماء مكة، فأعلن الأمن لمن دخل داره، وفي إجراء آخر لتجنيب الجميع الحرب أعطى الأمن لكل من أغلق داره أو دخل الكعبة[٥]، لذلك مَنَعَ سعد بن عبادة من متابعة

(١) بئر بينها وبين المدينة، مقدار ميل. الحموي، ياقوت: الجزء الأول، ص ٣٠١.

(٢) الواقدي، ج٢ ص٨٠٠

(٣) الواقدي: المغازي، ص ٨٠٠ ابن هشام، الجزء الخامس، ص ٨٥

(٤) الواقدي: المصدر نفسه ج٢ ص٨٠٧ و٨٠٨

(٥) الواقدي: المصدر نفسه، ص٨١٨

حَمْله اللواء عندما جاءَه بأن الأخير يثير الأوضاع، بوصفه يوم الفتح بيوم الملحَمة مؤكداً صفة "المرحمة"[1] لهذا اليوم.

ودخل أبو سفيان مكة يقنع أهله وعشيرته في ضرورة الامتناع الكامل عن مقاومة المسلمين متحدثاً عن ضخامة العسكر القادم عدداً وعدة[2]. وفي هذا الوقت كان ثلاثة من زعماء مكة الكبار قد دعوا إلى القتال وقد ضُوى إليهم ناسٌ من قريش وبني بكر وهذيل يقسمون بأن لا يدخلها ـ أي مكة ـ محمدٌ عنوة.[3]

ثم دخل المسلمون مكة من جهاتها الأربعة يحملون توجيهات حاسمة من الرسول(ص) بضرورة الامتناع عن القتل إلا في حال الدفاع عن النفس مستثنياً ستة أشخاص ممن كانت لهم مواقف وسلوكيات خطرة ومحقِّرة للإسلام والرسول(ص) "ونهى الرسول(ص) عن القتال وأمر بقتل ستة نفر وأربع نسوة"[4] وجرت معركة محدودة في الجبهة الجنوبية لمكة قادها ثلاثة من زعماء قريش صفوان ابن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو؛ أدت إلى مقتل أربعة وعشرين[5] رجلاً من قريش وأربعة من هذيل، وقُتل رجلان من المسلمين كانا قد "أخطآ الطريق".[6]

ولما هدأت السيوف واجتمع الناس بالقرب من الكعبة خطب

---

(١) الواقدي، ج٢، ص ٨٢٢

(٢) المصدر نفسه، ص٨٢٣

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر السابق، ص ٨٢٥

(٥) الواقدي، الجزء الثاني، ص ٨٢٦

(٦) ابن هشام، الجزء الخامس، ص ٦٧. الواقدي، الجزء الثاني، ص ٨٧٥

الرسول(ص) بالجموع خطبة شاملة غلب عليها طابع التشريع الجديد[1] معلناً عفوه العام[2] عن القرشيين في أجواء تضج بالقلق وحُمَّى الثأر مختتماً بذلك تجربة طويلة وقاسية في المقاوَمة والحرب طغت على معظم سنيّ الدعوة.

في البدء نتوقف قليلاً عند المغزى الحقيقي لغزوة الفتح لنرى أنه ومع كل هذه الحشود العسكرية الضخمة والأجواء التي أشاعتها في المنطقة (عروض عسكرية، إشعال نيران..) فإن الاتجاه الفعلي للأمور لم يكن إلى الحرب، فهو طريقٌ آخر للسلم يستهدف الضغط على المكيين في المرحلة الأولى، نعثر على ذلك في استقطاب الزعماء القرشيين الثلاث أولاً حيث منع قريش ـ أو في الحد الأدنى جعلها تتردَّد ـ في اتخاذ قرار المواجهة، ثم كانت التوجيهات الحاسمة بضرورة تجنب القتال كأول إجراء علني في الابتعاد عن الحرب، وهكذا كانت الأحداث تشير إلى المنحى السلمي للحركة العسكرية للرسول(ص). وفي السياق نفسه كان استجواب[3] الرسول(ص) لخالد بن الوليد عن سبب قتاله بعد علمه بقرار النهي. وأخيراً كان قرار العفو العام الذي ليس بإمكاننا اعتباره ردة فعل فجائية في أحداث الفتح.

إضافة إلى ذلك فإن خلفية هذا الاتجاه تتجاوز النتائج الآنية للسلم إلى

---

(١) الواقدي: المغازي ج٢ ص٨٤٤

(٢) ينقل المسعودي حواراً بين الرسول(ص) وقريش يتم بموجبه إطلاق سراحهم وإعلان العفو العام عنهم بقوله [أي الرسول(ص)] لهم "إذهبوا فأنتم الطلقاء" المسعودي: مروج الذهب، تقديم محمد السويدي ج١ ص ٣٣٩.

(٣) الواقدي، ص ٨٣٨

المشروع الذي يراه الرسول(ص) لقريش في المستقبل حيث كان يحرص على المكانة التاريخية والدور الريادي المتوقَّع لها، وهكذا يكون تعيين أول حاكم إسلامي[1] على مكة من البيت الأموي المهزوم دلالة " على استمرار قريش في النظام الجديد الذي سيكون على حساب مكة ونظامها القديم"[2] على حد تعبير صاحب كتاب الحجاز والدولة الإسلامية. وإذا كان هذا هو المشروع المتوقّع لقريش في المستقبل، فليس بالإمكان تحقيقه إلا عبر موقف مدهش في الاحتضان والاحتواء من شأنه "تأليف القلوب"[3] بعد تجارب قاسية في العداوة والبغضاء.

وفي السياق نفسه وتحصيناً للمجتمع الجديد الذي يمتلك عناصره الفريدة في حماية حقوق أفراده على كل صعيد، كانت إرادة الرسول(ص) في منع السلب[4] والاعتداء على أموال المسلمين بعضهم لبعض، كما جرت عليه عاداتهم في الجاهلية. وإفساحاً في المجال أمام تطبيق هذا القرار ـ الثقيل على النفوس ـ كان قراره الواقعي بالتعويض على الفقراء و"أهل الضعف"[5] من أصحابه عبر استقراضٍ مثير من زعماء قريش ـ أعداء الأمس ـ في خطوة محكمة لدفع هؤلاء، للإنخراط الفعلي في هموم المسلمين عبر التضحية بالمال ولو إلى حين.

---

(١) عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس، راجع الواقدي: المغازي ج٣ ص٩٥٩.

(٢) بيضون، ابراهيم: الحجاز والدولة الإسلامية، ص ١١٥.

(٣) خليل، عماد الدين: دراسات في السيرة، ص ٢٠٧.

(٤) الواقدي: المغازي، ج٢ ص٨٤٤ ابن هشام: السيرة، ص ٧٨ و٧٩. يشير صاحب كتاب الدّرر في اختصار المغازي والسير إلى أنه لم تشهد مكة أي غنائم فضلاً عن السبي مؤكداً توافق المؤرخين على ذلك بقوله: ".. لا خلاف في أنه لم يكن فيها غنيمة" ابن عبد البر. الدُّرر، ص ١٦٠.

(٥) الواقدي، ص ٨٦٣

أخيراً بعد أكثر من عشرين عاماً في الدعوة والحوار بينها سبعة أعوام من الحروب القاسية خضعت قريش للدين الجديد، فترة تكاد تختصر زمن الدعوة بكامله حتى ليخيّل للمراقب أن قريش كانت تختزل الأهداف للإسلام إذا ما قصر نظره على الجانب المكي حتى غزوة الفتح.

لكن وبعد أن سقطت المنظومة القرشية ـ وبالطريقة التي تم فيها هذا السقوط ـ أصبح بإمكاننا رؤية الأمور بكثير من الإحاطة والاستيعاب، ليس فقط فيما يتعلق بالصراع الإسلامي القرشي، بل إن الأحداث التالية سوف تقدّم المزيد من عناصر الفهم لكل محاور الصراع التي عاشتها الدعوة في المدينة كما ستتبلور أمامنا الدينامية التي عكستها تأثيرات "جاذبية الإسلام وقيمته كنظام ديني"[1] ـ ومهارة الرسول(ص) الفائقة.

---

(١) وات، المرجع السابق، ص ١٠٣.

إستنتاجات عامة

دلت أحداث غزوة الفتح على مدى استعداد الفريقين لتقبُّل الآخر بصورة مثيرة في سرعتها.

فجأة طوى المسلمون والقرشيون صفحات قاتمة من الصراع وسفك الدماء، وانتهى مع اليوم الثاني لدخول الرسول(ص) مكة تقريباً كلُّ شيء لا ثأر، لا انتقام، لا عداوات مستمرة وسيعود لاحقاً إلى مكة وينخرط في صفوف المسلمين من أبعدته قليلاً هواجسه، أو أهوالُ ما رأى من أعداد الفاتحين المسلمين.

وبعد قليل من فتح مكة سيشارك ألفان من المكيين في غزوة حنين التي حدثت بعد أقل من أسبوعين على فتح مكة وسيختفي نهائياً ـ وفقاً للمصادر على الأقل ـ كلُّ صوت من الأصوات التي لطالما أخَّرت أو عرقلت أو تمنعت أمام كل تواصل إيجابي بين الفريقين.

وسيسدل الستار، بطريقة مثيرة، وباعثةً على التساؤل والاستغراب، عن آخر فصل من فصول الصراع الذي لطالما مثل عقدة التغيير والتحوّل في منطقة الحجاز برمتها.

لا شيء يشير إلى أن ما حدث في غزوة الفتح كان السبب في نهاية هذه الغزوة بهذه الطريقة.

كما لا شيء يشير ـ قبل الفتح على الأقل ـ أن المكيين سيكونون

مستعدين، فضلاً عن الرسول(ص)، لإخراج المعركة بهذا الحد من المرونة والتجاوز.

إنه لغريبٌ هذا الصراع الذي استمر قرابة العقد من الزمن، كان الفريقان فيه مستعدين إلى هذا الحد من التجاوز والتعايش فور نضوج الظروف المؤاتية لأحدهما على الأقل.

وما يزيد على غرابة هذا الصراع هذه النهاية الفاصلة، ثم التحوُّل بما يشبه الانقلاب من الخصم الأول إلى النصير الأول وفقاً للمواقف الواردة على الأقل.

فقد انخرط القرشيون نهائياً في الإسلام، ولم تؤثر فيهم رياح الردّة، بل اتخذوا أماكنهم في الصفوف الأمامية دفاعاً عن تلك الدعوة التي لطالما أسهموا في عرقلتها وتأخير إنتشارها. وعليه، فقد كانت سياسة اعتراض التجارة القرشية من زاوية غزوة الفتح أقرب الطرق إلى مكة.

كما كانت معركة بدر ضرورية لدى الفريق القرشي تحديداً لتغيير نظرته إلى خصمه، بل لاكتشاف الأخير بشكل واقعي ودقيق أكثر.

أما معركة أحد، فقد أنقذت المكيين من مأزق بدر وأعادت الصراع بين الفريقين إلى الحد الأدنى من التوازن والهدوء. وستشهد الفترة التالية انكفاءً تدريجياً لقريش عن ركوب الحرب بطريقة التعبئة الذاتية وهي القبيلة التي بنت مجدها بالسياسة أكثر من أي شيء آخر.

ثم كانت معركة الخندق مناسبة لجلاء الخطأ الاستراتيجي في الصراع مع المسلمين، ولو على المدى البعيد. بذلك يمكن أن يُحلّل تطوُّر هذا الصراع.

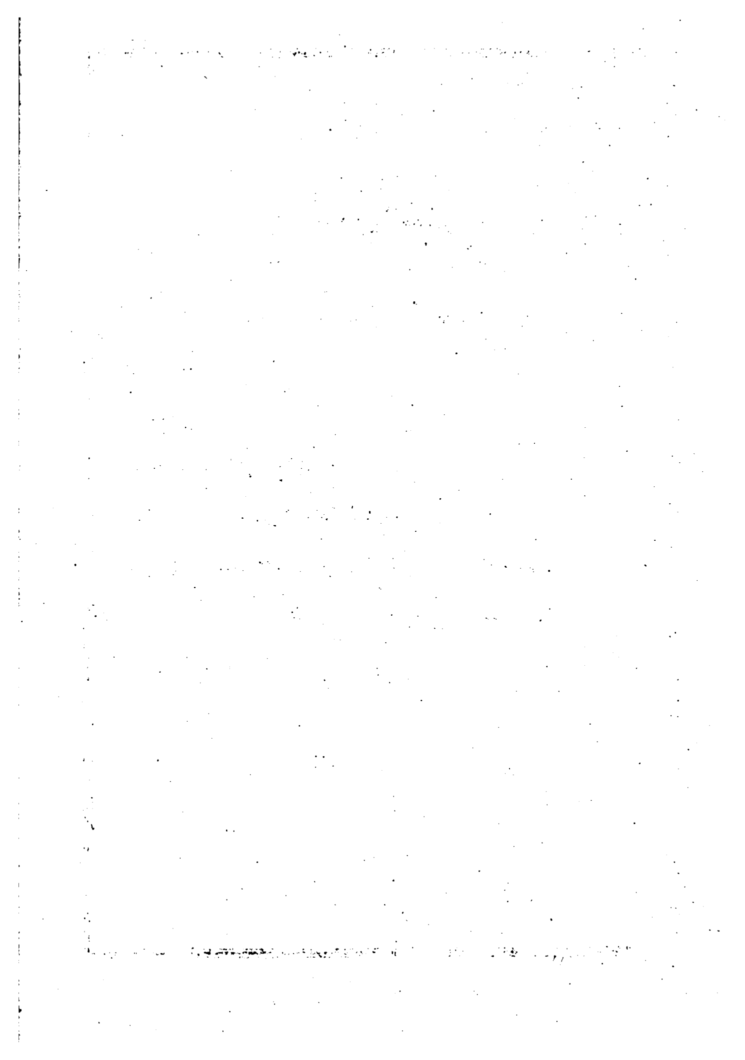
أما في الحديبية، فقد انتقل المكيّون إلى دور الدفاع، في حين كانوا فيه بحاجة إلى بعض الوقت والقليل من ماء الوجه ـ كما رأينا ـ كي يوقّعوا على مؤشرات الصراع الجديدة.

وأخيراً جاءت غزوة الفتح لتحوّل تلك المؤشرات والمعطيات إلى حقائق ميدانية، كان صلح الحديبية قد أشار إليها، واعترف بها، بأقل مما كانت بالفعل.

الفصل الثاني

غزوات الرسول (ص) ضد اليهود

- مدخل
- غزوة بني القينقاع: الصدام الأول
- غزوة بني النضير: سيادة المدينة
- غزوة بني قريظة: نهاية القوة اليهودية في المدينة
- غزوة خيبر: نهاية الصراع
- استنتاجات



مدخل

وصل الرسول(ص) إلى المدينة بعد الهجرة، وكان ذلك إثر اتفاق خاص مع قبيلتي العرب فيها آنذاك الأوس والخزرج، ولا يبدو أن اليهود ـ الذين تقاسموا الحضور في المدينة مع العرب ـ عارضوا هذه الهجرة، فالمصادر لا تذكر مواقف يهودية من هذا القبيل سواءً قبل الهجرة أو في الفترة الأولى منها، ربما لأنهم وجدوا فيها فرصة لتحسين الأوضاع الاقتصادية للمدينة[1] وما يعنيه ذلك من أهداف اقتصادية ربما دارت في أذهانهم في تلك الأثناء مستبعدين خطورة الأمر "انطلاقاً من القدرة على احتوائها بالسهولة نفسها التي رافقت هجرة الأوس والخزرج القديمة إلى يثرب"[2] على الأرجح، وفقاً لتعبير المؤرخ بيضون. وتعتبر وثيقة المدينة[3] التنظيم الرسمي الأساس في نوعية العلاقة التي كان ينوي الطرفان إقامتها بينهما في الفترة الأولى على الأقل[4]، وإذا كان الاختلاف في توقيت الوثيقة يفسح في المجال أمام تأويلات عديدة، فإن ذلك يغدو قليل التأثير إذا ما تم تحديد تاريخ الاتفاق قبل معركة بدر، وهو ما يجمع عليه كثيرٌ من

(١) بيضون، إبراهيم: الحجاز والدولة الإسلامية، ص ١٠٧.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣ ص ٣١ ـ ٣٥.

(٤) يرى صاحب كتاب "في الاجتماع السياسي الإسلامي" أن الرسول(ص) كان في صدد تشكيل مجتمع سياسي واحد مع التنوع في الانتماء الديني وأن محاولته تلك كانت "أول تجربة سياسة في التاريخ من هذا النوع" شمس الدين، محمد مهدي: في الاجتماع السياسي الإسلامي، ص١٦٢.

المؤرخين[1]، خصوصاً إذا ما تجنبنا الخوض في تقسيم البنود إلى فترات متلاحقة، واكتفينا بموضوع الموادعة كأساسٍ متين للنظر إلى التطوّرات المقبلة بين الفريقين.

المضمون الأساس للموادعة يقر اليهود على دينهم وأموالهم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن بينهم النصر والنصح، خصوصاً فيما يتعلق بيثرب.[2]

ما تقدم لمحة موجزة وسريعة عن المشهد الأول للعلاقة بين اليهود والرسول(ص) في أعقاب وصوله إلى المدينة.

فكيف سارت الأمور بعد ذلك؟

بدأت العلاقة الفعلية بين الطرفين تأخذ منحىً جديداً ومختلفاً عن

---

(١) الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٧٦. الطبري، الجزء الثاني، ص ٤٧٩. ابن سعد: غزوات الرسول(ص)، ص ٢٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر طبعة ١٩٧٩ ج٢، ص ١٣٧.

(٢) "وكتب رسول الله(ص) كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرّهم على دينهم وشرط لهم واشترط عليهم .... وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.... وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته وإن ليهود بني النجار مثل ماليهود بني عوف وإن ليهود بني.... وإن بطانة يهود كأنفسهم وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد وإنه لا ينحجر على نار جرح وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظُلم وإن الله على أبر هذا وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وإن بينهم النصرعلى من حارب أهل هذه الصحيفة وإن بينهم النصح والنصيحة وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.... وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مردّه إلى الله عز وجل وإلى محمد..." ابن هشام: السيرة النبوية ج٣ ص٣١ و٣٢ و٣٤ و٣٥.

التصوّرات الأولى، وكذلك بنود الموادعة كلما ظهر للطرفين وخصوصاً اليهود أن الاحتواء، بل التعايش يتعارض مع مقتضيات الدين كإطار محدّد أو مع مترتبات النظرة إلى الذات كمجموعة متقدمة ومميزة في هويتها "الدينية[١]" بل التاريخية أيضاً.

ينقل ابن هشام أن أحبار اليهود نصبوا العداوة للرسول(ص) "بغياً وحسداً وضغناً لما خصّ الله تعالى به العرب من أخذه رسوله منهم[٢]"، ثم إن صرف القبلة[٣] عن الشام إلى الكعبة في رجب بعد عام ونصف تقريباً من الهجرة، أُعتبر من قبل اليهود إجراءً استفزازياً، دفع كبارهم لمراجعة الرسول(ص) متسائلين عن زعمه بأنه "على ملة إبراهيم ودينه" طالبين منه العودة عن ذلك لتصديقه. ومهما كان التفسير لعملية تبديل القبلة، فإن خصائص كل من الديانتين أخذت تتبلور في أجواء من الترقب الخطر.

وقد حفل القرآن الكريم بمجموعة من الآيات[٤] التي عكست الوضع بين المسلمين واليهود حيث "نقضوا العهد نقضاً بعد نقض"[٥] الأمر الذي بستوجب على الرسول(ص) معاملتهم على السواء.

---

(١) راجع: العلي، صالح أحمد: الدولة في عهد الرسول(ص)، م١ ص١٣٤.

(٢) ابن هشام: السيرة ج٣ ص٤٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٨٦ و٨٧

(٤) **﴿الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون * فإما تثقفنهم في الحرب فشرِّد بهم مَنْ خَلْفَهم لعلهم يذكّرون * وإما تخافنّ من قوم خيانةً فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾** قرآن كريم، سورة الأنفال: آية ٥٦ و٥٧ و٥٨.

(٥) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن ج٩ ص١١١.

غزوة بني القينقاع: الصدام الأول

مثلت بدر بكل نتائجها الداعمة للحضور الإسلامي في المدينة، خيبة أمل لليهود الذين لم تصل توقعاتهم - كما ذكرنا- إلى ما وصلت إليه الأوضاع ميدانياً. ولذلك، فإن الأساس الذي بنوا عليه علاقتهم بالرسول(ص) منذ وصوله إلى المدينة أصيب باهتزاز شديد، الأمر الذي سيدفعهم إلى اعتماد سياسة جديدة قائمة على القلق والارتياب من تنامي القوة الجديدة في المدينة.

تعتبر سرية سالم بن عمير إلى أبي عفك[1] اليهودي الحدث الأول من نوعه بين المسلمين واليهود، حيث تشير المصادر إلى أبي عفك بأنه من بني عمرو بن عوف كان شيخاً كبيراً بلغ عشرين ومئة سنة، وأنه حرَّض على الرسول(ص)، فقال فيه الشعر حسداً وبغياً، خصوصاً بعد معركة بدر، مما دعى أحد الأنصار سالم بن عمير من بني النجار أن يوجب على نفسه نذراً بقتله، وتمّ ذلك - في شوال على رأس عشرين شهراً من هجرة الرسول(ص) - بطريقة الاغتيال.

ولعل ورود قبيلة يهود بني عوف في مقدمة الحديث عن اليهود في صحيفة المدينة، بما تعنيه من تحالف وتوافق بين الرسول(ص) ويهود المدينة، يعطي بعض التفسير لنهاية هذا الحدث عند دفن هذا المسن - المخالف لبنود الصحيفة - دون تداعيات مباشرة.

---

(١) الواقدي: المغازي ج١ ص١٧٤. ابن سعد: غزوات الرسول(ص) ص٢٨.

تبدأ أحداث غزوة بني القينقاع في المصادر[1] بذكر الموادعة بين الرسول(ص) واليهود عند وصوله إلى المدينة، وأن قبيلة بني القينقاع قامت بنقض هذه الموادعة بإظهارها الحسد والبغي والتحدي، الأمر الذي يبدو أنه دفع الرسول(ص) للاجتماع بها في سوقها بالمدينة إثر معركة بدر.

البارز في هذا الاجتماع، تحذير الرسول(ص) لهم من أن ينزل بهم ما نزل بقريش طالباً منهم الاعتراف بالإسلام قبل فوات الأوان فردّوا عليه بالتحدي بأن لا يغره من لاقى، وأنه قد قهر "قوماً أغماراً وإنا والله أصحاب الحرب"[2]. في ظل هذا المناخ المشحون بالتحذير والتحدي ينقل المؤرخون حادثة زوجة أحد الأنصار في سوق بني قينقاع حيث كانت عند صائغ للحلي، فجاء رجل من يهود بني قينقاع وربط ثوبها بطريقة أدت إلى كشف عورتها حين قامت، ما أثار عند ذلك ضحك الحاضرين. الأمر الذي دفع برجل مسلم إلى قتل اليهودي قبل أن يُقتل على يد أحد افراد القبيلة نفسها. كان ذلك بمثابة نقض العهد عملياً، وبالتالي إعلان الحرب، فسار إليهم الرسول(ص) وحاصرهم خمسة عشر يوماً بدءاً من نصف شوال وحتى هلال ذي القعدة على رأس عشرين شهراً من الهجرة، ثم نزل بنو القينقاع على حكم الرسول(ص). ويبدو أن الرسول(ص) كان عازماً على قتل رجالهم[3] إلا أن تدخل عبد الله بن أبي حليفهم السابق كان له تأثيره لدى الرسول(ص) في تلك الأثناء، حيث انتهى أمرهم بالجلاء الكامل عن

---

(١) الواقدي: المغازي ج١ ص١٧٦. ابن هشام: السيرة النبوية ج٣ ص٣١٤. الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٤٧٩.

(٢) الواقدي: المصدر السابق ص١٧٦. راجع الطبرسي: إعلام الورى بأعلام الهدى، ص٨٩.

(٣) المصدر نفسه، ص١٧٧.

المدينة إلى الشام وتحولت أموالهم للرسول(ص)، كما كُلف عبادة بن الصامت "حليف اليهود سابقاً" تنظيم عملية الإجلاء خلال ثلاثة أيام.

ويذكر الواقدي أن المسلمين وجدوا في حصونهم "سلاحاً كثيراً وآلة للصاغة"[1] فخمَّس الرسول(ص) ما أصاب منهم وقسّم ما بقي على أصحابه.

يبدو لنا من متابعة التطورات التي أعقبت نتائج بدر بأن الأمور بدأت تتجه نحو الصراع العسكري، ويكفي في هذا المجال وقوع حادثة على شاكلة ما وقع مع المرأة المسلمة في سوق بني القينقاع لإثارة الحرب بين الطرفين "ولا ريب في أن هذه الحادثة كانت المبرر لإنهاء أوضاع ترجع إلى أزمنة أقدم وأمور أوسع.[2]"

لقد كان الاجتماع المذكور محاولة أخيرة لمعالجة تدهور العلاقة بأسلوب لا يخفي يأس الرسول(ص) من دعوة اليهود للإلتزام بالموادعة، فقد دعاهم للدخول في الإسلام تقديراً منه بأن ذلك هو العلاج الجذري للواقع الذي بدأ بالاضطراب، وأن الموادعة لم تلجم اليهود، ولن يكون ذلك في المستقبل، فكانت دعوته تلك بمثابة الرسالة الأخيرة لهم قبل انفجار الوضع.

لكن قبيلة بني القينقاع كانت تجري حسابات خاصة في قرارها من الدعوة الجديدة، فقد راهنت على أمور عديدة صلّبت موقفها، فضلاً عن استحالة الإستجابة للإسلام لجماعةٍ ترى في دينها اعتزازاً وهوية

---

(١) الواقدي، المصدر السابق، ص١٧٩.

(٢) العلي، صالح أحمد: الدولة في عهد الرسول(ص) ج١ ص٢١٩.

خاصة بها.

فالمعلومات تشير إلى ثقة هذه القبيلة بنفسها حيث وصفت بأنها "أشجع اليهود[1]"، كذلك كانت لها علاقات متينة مع الخزرج بزعامة عبد الله بن أبي - الداخل حديثاً في الإسلام - والذي ما فتيء يظهر وفاءه والتزامه بذلك كما رأينا، ثم إن بني القينقاع فرقة من اليهود لم تتجه في تأمين معيشتها إلى امتلاك الأرض، وبالتالي زراعتها، فقد امتازت بمهنة الصياغة وربما أعمال أخرى تتعلق بالمال وبالسلاح ما سيؤدي بها إلى الابتعاد عن مسائل التشبث بالأرض والخوف من المستقبل المرتبط بها ".. ولعلهم كانوا يقومون أيضاً بأعمال الصيرفة وإقراض الذهب وأعمال البنوك، ولم يرد في الأخبار ذكر لمزارع امتلكوها.[2]"

بالإضافة إلى ذلك يمكن ترجيح اعتقاد هذه القبيلة بأنها فقدت الاستقرار بعد تنامي الحضور الإسلامي في جوارها القريب - كانت القبيلة اليهودية الأقرب لمساكن المسلمين من باقي اليهود - حيث "الاحتكاك"[3] اليومي، وبالتالي تصاعد التوتر.

إن ما تقدم أسهم في تصعيد موقف بني القينقاع من الرسول(ص)، وفي الوقت نفسه، وضعها في مقدمة الصراع الإسلامي اليهودي الذي سعى

---

(١) ابن سعد: غزوات الرسول(ص) ص٢٩.

(٢) العلي، صالح أحمد: المرجع السابق ص١٩٠ – ١٩١. يرى ابن خلدون في سيرته عدم امتلاك هذه القبيلة مساحات زراعية بقوله: "... ولم يكن لهم زرع ولا نخل أنما كانوا تجاراً وصاغة يعملون بأموالهم..." ابن خلدون: السيرة النبوية، ص ١٢٦.

(٣) المرجع السابق ص١٩١.

الرسول(ص) في تجزئته ومنع ترابطه في المدينة كما يرى مؤرخ معاصر.[1]

وكانت غزوة بني القينقاع بمثابة الاختبار الأول للجماعة الإسلامية في المدينة عامة وللخزرج بشكل خاص، تم الخروج منه بمستوى متقدم نسبياً من الالتزام بمواقف الرسول(ص) على حساب التحالفات والعهود السابقة.

فباستثناء ابن أبي، وقليل ممن هم على رأيه، وقفت غالبية الخزرج وفي مقدمتهم عبادة بن الصامت- الزعيم الخزرجي المتحالف مع اليهود سابقاً- [2] موقفاً حاسماً "تغيرت القلوب ومحا الإسلام العهود"[3] كما جاء على لسان ابن الصامت الذي كلفه الرسول(ص) بإجلائهم عن المدينة.

أما موقف ابن أبي فكان معارضاً بقوة لقتلهم أولاً ومحاولاً إقرارهم في ديارهم ثانياً مبرراً تدخله هذا بأن القوم منعوه "يوم الحدائق ويوم بعاث من الأحمر والأسود.. أربعماية دارع وثلاثماية حاسر... [وأنه] يخشى الدوائر.[4]"

وفيما تمكن من إبعاد القتل عنهم لم يستطع ثني الرسول(ص) عن إجلائهم عن المدينة.

لا شك، أن موقف ابن أبي عبَّر عن وجود ثغرة خطرة في ترابط الجماعة الإسلامية، كما بيّن إمكانية استغلال هذه الثغرة من قبل اليهود، الأمر الذي سيواجهه الرسول(ص) بالمزيد من تصليب الوحدة الداخلية، وهكذا يفسّر موقفه في النزول عند رغبة عبد الله بن أبي، حرصاً على "وحدة

---

(١) العلي، المرجع السابق ص١٩٤.

(٢) الواقدي: المغازي ج١ ص١٧٩.

(٣) المصدر نفسه. راجع الطبرسي: إعلام الورى، ص٨٩

(٤) المصدر نفسه، ص١٧٧ – ١٧٨.

الجماعة[1]" التي ما زالت في بدء تشكّلها لكن مع جلاء بني القينقاع سوف يبدأ العد العكسي لتدهور المكانة الفاعلة لزعيم الخزرج حيث أننا لن نشهد تأثيراً مماثلاً له في قرار الجماعة، وإن استمرت مواقفه المؤذية والمثيرة تبرز بين الفترة والأخرى.

أخيراً مثلت غزوة بني القينقاع تجربة فعلية في موازين القوى داخل المدينة محدثة _ ربما لأول مرة في المدينة- نهاية لوجود فريق على يد فريق آخر، الذي تنامت قوته مع غنائم المال والسلاح لقبيلة عدد مقاتليها أربعمئة دارع وثلاثمئة حاسر، ومهنتها صياغة الحلي، الأمر الذي سيمكن الرسول(ص) من الظهور تدريجياً كحاكم واحد لمدينة عاشت فترة طويلة من الحروب والانقسامات.[2]

---

(١) بيضون، إبراهيم: الأنصار والرسول(ص) ص٢٨.

(٢) "... أول قرار يصدر يؤكد سيادة الرسول(ص) ويعني أنّه حاكم واحد لدولة المدينة". القمني، سيد محمود: حروب دولة الرسول(ص) ج١ ص١١٥.

غزوة بني النضير: سيادة المدينة

بعد جلاء بني قينقاع عن المدينة في أواخر السنة الثانية للهجرة، وحتى غزوة بني النضير في بدء السنة الرابعة دخلت العلاقات اليهودية الإسلامية في مرحلة من الحذر الشديد والترقب، توحي بتطورات جديدة من شأنها تكريس الوضع الجديد الذي أسفرت عنه نتائج غزوة بني القينقاع.

في هذه الفترة تمت عملية اغتيال أحد زعماء اليهود في المدينة المعروف بكعب بن الأشرف اليهودي[1] في سرية بقيادة محمد بن مسلمة جمعته مع أبي نائلة، سلكان بن سلامة حيث كانا أخوين لكعب في الرضاعة بالإضافة إلى نفر من الأوس، وذلك على رأس خمسة وعشرين شهراً من هجرة الرسول(ص).

تعرّف الرواية التاريخية[2] ابن الأشرف بأنه رجل من طيء؛ أمه من بني النضير قام بالتحريض على الرسول(ص) شعراً، خصوصاً بعد معركة بدر معبراً عن حزنه العميق على أهل القليب وسراة قريش الذين قتلوا ببدر: "بأن بطن الأرض أصبح خيراً من ظاهرها"[3] ثم رحل إلى مكة يبكي قتلى قريش وينشد الأشعار في مآثرهم، عاد بعدها إلى المدينة "يشبّب بنساء

---

(١) ابن سعد: غزوات الرسول(ص) وسراياه ص٣١.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ج٣ ص٣١٨ و٣١٩. ابن سعد ص٣١ و٣٢.

(٣) ابن سعد، ص ٣٢.

المسلمين"[1] مما جعل الرسول(ص) يعبر عن رغبته بالخلاص منه الأمر الذي تصدّى له ابن مسلمة وتمت عملية الاغتيال عبر خديعة محكمة.

انتشر خبر الاغتيال بين اليهود وأعلن الرسول(ص) للمسلمين في صباح اليوم التالي "من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه[2] " مما أثار الخوف لدى اليهود الذين "لم يطلع منهم أحد ولم ينطقوا وخافوا أن يبيّتوا كما بيّت ابن الأشرف" على حد تعبير ابن سعد.[3]

ثم تتفاعل الأحداث فيحضر وفد من اليهود إلى الرسول(ص) معبراً عن قلقه وخوفه مما حدث، فردّ الرسول(ص) بأنه "لو قرّ [كعب] كما قر غيره ممن هو على مثل رأيه ما اغتيل[4]" مهدداً بأن السيف سيكون لكل من يفعل فعله، وانتهى الأمر إلى كتاب بينهم ينتهون إلى ما فيه من دون أن تذكر المصادر ـ التي بين أيدينا ـ مضمون هذا الكتاب بالتحديد.

كان مقتل ابن الأشرف بمثابة الاستخدام الفعلي للسلطة التي بدأت بالتنامي لدى الرسول(ص) في أعقاب غزوة بني قينقاع. فسلسلة المواقف التي أطلقها الرسول(ص) بعد الاغتيال مباشرة أو لدى استقباله الوفد اليهودي تنم عن مكانة سياسية نافذة في المدينة بدأت بالتبلور، كما ذكرنا سابقاً.

ومن الطبيعي، أن تدخل المدينة في جو من الالتزام بحدود الكتاب

---

(١) ابن هشام: السيرة، ج٣ ص٣٢١.

(٢) ابن سعد، ص٣٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الواقدي: المغازي ص١٩٢.

الذي وقّعه الطرفان بانتظار عوامل جديدة تحرّك الكامن في الصدور أو تعبّر بوضوح عن ما يفكر فيه الطرفان بالفعل، وهذا ما سنجده في غزوة بني النضير بعد عامين تقريباً على مقتل ابن الأشرف.

تبدأ أحداث غزوة بني النضير في المصادر[1] عادة بخروج النبي إليهم طالباً مساعدتهم في دفع دية قتيلين من بني عامر، قتلهما أحد المسلمين بطريق الخطأ، وإذ أبدى هؤلاء تجاوباً مع هذا الطلب، فإنهم كانوا يحيكون مؤامرة على أيدي زعمائهم ترمي إلى قتل الرسول(ص)، الأمر الذي التفت إليه الرسول(ص) الذي غادر المكان فجأة ليرسل أحد أصحابه "محمد بن مسلمة" يطلب إليهم الخروج من بلده، وأنه أجّلهم عشرة أيام مرفقاً طلبه هذا بجرمهم الذي تمثل بنقض العهد[2] بما همّوا به من الغدر بالرسول(ص)، وإذ مكثوا أياماً قبل الرد على الإنذار تحرّك ابن أبي ليكرّر تجربته السابقة مع بني القينقاع، ولكن دون جدوى، فيطلب بقاء اليهود في حصونهم وأن معه الفين من قومه وغيرهم من العرب سيدخلون معهم حصونهم ليموتوا عن آخرهم، كما وعدهم بإمداد قريظة لهم و"حلفاؤكم من غطفان[3]" الأمر الذي شجّع اليهود على رفض الإنذار وبالتالي تحدّي الرسول(ص) الذي توجّه إليهم وحاصرهم خمسة عشر يوماً وذلك في شهر ربيع الأول، السنة الرابعة للهجرة. وتنتهي الغزوة بنزول اليهود على حكم الرسول(ص)، وذلك بأن يكون لهم دماؤهم وما "حملت

---

(١) الواقدي: المغازي ص٣٦٤ – ٣٦٧. ابن سعد: غزوات ص٥٧ و٥٨. ابن هشام: السيرة ج٤ ص١٤٣ و١٤٤ و١٤٥.

(٢) الواقدي: ج١ ص٣٦٧.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٦٨. ابن سعد: غزوات ص٥٧.

الإبل إلا الحلقة[1]" بعد ذلك تم جلاؤهم "إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام".[2]

تبدو أحداث غزوة بني النضير على شيء من التوالي السريع- نوعاً ما ـ فالانتقال من طلب المساعدة لدفع دية العامريين، إلى طلب جلائهم عن المدينة، ثم محاصرتهم خمسة عشر يوماً، ليتم الجلاء بعدها بموكب، من الرهبة والإثارة، مؤلف من ستمئة بعير، وما رافق ذلك من خواطر للرسول(ص) والمسلمين تؤكد مكانة هؤلاء في قومهم مع ذكر بعض مناقبهم وفقاً للرواية التاريخية[3]. أقول: هذا التوالي السريع ربما فسّرته الظروف التي أعقبت معركة أحد بما حملته من نتائج سلبية على صعيد القوة الإسلامية ، حيث كان الطرفان مهيئين لفعل شيء ما عند أي تغيير في الأوضاع العسكرية في أي اتجاه.

وفي مقارنة سريعة بين الحكم الذي نزل عليه كل من بني القينقاع وبني النضير تبدو الأمور على تفاوتٍ في الشدة عكست- ربما - نظرة الرسول(ص) إلى كل من الفريقين.

فبينما كان القتل دون الذرية والنساء الذي حدده الرسول(ص) بدءاً كمصير بني القينقاع، فإن بني النضير خرجوا بحكمهم سالمين مع الذراري والنساء كذلك، وكان على القبيلة الأولى ترك الأموال كلها للرسول(ص)،

---

(١) المصدران السابقان ص٣٧ وص٥٨. الحلقة: "اسم لجملة السلاح والدروع وما أشبهها" ابن منظور: لسان العرب م(٢) ص٩٦٩.

(٢) ابن هشام: السيرة ج٤ ص١٤٥ لمزيد من المعلومات يراجع القرآن الكريم في سورة الحشر التي يعتبرها ابن هشام (ص١٤٦ المصدر نفسه) سورة كاملة نزلت في بني النضير.

(٣) الواقدي: المغازي ج١ ص٣٦٧.

بينما تمكنت الثانية من الخروج بحمولة الإبل التي تملكها.

ولعل الطابع الحربي الطاغي للقبيلة الأولى، وما تمثل ذلك بتحديها السافر للرسول(ص) بالمقارنة مع الثانية التي يبدو أنها دخلت الحرب بالمراهنة على وعود ابن أبي وتشجيعه لها أكثر من القناعة المبدئية، كونها تملك نمطاً معيشياً يتطلب السلم، وبالتالي الاستقرار أكثر.

أما على المستوى الاقتصادي، فقدمت هذه الغزوة للمسلمين إمكانات وفيرة كانوا بأحوج ما يكونون إليها في متابعة المعركة المصيرية المقبلة مع قريش.

فمجموعة الأسلحة التي قاربت الثلاثمئة والخمسين سيفاً، وخمسين بيضة، ومثلها من الدروع بالإضافة إلى الأراضي الزراعية الخصبة التي يبدو أنها كانت على مستوى عالٍ من الأهمية، دلّ على ذلك انهيار المقاومة في هذه القبيلة عندما همَّ الرسول(ص) بقطع أشجارها التي تعتبرها أثمن ما تملك في المدينة.[1]

تجدر الإشارة أيضاً إلى أن هذه الأراضي كانت أول أرض يفتحها الرسول(ص) تؤمن دخلاً مهماً له ولأهله كما يستفيد منها في تأمين الكراع والسلاح، كما يذكر البلاذري في فتوحه: "وكان أول أرض افتتحها رسول الله(ص)، أرض بني النضير."[2]

من الطبيعي، في فهم مصير بني النضير، العودة إلى الحدث السابق

(١) الواقدي: ص٣٧٣. ابن سعد: ص٥٨.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٦.

الذي تمثل بمقتل ابن الأشرف وربطه بمؤامرة هذه القبيلة لقتل الرسول(ص)، وأن ذلك من الأمور المتوقعة في تلك الفترة وذلك المكان من شبه الجزيرة العربية كما يرى وات: "كان التأخير في إعطاء الجواب لإتاحة الفرصة لقتله، ولهذا اعتبر عملاً عدائياً مريباً.[1]"

وإذا كانت نتائج أحد قد أغرت بني النضير بمحاولتهم الخطرة تلك، فإن هذه النتائج أيضاً كانت من أبرز العوامل التي دفعت الرسول(ص) لتحقيق نصر سريع يرتد إيجاباً على "معنويات المسلمين[2]" التي هزّتها تلك النتائج.

في الصورة العامة لنتائج غزوة بني النضير، نرى تماسكاً داخلياً متقدماً بعد تراجع التأثير الفعلي للمنافقين وزعيمهم عبد الله بن أبي، كما نرى تطوراً جديداً في القدرة العسكرية والسلطة السياسية للرسول(ص) داخل المدينة، فقد انهارت المكانة السياسية والعسكرية السابقة لليهود مع جلاء بني النضير وانطوت القبيلة المتبقية منهم على نفسها تنتظر الظروف المقبلة لاستغلالها دون جدوى.

أما في الخارج فقد التأم جرح المسلمين في أحد بنتائج غزوة بني النضير، وسيكون بمقدور الرسول(ص) الوقوف أمام قريش بصورة أفضل من أي وقت مضى، فالإمكانات الجديدة التي وفرتها غنائم بني النضير، سلاحاً، وأموالاً، وخيرات زراعية، ستدعم حضورهم المرتقب في المعركة القريبة المقبلة.

---

(١) وات مونتغمري: محمد في المدينة ص٣٢٣.

(٢) راجع: جابر، حسن، مجلة المنطلق، عدد مشترك ٨٢ و٨٣/ ١٩٩١ ص٥١.

ثمة ملاحظة أخيرة في موضوع بني النضير تشير إلى أن هذه القبيلة لن تخرج من الصراع الإسلامي واليهودي نهائياً بعد خروجها من المدينـة، كمـا حدث مع بني القينقاع، ذلك بأنها ستعود للواجهة عبر إسـهام زعمائهـا فـي تكتل الأحزاب ضد المدينة، وبالتالي معركة الخندق. كما سيكون لها تأثيرها في خيبر الموطن الجديد الذي اختاره قسمٌ كبير منها:

"لم يكن طرد بني النضير نهاية الصدام بين هذه القبيلـة ومحمـد، فقـد استمر بعض اليهود في التآمر، وقاموا بدور كبير فـي إنشـاء الحلـف الكبيـر الذي جاء لحصار المدينة.[1]"

(١) وات مونتغمري: محمد في المدينة ص٣٢٤.

غزوة قريظة: نهاية القوة اليهودية في المدينة

مع نجاح زعيم بني النضير المنفي من المدينة، حيي بن أخطب في دفع زعيم قريظة، كعب بن أسد لنقض العهد[1] مع الرسول(ص) أثناء غزوة الأحزاب، تصل الأمور بين المسلمين وما تبقى من قوى اليهود في المدينة إلى مستوى من التوتر والتصعيد لا تراجع فيه.

فقد غامرت قريظة، بكل ما لديها مع الرسول(ص)، في أحلك الظروف وأشدها خطورة على المسلمين، في عملية غدر أحكمت الطوق على مسلمي المدينة بعد الحصار الذي ضربته قريش ومعها قبائل غطفان في أكثر من جهة.[2]

وإذ منع التشكيك[3] المتبادل بين الفريقين (قريش وقريظة) الاستفادة من تعاون كان من شأنه القضاء تماماً على المسلمين إلا أن الخطأ الكبير الذي وقعت فيه قريظة كان غاية في الخيانة والغدر.

لم يؤجل الرسول(ص) المعركة مع قريظة[4] وبالتالي مصيرها في

---

(١) الواقدي، ج٢ ص٤٥٤ و٤٥٥. يعلق توينبي على هذا الموقف لليهود من الرسول(ص) بعبارات دقيقة عندما يقول: "... لكن اليهود تصرّفوا تصرفاً متهوراً أخرق دون أن يكون لذلك داع فإنهم فضلاً عن نيلهم من القرآن بالذات، نظموا عصياناً واشتركوا في مؤامرة ضد المسلمين فحل بهم العقاب..." توينبي، أرنولد: تاريخ البشرية ج٢، ص٨٦

(٢) لمزيد من الوضوح راجع القرآن الكريم، سورة الأحزاب: آية ١٠ و١١.

(٣) ابن هشام: السيرة، ج٤ ص١٨٨ و١٩٠.

(٤) الواقدي: المغازي، ج٢ ص٤٩٦ و٥٠١ و٥٢٢ و٥٢٣. ابن سعد: غزوات، ص٧٤ – ٧٨. ابن هشام: السيرة ج٤ ص١٩٢ و١٩٥ و١٩٩ و٢٠٠ و٢٠١ و٢٠٥.

المدينة يوماً واحداً، حيث طلب من المسلمين فور أفول الأحزاب عن المدينة وأن لا يصلُّوا العصر إلا في بني قريظة. وسار بثلاثة آلاف منهم وستة وثلاثون فرساً يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة، وحاصرهم خمسة عشر يوماً نزلت قريظة بعدها على حكمه.

ينقل الواقدي[1] المفاوضات التي جرت بين الطرفين قبل حسم المعركة، فيذكر العرض الذي قدمته بنو قريظة بأن ينتهوا إلى ما انتهت إليه بنو النضير، أي الجلاء دون المال إلا ما حملت الإبل، وهو ما رفضه الرسول(ص)، ثم يعرضون حقن دمائهم دون ما حملت الإبل الأمر الذي يرفضه الرسول(ص) أيضاً، طالباً نزولهم عند حكمه.

وإذا كان إصرار الرسول(ص) يوحي بالمصير الذي يراه لقريظة، إلا أنه لم يشأ التصريح الكامل به حيث أراد للأوس– حلفاء قريظة قبل الإسلام – ممثلين بزعيمهم سعد بن معاذ كلمة الفصل والحكم.

وتوجهت الأنظار إلى سعد، حيث كانت مجموعة من الأوس تنتظر منه دوراً مشابهاً ـ بدرجة ما ـ لدور ابن أبي مع بني القينقاع، إلا أن الفرق كبير بين الزعيمين، وكذلك الاختلاف شديد بين الطرفين. فحَكَم ابن معاذ بأن "يقتل كل من جرت عليه المواسي وتسبى النساء والذرية... [وأن] تُقسّم الأموال[2]". وهكذا ضربت أعناقهم فكانوا ما بين ستمئة إلى سبعمئة، أما الغنائم "فكانت ألفاً وخمسمئة سيفاً، وثلاثمئة درعاً، والفا رمح، وألفاً وخمسمئة ترساً"[3]. كما

(١) الواقدي، المصدر السابق، ص٥٠١.

(٢) الواقدي، المصدر نفسه، ص٥١٢.

(٣) المصدر السابق، ص٥١٠.

وجدوا جمالاً نواضح وماشية كثيرة و"كان السبي ألفاً من النساء والصبيان".[١]

ويذكر ابن هشام وقوع السهمان[٢]، وإخراج الخمس من غنائم قريظة، وذلك لأول مرة حيث ستجري السنة فيما بعد على هذه الطريقة "وكان أول فيء وقع فيه السهمان وأخرج منه الخمس، فعلى سنتها، وما مضى من رسول الله(ص) فيها، وقعت المقاسم ومضت السنة في المغازي.[٣]"

ثمة فرادة لغزوة قريظة، بالمقارنة مع الغزوتين السابقتين، وخصوصاً في ما يتعلق بالنتائج التي أسفرت عنها حيث أثير الجدل حول الطريقة التي تم فيها إنهاء وجود هذه القبيلة في المدينة.

لذلك لا يمكن فهم ما جرى فعلاً إلا عبر المزيد من تسليط الضوء على الدور الذي كانت قريظة على وشك القيام به لولا تبدّل الأوضاع في اللحظة الأخيرة.

فبقدر خطورة وجرأة التهديد الذي مثلته هذه القبيلة، كانت النتائج دموية وحادة إلى هذا المستوى. ولا يبدو أن هذه النتائج– على حدتها – قد أثارت أي نوع من التشكيك أو الاعتراض لدى المسلمين المشتركين فيها، ما يعني أن الظروف التي أملت مثل هذا الحكم تنفي إلى حد كبير "القسوة المزعومة[٤]" له، فضلاً عن دقة الرواية لجهة حجم الذين تم

---

(١) الواقدي، المصدر السابق، ص٢٣.٥

(٢) السهمان: جمع سهم أي النصيب والحظ، ابن منظور: لسان العرب م(٣) ص٢١٣٤.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ج٤ ص٢٠٥.

(٤) وات، مونتغمري: محمد في المدينة، ص٣٢٨.

إعدامهم في هذه الغزوة.[1]

بإمكاننا العثور على نوع من التردّد في صفوف بعض الأوس جراء الحلف القديم الذي كان يربطهم بقريظة، وربما رأت هذه المجموعة من الأنصار أن مقتضى الوفاء لهذه القبيلة يحتم عليها التخفيف ما أمكن من هذه العاقبة، متناسية، بصورة ما، عدم وفاء هذه القبيلة أصلاً بمطالب العهد الذي وقعته مع الرسول(ص). وفي كل الأحوال لم يكن هذا التردد تشكيكاً أو اعتراضاً بقدر ما كان تدخلاً محدوداً في مصير الحلفاء السابقين.

لكن تعيين سعد بن معاذ حاكماً على قريظة تجاوز بالجميع هذا التردّد، كما جنب الرسول(ص) بعض الإحراج في هذا المجال "ولكنها كانت الطريقة الوحيدة بالنسبة إليه ليخرج من هذا الوضع الحرج.[2]"

تجدر الإشارة ـ في مناقشة غزوة قريظة ـ إلى الغياب التام للمنافقين عن مسرح الأحداث وخصوصاً عبد الله بن أبي، حيث لم تسجل المصادر أي سعي له على شاكلة بني القينقاع وبني النضير مما يعني ـ ربما ـ اقتناعه الشخصي بانتهاء تأثيره في هذه الأمور.

أما بخصوص المغانم التي حصل عليها المسلمون، فإننا أمام مجموعة كبيرة من الأسلحة والعتاد الحربي تعتبر أضخم مغانم المسلمين الحربية من

---

(١) يشكك العلي بالمعلومات التي ينقلها ابن اسحق في قوله: "... والواقع أن مجرى الأحوال لا يؤيد إدعاء ابن اسحق بأن الرسول(ص) أقر قتل كافة مقاتليهم". العلي، صالح أحمد: الدولة في عهد الرسول(ص)، ص١٩٩. ونحن ننقل هذا الرأي من دون تعليق لأننا لم نجد ما يدعمه في المصادر التاريخية المتوافرة لنا.

(٢) المرجع السابق، ص٢٣٠.

يهود المدينة، اعتماداً على الأرقام الواردة، وربما أشار ذلك إلى المستوى الحربي الرفيع الذي كانت عليه بنو قريظة، ما يعني شدة الخطورة التي كانت تمثلها هذه القبيلة مقارنة بسابقتيها، وبالتالي يفسّر ـ على الأرجح ـ خلفية تأجيل المعركة معها إذا ما افترضنا استراتيجية واحدة كانت وراء الصراع اليهودي الإسلامي في المدينة.

كذلك على مستوى سبي النساء والذراري فلأول مرة يحصل المسلمون على هذا الرقم "ألفاً من النساء والصبيان" حيث فاقت هذه الأعداد حاجة المسلمين مما دعا الرسول(ص) إلى توجيه طائفة من هذه السبايا "إلى نجد" وأخرى "إلى الشام" مع سعد بن عبادة ليبيعها ويشتري بثمنها "سلاحاً وخيلاً" وفقاً لرواية الواقدي.[1]

مع نهاية غزوة قريظة، بدأ عهدٌ جديد للمدينة توحدت معه أوضاع مختلفة لم يسبق للحاضرة الصاعدة أن شهدت مثيلاً له في تلك الحقبة، فعصر تنازع السلطة بين العرب تارة واليهود تارة أخرى أو بينهم مجتمعين انتهى، وبدأ عصر جديد مثل التجربة الريادية للمجتمع الإسلامي الأول ـ النموذجي ـ في تلك الفترة حيث سيكون للمدينة ـ دون غيرها ـ النصيب الأوفر من تأثيرات الرسول(ص) التنظيمية والفقهية، نظراً للوقت الكبير الذي صرفه في المدينة في فترة هي من أخصب سنوات حياته وأغزرها إنتاجية.

لكن الصراع مع اليهود سينتقل ـ بعد نهايته في المدينة ـ إلى معاقل أخرى لليهود ما زالت قائمة في المنطقة وستكون خيبر[2] الوجهة المقبلة

(١) الواقدي: المغازي ج٢ ص٥٢٣.

(٢) خيبر: "على ثمانية برد من المدينة لمن يريد الشام". الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج٢ ص٤٠٩.

لمغازي الرسول(ص)، ولكن بالتوقيت والطريقة التي لا يكون لليهود فيهما حسابات خاصة هذه المرة.

أخيراً، ثمة تساؤل حول حجم اليهود الذين بقوا في المدينة بعد قريظة، وما إذا كان ليهود بني قينقاع أو النضير أو غيرهم تواجدٌ فيها بعد هذه الغزوات التي شهدتها المدينة بين المسلمين واليهود؟

في البدء، لا توجد لدينا معلومات حاسمة عن أفول اليهود نهائياً عن المدينة، ولا شيء أيضاً يساعد على ترجيح ذلك على الصعيد الديمغرافي أو المدني على الأقل.

لكن رواية ابن سعد[١] والواقدي[٢] عن وجود يهود في حلفاء عبد الله بن أبي إبان غزوة تبوك وأن عسكره بوجود هؤلاء كان مزاحماً لعسكر الرسول(ص) في العدد "ليس عسكره بأقل العسكرين"[٣]. إن هذه الرواية تبعث على التساؤل في إمكانية وجود مجموعة كبيرة من اليهود في المدينة لم يعد لها كيان عسكري خاص، ما اضطرها إلى الالتحاق بعبد الله بن أبي وجماعته.

ولعل رواية أخرى لابن سعد[٤] عن وجود مجموعة من يهود بني

(١) ابن سعد: غزوات الرسول(ص) وسراياه، ص١٦٥.

(٢) الواقدي: المغازي ج٣ ص٩٩٥.

(٣) المصدران السابقان.

(٤) أورد ابن سعد ما يأتي: "أن رسول الله(ص) خرج يوم أحد حتى إذا جاوز ثنية الوداع إذا هو بكتيبة خشناء، فقال: من هؤلاء؟ قالوا: هذا عبد الله بن أبي بن سلول في ستماية من مواليه اليهود من أهل قينقاع، وهم رهط عبد الله بن سلام، قال:وقد أسلموا؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: قولوا لهم فليرجعوا فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين" ص٤٨.

قينقاع مع عبد الله بن أبي في بدء معركة أحد، وبعد غزوة بني قينقاع، قد استعدوا للمشاركة في غزوة أحد قبل أن يرفض الرسول(ص) منهم ذلك. لعل هذه الرواية تسمح بهذا التساؤل، وتسهم في ترجيح الإمكانية التي أوردناها خصوصاً أن الواقدي[1] ينقل هذه الرواية، علماً بأنه لا يشير فيها إلى بني قينقاع.

في كل الأحوال، فقد أشارت الروايات التاريخية بصورة غير مباشرة إلى غياب الروابط الفعلية بين اليهود سواء في الداخل ـ داخل المدينة ـ أو بين الداخل والخارج[2]، فقد تعرض هؤلاء إلى أكثر من تجربة اضطروا فيها إلى التعاون دون أن يبادروا إلى ذلك، ما يجعلنا نستنتج بأن التوصيف المشترك لهؤلاء بأنهم "يهود" كان تعبيراً دينياً في المبدأ لم يتجاوز الحدود القبلية في العلاقات والارتباطات الميدانية، ولعلّ ذلك أضعف كثيراً من مكانتهم أو تقديرهم، كجهة تستوجب الاهتمام الأمني، أو الحسابات السياسية الدقيقة.

---

(١) الواقدي: المغازي ج١ ص٢١٥ و٢١٦.

(٢) لمزيد من الوضوح، راجع: العلي، صالح أحمد: الدولة في عهد الرسول(ص) م١ ص١٤٥.

غزوة خيبر[1]: نهاية الصراع

قبل الحديث عن غزوة خيبر نتوقف أمام سريتين بعثهما الرسول(ص) إلى المكان نفسه خلال شهري رمضان وشوال من السنة السادسة للهجرة لاغتيال اثنين من قادة اليهود في خيبر بصورة متوالية.

ويبدو لنا من قراءة تفصيلات هاتين السريتين بأن دواعيهما لدى الرسول(ص) كانت متشابهة.

ففي أسباب السرية الأولى[2] التي كانت بقيادة عبد الله بن عتيك في شهر رمضان إلى أبي رافع سلام بن أبي الحقيق النضري، أن الأخير قد أجلب في غطفان ومن حوله من مشركي العرب، جاعلاً لهم الحفل العظيم لحرب الرسول(ص) الذي بعث خمسة من أصحابه بينهم عبد الله بن أنيس الذي تمكن من قتله في منزله بخيبر، الأمر الذي أثار اليهود التي خرجت بثلاثة آلاف بقيادة الحارث أبي زينب دون أن يتمكنوا من أحد، وعاد الخمسة إلى المدينة سالمين.

أما السرية الثانية[3]، والتي ترأسها عبد الله بن رواحة، فقد استهدفت خليفة أبي رافع في خيبر أسير بن زارم، في شهر شوال من العام نفسه حيث

---

(١) خيبر: ناحية على ثمانية بُرد من المدينة لمن يريد الشام. الحموي، ياقوت: ج٢ ص٤٠٩.

(٢) ابن سعد: غزوات الرسول(ص) ص٩١. ابن هشام: السيرة ج٤ ص٢٣٤. الواقدي: المغازي ج٢ ص٣٩٥.

(٣) الواقدي: المغازي ج٢ ص٥٦٧ ـ ٥٦٨. ابن سعد: غزوات ص٩٢.

قام الأخير بتأليب غطفان وغيرها من العرب يجمعهم لحرب الرسـول(ص). وتشير الرواية أنه في البدء تمت عمليـة رصـد لحركـة أسـير خـلال شـهر رمضان عبر ثلاثة من المسلمين بينهم ابن رواحـة، ثـم بعـث الرسـول(ص) الأخير برفقة ثلاثين من أصحابه ليشتركوا في خديعة محبكة سقط فيها ابـن زارم مع تسعة وعشرين من قومه أثناء توجههم لمقابلـة الرسـول(ص) فـي المدينة لمناقشة موضوع استعمال القائد اليهودي من قبل الرسول(ص) على خيبر، في عملية استدراج دقيقة لابن زارم خارج خيبر.

نشير إلى أن الواقدي[1] يحدّد تاريخ السرية الأولى في الرابـع مـن ذي الحجة على رأس ستة وأربعين شـهراً مـن مهـاجر الرسـول(ص) وهـو مـا يتعارض مع روايتي ابن سعد وابن هشام اللتـان تعتبـران أقـرب إلـى واقـع الأمور، خصوصاً ما يتعلق بقيادة اليهود في خيبر، حيث لا يمكن وصول أبي رافع إليها إلا بعد موت حيي بن أخطب بعد غزوة قريظة على الأقل، وهـذا ما يذهب إليه وات[2] في كتابه (محمد في المدينة). تجدر الإشارة أيضاً إلى أن الواقدي نفسه يذكر في نهاية حديثه عن سرية أبي رافع إمكانية حـدوثها في السنة السادسة وفي الشهر نفسه رمضان.[3]

بإمكاننا وضع هاتين السريتين في سياق سياسة الاغتيال التـي اعتمـدها الرسول(ص) مع الشخصيات التي حاربته بصورة سافرة (اغتيال أبـي عفـك، وابن الأشرف) إلا أن موضوعي أبي رافع وابن زارم يختلفان عـن سـابقيهما

---

(١) الواقدي: المغازي ج١ ص٣٩٥.

(٢) وات، مونتغمري: محمد في المدينة ص٣٢٤ .٣٢٥ -

(٣) الواقدي: المصدر السابق، ص٣٩٥.

بالنشاط التحريضي الفاعل مع القبائل النجدية (غطفان وغيرها) في الوقت الذي شكلت فيه هذه القبائل الخطر المرحلي بعد نكسة قريش في الأحزاب، ولا يبدو أن الرسول(ص)- وفقاً للأحداث التالية - كان في وارد الدخول مع هذه القبائل في معارك قبل حسم حربه المركزية مع قريش التي من المتوقع أن تسهم - في حال انتصاره - في إضعاف هذه القبائل بصورة تلقائية، ومن دون تضحيات كثيرة.

ينقل المؤرخون وقوع غزوة خيبر بعد غزوة الحديبية، وإن اختلفوا في تحديد الشهر من السنة السابعة، بين "صفر[1]" أو "جمادى الأولى"[2]. ولا يبدو ـ من قراءة المقدمات - أن أسباباً مباشرة تتعلق باليهود، كانت وراء هذه الغزوة ما يطرح التساؤل حول نظرة الرسول(ص) لوجود اليهود في منطقة الحجاز في ذلك الوقت، وما إذا كانت حركاتهم التحريضية مع قريش تارة، والقبائل العربية تارة أخرى، تهدّد المسلمين إلى الحد الذي يتجه فيه الرسول(ص) إليهم قبل حسم صراعه المركزي مع قريش؟

اشترط الرسول(ص) على الذين سيرافقونه إلى خيبر، الرغبة في الجهاد دون التطلع إلى "الغنائم[3]" كما رفض مشاركة الذين تخلفوا عن الحديبية، ثم خرج بما يقارب ألفاً وخمسمئة رجل.[4]

في خيبر كانت الأعداد تقارب الـ"عشرة آلاف مقاتل[5]" في حصون

---

(١) الواقدي: المغازي ج٢ ص٦٣٤.

(٢) ابن سعد: غزوات، ص١٠٦.

(٣) الواقدي: ج٢ ص٦٣٤. ابن سعد، ص. ١٠٦

(٤) الواقدي، ج٢ ص٥٧٤. ابن هشام: السيرة، ج٤ ص٣٢١ .٣٢٢ -

(٥) المصدر الأول السابق، ص٦٣٧.

وقلاع ما ظن اليهود أن بمقدور المسلمين دخولها لمنعتها. كما تشير الروايات بأن أخبار الرسول(ص) في خروجه مع المسلمين وصلت قبل وصوله خيبر بفترة تمكن فيها اليهود بقيادة زعيمهم كنانة بن أبي الحقيق من عقد اتفاق[1] مناصرة مع غطفان على أن يكون للأخيرة "نصف تمر خيبر لسنة"، حتى إذا ما أرادت غطفان الالتزام بما اتفقت عليه سمعت ما دفعها للعودة إلى مواطنها، خوفاً على أهلها وأموالها كما يذكر ابن إسحق[2]، فواجه اليهود مصيرهم منفردين.

بدأ الرسول(ص) محاصرة حصونهم المتعددة واستمر أربعة عشر يوماً سقط فيها حصنان (النطاة والشق) حتى إذا همَّ بنصب المنجنيق لمَا رأى من تغليقهم، أيقنوا الهلكة فسألوا الرسول(ص) الصلح قبل سقوط الحصنين الأخيرين[3] (الوطيح، سلالم) فيما كان الحصن الخامس (الكتيبة) قيد السقوط.

عقد الصلح على حقن دماء اليهود، وترك الذرية مقابل خروج اليهود من خيبر على أن يكون للرسول(ص) "ما كان لهم من مال وأرض وعلى الصفراء والبيضاء[4] والكراع والحلقة وعلى البزّ إلا ثوباً على ظهر إنسان.[5]"

كان من الممكن أن تنتهي الخسائر عند هذا الحد لولا إخفاء اليهود كنزهم على الرسول(ص) الذي حذرهم من ذلك قبل أن يكتشف كذبهم،

---

(١) الواقدي، المغازي، ج٢، ص٦٤٢.

(٢) ابن هشام: السيرة ج٤ ص٣٠٠.

(٣) ابن هشام: السيرة ص٣٠٨.

(٤) "الصفراء: الذهب، البيضاء: الفضة" ابن منظور: لسان العرب م(٤) ص٢٤٥٨.

(٥) الواقدي: المصدر السابق، ص٦٧١.

وبالتالي معاقبة كبارهم وفي المقدمة قائدهم ابن أبي الحقيق وأخيه بالقتل وسبي الذراري "واستحل رسول الله(ص) بذلك أموالهما وسبي ذراريهما".[1]

بلغ مجموع قتلى اليهود في هذه الغزوة "ثلاثة وتسعين رجلاً" بمن فيهم أشرافهم وقادتهم، وخسر المسلمون "خمسة عشر رجلاً[2]" فيما كانت الغنائم الحربية "مئة درع.. وأربعمئة سيف، والف رمح، وخمسمئة قوس عربية بجعابها".[3]

نشير أيضاً إلى كنز آل الحقيق الذي كان جلّه أسورة وخلاخل وحلي ذهبية مختلفة، يبدو أنه كان ثميناً إلى الحد الذي حرص عليه هؤلاء حتى القتل.

بعد ذلك عرض اليهود على الرسول(ص) استعمالهم في أرضهم على النصف باعتبارهم "أرباب النخل وأهل المعرفة بها[4]" فأقرّهم على ذلك على أن له إخراجهم متى شاء "فصالحهم رسول الله(ص) على النصف على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم".[5]

وبينما كان الرسول(ص) يحاصر خيبر كانت سرية[6] بقيادة محيصة بن مسعود، بعثه الرسول(ص) فيها إلى أهل فدك[7] يدعوهم إلى الإسلام:

---

(١) الواقدي، المصدر السابق، ص٧٠٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الوقدي، ج٢ ص٦٩٠.

(٥) ابن هشام: السيرة النبوية ج٤ ص٣٠٨.

(٦) الواقدي، ص٧٠٦ .٧٠٧ –

(٧) فدك: "قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة". الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج٤ ص٢٣٨.

ويخوّفهم بغزو المسلمين لهم كما غزوا خيبر، فلم يستجيبوا في البدء حتى إذا سمعوا أخبار سقوط حصن خيبر صالحوا الرسول(ص) على حقن دمائهم على أن يكون "لهم نصف الأرض بتربتها" وللرسول(ص) النصف الآخر.

وفي وادي القرى[1] واجه اليهود الرسول(ص) الذي جاءهم بعد انصرافه من خيبر الأمر الذي أدّى إلى فتح هذه البلدة عنوة، وبالتالي حصل المسلمون على غنائم كثيرة بترك النخل والأرض في أيديهم "وترك النخل والأرض بأيدي اليهود وعاملهم عليها".

بقي على المسلمين في تلك المنطقة يهود تيماء[2] الذين صالحوا الرسول(ص) – بعد سماعهم ما حلّ بخيبر وفدك ووادي القرى – يدفعون الجزية "وأقاموا بأيديهم أموالهم"[3] أو كما يورد البلاذري "صالحوه [أي الرسول(ص)] على الجزية فأقاموا في بلادهم وأرضهم في أيديهم."[4]

من الطبيعي، وبعد إنهاء الوجود العسكري تماماً من المدينة أصبحت خيبر محط أنظار الرسول(ص) والمسلمين حيث المعقل والتجمع المركزي الأخير[5] لليهود في الحجاز، وعليه فإن حركة ابي رافع وأسير ابن زارم بما

---

(١) الواقدي، ص٧١١. البلاذري: فتوح البلدان ص٤٣. وادي القرى: "وهو واد بين المدينة والشام وهو بين تيماء وخيبر.. كثير القرى"، الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج٢ ص٣٤٥

(٢) تيماء: بليد في اطراف الشام بين الشام ووادي القرى. الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج٢ ص٦٧.

(٣) الواقدي: المصدر السابق.

(٤) البلاذري: المصدر السابق ص٤٤.

(٥) ينقل ابن خلدون "أن بني القينقاع، أيضاً، بالإضافة إلى بني النضير، كانوا قد لحقوا بخيبر بعد خروجهم من المدينة" ابن خلدون: السيرة النبوية، ص ١٢٦.

شكلته من خطوات تمهيدية للمعركة بين الطرفين في خيبر لا يمكن فصلها عن تداعيات الأحداث التي عاشها اليهود في المدينة مؤخراً.

وإذا كانت قريش ما تزال في صدارة الاهتمام عند الرسول(ص) حتى ذلك الحين، فإن صلح الحديبية قد أعطاه فرصة كافية لتجميد جبهته هذه والتحوّل بطريقة ـ خلت من أسباب مباشرة ـ إلى اليهود الذين شكلوا الرقم الثاني ـ ربما ـ في استراتيجية الحسم التي وضعها الرسول(ص) في المدينة.

تلك هي الخلفية العامة لقرار الرسول(ص) في الاتجاه نحو خيبر، إلا أن عوامل أخرى ستساهم ـ بنسبة ما ـ في تنشيط هذه الحملة فضلاً عن توقيتها وفي مقدمتها الوضع الاقتصادي الذي عاشه المسلمون في تلك الفترة، وما رافق ذلك من خيبة أسفرت عنها الحديبية في هذا المجال، فكانت خيبر التي تنعم بمستوى اقتصادي رفيع "ريف الحجاز طعاماً ووداً"[1] هدفاً يخاطب حاجات المسلمين ورغباتهم أيضاً.

ولعل زحمة الذين أرادوا الاشتراك بهذه الغزوة ـ وخصوصاً المتخلفين عن الحديبية ـ تلقي بعض الضوء على هذه المؤثرات التي رافقت انطلاقة الحملة.

وإذا كانت الغنائم المتوقعة ليست خارج حسابات الرسول(ص) حيث "يهمه أن يحصل فيها على الأسلاب لتوزيعها على أتباعه الذين خابت آمالهم من هذه الناحية في الحديبية [2]" إلا أنه قدّم الرغبة في الجهاد على كل ما عداها في اشتراطه على الذين يودّون الاشتراك أن تكون رغبتهم في الجهاد هي المحرك

---

(١) الواقدي: المغازي ج٢ ص٦٣٤.

(٢) وات، مونتغمري: محمد في المدينة ص٣٣٢.

الأساس لهم "لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد، فأما الغنيمة فلا".[1]

في خيبر أيضاً تستوقفنا الطريقة الجديدة التي أدار بها الرسول(ص) موضوع الأراضي الزراعية التي دخلت في ملكية المسلمين، حيث وافق على استعمال اليهود في أرضهم السابقة على النصف لخبرتهم أولاً، ولعدم توافر "غلمان يقومون بها[2]" ثانياً كما يرى البلاذري.

ولعل اشتراط الرسول(ص) إخراجهم متى شاء تأكيدٌ على تجاوبه مع الظروف ما بقيت، وأن موضوع التعايش في المستقبل ليس رهن التجربة فقط، بل في حدود الخبرة بطبيعتهم أيضاً. "طبع اليهود، من عدم الوفاء بالعهد ومن انتهاز أي فرصة تسنح للغدر والخيانة[3]". لذلك ربما يكون مستبعداً الطرح الذي يراه شوقي أبو خليل حين يتحدث عن التسامح[4] من قبل الرسول(ص) مع اليهود بعد هذه الغزوة ـ بالمعنى السياسي على الأقل ـ فالعلاقة مع اليهود كما رأينا منذ غزوة بني القينقاع اتخذت منحىً سلبياً ومن المرجح أن قسماً من قبيلة القينقاع[5]، بالإضافة إلى بني النضير، كانوا في عداد المدافعين عن خيبر، ولم يكن في الاتفاق المعقود ثمة إشارة كافية لبدء علاقة تعايش متكافئة ومستقرة بين الفريقين.

وعليه تكون الضرورات الاقتصادية ومستلزمات الاستحقاقات الحربية المقبلة، وما تفرضه من أعدادٍ في الرجال، وراء قرار الرسول(ص) في إبقاء

---

(١) الواقدي: المغازي ج٢ ص٦٣٤.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٣.

(٣) خليل، عماد الدين: دراسات في السيرة ص٢٩٥.

(٤) أبو خليل، شوقي: في التاريخ الإسلامي، ص ١٤٦.

(٥) ابن خلدون: السيرة النبوية، ص١٢٦.

يهود خيبر في أراضيهم "لم يرض الرسول(ص) أن يترك من أنصاره من يستوطن هذه الأرض، ويعمل بها لاحتياجه إليهم في الأعمال الحربية[1]". بالإضافة إلى ذلك فإن حجم غنائم خيبر على جميع المستويات (سلاح، أموال، أراض،..) فضلاً عن فدك ووادي القرى وتيماء، سوف تقدم كفاية عالية في مواردهم المعيشية. كما ستوفِّر رصيداً مادياً غنياً تتطلبه عملية بناء الدولة في المدينة حيث ضرورات الاستقرار[2]، والنمو التراكمي، أكثر إلحاحاً مع بدء حسم المحاور المتعددة داخل الحجاز، خصوصاً مع القبائل المنتشرة فيه شمالاً، تلك التي تحركها منتوجات خيبر، المشهورة في تركيب الأحلاف أو فسخها "ويلزم القبائل على الخضوع للرسول(ص) إذا أرادوا الامتياز من منتوجات خيبر.[3]"

أما على الصعيد السياسي فمما لا شك فيه أن نتائج خيبر سوف تسهم في إيجاد مناخ عام في الحجاز يمكّن الرسول(ص) من مواجهة ظروفه الراهنة بزخم جديد، فضلاً عن أنها ستفتح آفاقاً واسعة في تطلعات الرسول(ص) نحو الشمال "تفكيك الحلف الذي يقف سداً أمام توسّع الإسلام نحو الشمال[4]" حيث ستأخذ منحىً جدياً بعد وقت قصير.

أخيراً، مع غزوة خيبر وملحقاتها، سينتهي تماماً الدور الذي لعبه اليهود كقوة مناهضة وبالتالي مثيرة للحضور الإسلامي وانتشاره في شبه الجزيرة العربية.

---

(١) وات، المرجع السابق.

(٢) راجع: القمني، سيد محمود: حروب دولة الرسول(ص) ج٢ ص١٣٦ و١٣٧.

(٣) العلي، صالح أحمد: الدولة في عهد الرسول(ص) ج١ ص٢٦٣.

(٤) المرجع نفسه، ص٢٦٣.

استنتاجات عامة

تميزت غزوات الرسول(ص) الخاصة باليهود ـ مقارنة مع الجهات الأخرى ـ بالكثير من الاختلاف والتباين، حيث أننا ملزمون، في غالب الأحيان بالبحث عما وراء الحدث التاريخي، وعدم الاكتفاء بأبعاده الذاتية لتفسير التطورات المتلاحقة.

فالأسباب التي عجّلت الغزوة هنا أو جعلتها أكثر إيلاماً هناك لا تعدو كونها إضافات مؤثرة في تراكم عوامل التعارض، وربما ـ التناقض ـ بين فريقين لكل واحد منهما وجوده الذي لا يرى لغيره مكاناً فيه، ولعل الكلام المنسوب للرسول(ص) "لا يجتمع في الحجاز دينان"[1] يلقي بعض الضوء على حقيقة ما كان يجري بين هذين الفريقين في السنوات التي أعقبت وصول الرسول(ص) إلى المدينة. ربما أسهمت الظروف في تسريع الأمور أو تأجيلها، وربما أيضاً حاول الرسول(ص) تجنّب الصدام مع اليهود في وثيقة المدينة، كذلك كانت دعوته لهم إلى الإسلام قائمة على الدوام، لكن نظرته المستقبلية لهذه المجموعة الدينية كانت تنطوي على إحساس دائم بالخطر الذي "يهدد بالقضاء على الأساس الفكري لموقفه السياسي والديني[2]" كما يرى وات، ولا يمكن تجاهل هذا الخطر.

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ج٦ ص٨٨ الواقدي: المغازي ج٢ ص١٧.٧

(٢) وات، مونتغمري: محمد في المدينة ص٣١١. القمني، سيد محمود: دولة الرسول(ص)، ج١ ص ١١٣. يرى صاحب كتاب (نظام الحكم والادارة في الإسلام) أنه "كان اليهود في المدينة يمثلون

قد يتبادر للباحث أن الظروف الاقتصادية التي عاشها المسلمون في المدينة تقف خلف عمليات الصراع هذه حيث تمتع اليهود بمستويات اقتصادية رفيعة من شأنها التخفيف من تفاقم أوضاعهم الصعبة.

لا شك أن ذلك كان له تأثيره في مجرى الأحداث "وكان للجانب الاقتصادي نصيبه البارز أيضاً"[١] ولكن من الصعوبة بمكان "الاعتقاد بأن هذا الغنى كان السبب الوحيد في هجمات محمد(ص) ضد اليهود"[٢] وحتى في خيبر أيضاً – كما رأينا – أجرى الرسول(ص) تصويباً للأهداف المرجوة واضعاً مفهوم الجهاد والرغبة فيه فوق كل شيء.

كذلك على المستوى الأمني البحت، لم يكن اليهود فريقاً عسكرياً له خطورته الأمنية الخاصة، فالهزائم التي لحقت بهم قضت على كل طاقة فيهم، ومنها الحربية بشكل أساسي، ولم يعد بمقدورهم بناء ذلك في الوقت القريب على الأقل. ولهذا فقد كان الترحيل أو الجلاء، كما كان القتل أو السبي، بمثابة الحل الجذري للخطر الذي تشكله الخصوصية الدينية والعنصرية لليهود التي أثرت في جوانب عديدة من حياتهم.

لم يتمكن الرسول(ص) من التأثير في تلك الخصوصية التي توغلت في حياتهم ومعاشهم حتى حجب بعضهم عن بعض[٣]. ولذلك، إن مراجعة

النقيض الثقافي والسياسي والاجتماعي للإسلام باعتباره ديناً" شمس الدين، محمد مهدي: نظام الحكم والادارة في الإسلام، ص٥٢٥.

(١) بيضون، إبراهيم: الأنصار والرسول(ص) ص٢٨. راجع: جعيط، هشام: الفتنة، ص٢٧.

(٢) وات: المرجع السابق، ص٣٣٥.

(٣) العلي، صالح أحمد: الدولة في عصر الرسول(ص) ج١ ص١٧٧.

القرآن الكريم[1] وهو المصدر الدقيق والمعبّر عن تجربة الرسول(ص) مع اليهود، توحي بالكثير من هذه السمات الخطرة، كما تشير إلى استحالة تعايشهم مع المجتمع الذي يسعى الرسول(ص) إلى بنائه.

ثمة ملاحظة أخيرة في هذا المجال، تتعلق بإخفاق اليهود في تأليب القبائل المجاورة فضلاً عن توحيد صفوفهم. ولا يظهر أن تمور خيبر المشهورة في عقد الصفقات قد مكنتهم من تأمين الحد الأدنى من الحماية أو التعاون، ولا غيرها من الإمكانات المختلفة.

لقد رأينا كيف تمكن وفد من بني النضير في تأليب القبائل العربية وخصوصاً غطفان لمهاجمة المدينة وحصارها، لكن يبقى التساؤل قائماً لماذا تخلى الغطفانيون عن حلفائهم[2] في الفرصة الأخيرة قبل حدوث غزوة خيبر؟ بل لماذا تخلى اليهود في خيبر عن أنفسهم؟. حيث تحدثت المصادر أن حصونهم واجهت المسلمين بشكل منفرد، ولم يظهر أي تنسيق أو تعاون بينها على أهمية ذلك وضرورته في ذلك الوقت؟.

ثمة رواية[3] غامضة عن محاولة بني سعد في فدك دعم اليهود في خيبر، وأن الرسول(ص) وجّه سرية لمنع ذلك، عرفت بسرية علي بن أبي طالب(ع) إلى بني سعد بفدك، لكن توقيت هذه السرية (شهر شعبان من

---

(١) ﴿لتجدن أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا..﴾. قرآن كريم، سورة المائدة: آية ٨٢

(٢) يشير ابن سعد إلى أن الأسباب الأساسية التي دفعت الرسول(ص) إلى توجيه سريتين إلى خيبر لقتل اثنين من زعمائها، أبي رافع وأسير بن زارم، كان التحالف الذي سار فيه هذان الزعيمان مع غطفان ما أشعر المسلمين بخطورة الموقف. ابن سعد: غزوات ص٩١ و٩٢.

(٣) ابن سعد: غزوات الرسول(ص) ص٨٩

السنة السادسة) لا يساعد على فهم هذا الدعم الذي جاء قبل غزوة خيبر بما يقرب السنة.

لعلّ ما تقدم يؤكد ما ذهبنا إليه سابقاً من أن تعبير "اليهود" لم يتجاوز فعلياً التسمية الدينية، وأن هؤلاء تحركوا بمفاهيم وقناعات بدوية بحتة ساعدت على تكريسها خصوصية دينية ميّالة إلى العزلة والاستقلالية السلبية.

الفصل الثالث

الغزوات والسرايا ضد القبائل
في الاتجاه الشرقي

- تمهيد
- الحلقة الأولى: بين بدر وأحد
- الحلقة الثانية: بين أحد والخندق
- الحلقة الثالثة: بين الخندق والحديبية
- الحلقة الرابعة: بين الحديبية وفتح مكة
- الحلقة الخامسة: بعد فتح مكة

تمهيد

في الصراع مع القبائل تجري الأمور في اتجاه آخر، فالمطلوب هنا ليس التهديد بتعطيل النظام الاقتصادي القائم على مجموعة مصالح راسخة، كما هو الحال في صراع الرسول(ص) مع قريش، وليس كذلك مواجهة جذرية مع مجموعة دينية ذات نمط ديني واجتماعي شديد الخصوصية، لا يتماشى مع الدين الجديد، كما هو الحال في صراعه مع اليهود.

فموضوع القبائل لم ينطو على قضية أو نظام مصالح كان على الرسول(ص) معالجته قبل إحداث التحوّل المنشود، وبمعنى آخر لم يكن لدى القبائل ذاتها ما يمنع– جوهرياً – من تطوير موقفها الإيجابي من الدين الجديد، ولكن كان على الرسول(ص) تحقيق أمرين أساسين للوصول إلى حسم هذا الصراع.

الأول: حل عقدة قريش التي صلّبت الموقف القبلي إلى حين. ذلك أن هذه القبائل كانت تنتمي– في شكل من الأشكال – إلى ذلك النظام التي كانت تدافع عن وجوده قريش وحلفاؤها، وفي كل الأحوال كان ملاذاً لهذه القبائل من المجهول الذي يكتنفه التغيير المعروض عليها.

الثاني: إثبات الرسول(ص) المستوى الفعلي من القوة أمام هذه القبائل التي كانت تعتبر – إلى حد كبير – دخولها في الدين الجديد نوعاً من الإذعان السياسي أو القبول بالهيمنة العسكرية.

وعليه فالقبائل ـ عموماً ـ كانت "تربص بالإسلام أمر هذا الحي من

قريش"[1] وأن معالجة هذا الأمر سوف يسهم في تغيير موقف القبائل عندما يظهر لها "أن لا طاقة لهم بحرب رسول الله ولا عداوته[2]" فيدخلون الدين الجديد تلقائياً.

وهذا الدخول – كما بينا – لا يعني خروجاً عن مصالح أساسية أو هوية ذاتية، كما كان يعني بالنسبة إلى قريش بدءاً، ولليهود دائماً.

لكن إشكالية الصراع مع القبائل كانت تكمن – بشكلها الأساس – في قدرة القبائل على استيعاب معاني هذا الدخول ومستلزماته، فقد كان على المسلمين، في حياة الرسول(ص) وبعد رحيله، ملاحقة ومتابعة هذه القبائل التي اعتنقت الإسلام لتطبيق مبادىء الإسلام وقواعده الأساسية، وقد تعرّض القرآن الكريم لهذا الموقف في مخاطبته للعرب، فأكد أن الإيمان لم يصبح قضية عندهم بعد، وبالتالي، فإنهم لم ينخرطوا فعلياً في حقائقه ومضامينه الروحية ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم﴾.[3]

هذه الإشكالية لا يبدو أن الرسول(ص) كان حريصاً على معالجتها جذرياً في حياته[4]، ولعله كان يرى في ذلك مقتضيات التطور الطبيعي لهذه المجموعات، من دون إلزامها بتجاوز ذلك. وكان قبوله بهذا المستوى من الانتماء للدين الجديد خطوة أساسية في معالجة هذا الأمر. حيث قدم صورة

---

(١) ابن هشام: السيرة ج٥ ص٢٤٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٤٩.

(٣) قرآن كريم، سورة الحجرات: آية ١٤.

(٤) راجع: شمس الدين، محمد مهدي: نظام الحكم والادارة في الإسلام، ص٢٣٨.

ميسرة لهذه القبائل في عملية انتقالها التدريجي للإسلام، فلم يقض على كثير مما كانت تعتبره في المرتبة الأثيرة لديها.

وكان تغيير القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام في السنة الثانية للهجرة ثم تكريس شعائر الحج باعتبارها – مع بعض الحذف والتعديل – جزءاً من التراث والشعائر الإلهية منذ عهد إبراهيم، كان ذلك، بمثابة اعتراف بجزء أساسي من هوية القبائل الدينية – إذا جاز التعبير – كما كان قاسماً مشتركاً أمكن جمع العرب – مسلمين ووثنيين – في الحد الأدنى من التقارب في هذا المجال على الأقل.

من هنا، نفهم موقف سيد الأحابيش، الحليس بن علقمة؛ حين قرر الرسول(ص) دخول مكة معتمراً، وقد أنجز الكثير من الشعائر المتعارفة في الحج قبل الإسلام، حيث كان شديد التعبير عن هذا التقارب حينما خاطب قريش بقوله: "... ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم أيصد عن بيت الله من صار معظماً له"[١] مهدداً بضرورة السماح للرسول(ص) لتحقيق مطلبه أو "لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد".[٢]

حتى غزوة بدر لم تورد المصادر أي مواجهة بين الرسول(ص) والقبائل العربية في المنطقة واقتصرت العلاقات بين الطرفين على "كسب الأصدقاء"[٣] من جهة الرسول(ص)، كما يعبر المستشرق وات حيث تمكن قبل نهاية السنة الأولى من وصوله المدينة من موادعة بني ضمرة التي

(١) ابن هشام: السيرة ج٤ ص٢٨٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) وات، مونتغمري: محمد في المدينة ص١٢٦.

وافقت على عدم الإكثار عليه أو تقديم العون لغيره، وذلك في غزوة الأبواء[1] كما أسلفنا.

كما ينقل الواقدي[2] تدخل مجدي بن عمرو الجهيني[3] بين المسلمين وقريش في سرية حمزة بن عبد المطلب حيث منع المواجهة بينهما، باعتباره حليفاً للفريقين، ما يعني قيام حلف بين الرسول(ص) وجهينة في وقت مبكر من وصول الرسول(ص) المدينة، كذلك في غزوة العشيرة بعد عام وأربعة أشهر من وجود الرسول(ص) في المدينة عقد الرسول(ص) موادعته مع بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة.[4]

وإذا كانت هذه القبائل تقطن في الجهة الغربية من المدينة فإن ذلك يرتبط بالحاجة الفعلية للمسلمين حينها في الضغط على قريش عبر الممر الرئيس لتجارتها، حيث كانت هذه القبائل تستقر بمحاذاته.

ربما كان في مخطط الرسول(ص) الأول القبول بأي علاقة من شأنها تحقيق الحد الأدنى من الأمن مع القبائل عموماً، وفي الجهة الشرقية على وجه الخصوص ريثما يفرغ من حسم الصراع مع قريش على الأقل، وربما كان سعيه بهذا الاتجاه، في بدء وجوده في المدينة، دليلاً على ذلك.

لكن ما حدث في بدر فرض واقعاً جديداً لم يعد بمقدور الرسول(ص) العودة فيه إلى الوراء، فلقد فرضت نتائج هذه المعركة قوة

---

(١) الواقدي: المغازي ج١ ص١١ و١٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٩.

(٣) ابن هشام: السيرة ج٣ ص١٤٠.

(٤) المصدر نفسه، ص١٤٣.

جديدة، كان على القبائل البدء باتخاذ المواقف منها. وكانت المنطقة المجاورة لمكة والمدينة من ناحية الشرق، ومن نجد تحديداً أولى وأخطر النواحي التي فتحت الصراع مع الرسول(ص)، حيث شكلت مجموعاتها النشيطة في الإغارة والهروب إلى الأماكن العالية، بواكير الصراع الفعلي للمسلمين مع القبائل، وإذ شعر الرسول(ص) بخطورة الموقف، فلقد بدأ بتوجيه السرايا والغزوات إلى تلك المنطقة بالقدر الذي تسمح فيه ظروفه في الصراع مع قريش، بالإضافة إلى المحافظة على الحد الأدنى من الأمن في منطقة المدينة بشكل دائم.

ولقد اعتمدنا في دراسة الصراع مع القبائل العنصر الجغرافي إلى حد ما، فقد تم تقسيم القبائل إلى أربع مجموعات وفقاً لأماكن وجودها الغالب بالنسبة إلى مكة والمدينة[1] وذلك على الشكل الآتي:

١ - **القبائل الشرقية:** وهي القبائل التي تقطن الناحية الشرقية لمكة والمدينة أو يكون امتدادها الأساسي في هذه الناحية، بالإضافة إلى القبائل المجاورة لهاتين الحاضرتين، وكمثال على ذلك، فقد جعلنا هوازن من قبائل هذه الناحية حيث حضورها الأساسي "أرض هوازن في نجد"[2] وإن كان لها انتشارٌ قريب من حدود اليمن "مما يلي اليمن"[3] من ناحية نجد، وكذلك قبيلة غطفان فكان حضورها الرئيسي في نجد "أرض غطفان في نجد"[4] وإن

(١) لقد استقينا اعتماد الثنائي مكة والمدينة في مركزة الاتجاهات من كتاب المستشرق وات مونتغمري: محمد في المدينة، ص١٣٠.

(٢) الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج٣ ص٣٠٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

كانت فروعها منتشرة إلى حدود الشام "مما يلـي الشـام"[1] مـن ناحيـة نجـد أيضاً.

٢ ـ **القبائل الشمالية:** وهي القبائل التي تتواجد في الناحية الشمالية من شبه الجزيرة العربية وللمدينة بشكل خاص على أن امتدادها وتأثيرها الفعلي في عمق هذه الناحية أو أطرافها الخاصة، ثم الارتباط بنوع مـن التحـالف أو الالتزام مع البيزنطيين، لبعض القبائل في تلك الناحية.

٣ ـ **القبائل الغربية:** وهي القبائل التي تقطن إلى الغـرب مـن المدينـة ومكة حيث يكون عمقها الفعلي في هذه الناحية.

٤ ـ **القبائل الجنوبية:** وهي القبائل التي تتواجد في الجهة الجنوبية مـن شبه الجزيرة العربية عموماً ومـن مكـة والطـائف تحديـداً حيـث الحضـور الأساسي في المجال الخاص باليمن وجواره.

---

(١) الحموي، ياقوت، المصدر السابق.

الحلقة الأولى: بين بدر وأحد

قبل الدخول في أحداث الصراع مع القبائل نشير إلى غزوة كرز بن جابر الفهري، وهي أول أعمال المسلمين الحربية في هذا الصراع، حيث تشير المصادر[1] إلى أن كرز بن جابر الفهري أغار على سرح[2] المدينة فاستاقه، ما استدعى تجريد غزوة للحاق به، وذلك بعد ثلاثة عشر شهراً من الهجرة حيث لم يتمكن المسلمون من الإمساك به أو قتاله، بعد أن تجاوز حدود حركة المسلمين في ذلك الحين.

وتعتبر غزوة كرز بن جابر على أهميتها عملاً محدوداً، وربما فردياً، ذلك أننا سنرى فيما بعد هذا الاسم في عداد قوّاد السرايا الإسلامية (سرية كرز بن جابر الفهري إلى العرنيين في السنة السادسة) كما سيكون أحد الشهيدين اللذين سقطا بطريق الخطأ اثناء فتح مكة.[3]

شكلت قبائل غطفان وسليم القاطنة إلى الشرق من المدينة ومكة، المجموعة الأكثر تحدياً وخطورة للرسول(ص) من بين القبائل العربية في المنطقة وخصوصاً الأولى، حيث نالت الجهد الأكبر من حملات الرسول(ص) تبعاً لمستجدات صراعه مع قريش.

---

(١) الواقدي: المغازي ج١ ص١٢. ابن سعد: غزوات الرسول(ص)، ص٩.

(٢) سرح: الماشية، ابن منظور: لسان العرب م(٣) ص ١٩٨٥.

(٣) ابن سعد: غزوات ص١٣٦.

وتعتبر غزوة قرارة الكدر[1]، في النصف من المحرم، بعد ثلاثة وعشرين شهراً من وصول الرسول(ص) إلى المدينة، باكورة الصراع مع القبائل عموماً، ومع هذه الجهة من منطقة الحجاز خصوصاً، حيث ينقل الواقدي[2] أن غطفان، ومعها بني سليم، كانتا على وشك القيام بأمر ما ضد المدينة ما استدعى من الرسول(ص) تشكيل أول غزوة لهذه الناحية من نجد حيث وصل إلى أماكنهم بعد أن تركوا فيها الكثير من النعم بينها خمسمئة بعير، كما تشير الرواية إلى أن نصيب المشاركين في الحملة وعددهم يقارب المئتين بلغ بعيران لكل واحد.

وبعد شهرين على الغزوة الأولى ترد الرسول(ص) أخبار عن تجمّع جديد لقبائل غطفان[3] (ثعلبة ومحارب) في ذي أمر[4] يريدون أن يصيبوا من أطراف المدينة بقيادة دعثور ابن الحارث بن محارب. فخرج إليهم الرسول(ص) ومعه أربعمئة وخمسين من أصحابه، فوصل إليهم بعد أن تركوا أماكنهم إلى أعالي الجبال، حيث كانوا على مرأى بعيد منه. وتنتهي رواية الواقدي[5] باعتناق ابن

---

(١) قرارة الكدر: "وهي بناحية معدن بني سليم قريب من الأرحيضية وراء سد معونة وبين المعدن وبين المدينة ثمانية برد". ابن سعد: غزوات ص٣١. الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج٤ ص٤٤١. "فمن وادي القرى إلى خيبر إلى شرقي المدينة إلى حد الجبلين إلى ما ينتهي إلى الحرة ديار سُليم"، الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٢٧٤.

ـ برد: جمع بريد والبريد: فرسخان أو أربع فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال والميل أربعة آلاف ذراع. ابن منظور: لسان العرب م(٣) ص٢٥٠.

(٢) الواقدي: المغازي ج١ ص١٨٢ و١٨٣.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٤٨٧.

(٤) ذي أمر: "ناحية في نجد"، الطبري: المصدر نفسه.

(٥) الواقدي: المصدر السابق ص١٩٤ و١٩٥.

الحارث الإسلام مع وعده بعدم الإكثار على الرسول(ص)، ودعوة قومه إلى الإسلام.

ثم كانت غزوة بني سليم[1] بعد قرابة الشهرين على الغزوة السابقة، حيث تجمعت هذه القبيلة للنيل من المسلمين في بحران[2] فخرج الرسول(ص) في ثلاثمئة رجل من أصحابه، وعند وصوله مكانها، كانوا قد تركوه أيضاً، وتفرّقوا في أنحائهم، ولم تحدث مواجهة بين الطرفين.

ثلاث غزوات متتالية على مدى أربعة أشهر تقريباً أعقبت غزوتي بدر وبني القينقاع، شكلت حضوراً لافتاً للرسول(ص) للمرة الأولى في هذه المنطقة، وإذا كانت الأسباب تتعلق دائماً بالتجمعات التي أحدثتها هذه القبائل للنيل من مدينة الرسول(ص)، فقد فوجئت بالهجوم في عقر مكانها حيث المعادلة العسكرية لمصلحة المهاجم.

ومن المفيد التوقف عند تركيز الرسول(ص) على هذه المنطقة عقب انتصاراته المدوية في بدر وبني القينقاع، حيث من المفترض أن هذه القبائل تغدو أيسر تطويعاً وأضعف تأثيراً مع كل نجاح في الصراع مع قريش. من هنا فإن الفترة التي قضاها الرسول(ص) في تلك المنطقة، والتي بلغت "صَفَراً كلَّه[3]" في غزوة ذي أمر وقرابة الشهرين "ربيع الآخر وجمادى الأولى[4]" في غزوة بني سليم، تشير إلى أهداف أخرى، كان يسعى فيها

(١) الواقدي: المغازي ص١٩٦ .١٩٧ –

(٢) بحران: "في ناحية الفرع وبين الفرع والمدينة ثمانية برد". ابن سعد: غزوات الرسول(ص)، ص٣٥.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم، ج٢ ص٤٨٧.

(٤) المصدر نفسه.

الرسول(ص) إلى تجاوز مواجهة القبائل التي تفرقت، وتكريس نوع من الحضور في تلك المنطقة، يسهم في المزيد من الأمن فيها، وربما في مستوى من التقارب مع هذه القبائل على المدى البعيد، خصوصاً إذا ما تأملنا عزم الرسول(ص) على قيادة هذه الغزوات بصورة شخصية كما توحي بعض الاجراءات التي أنجزها في غزوتي الأبواء والعشيرة السالفتي الذكر، وإن كان ذلك في ظروف أصعب، ونوعية في القبائل بعيدة أكثر.

في كل الأحوال اقتصرت الأحداث على ما يشبه اختبار القوة دون الصدام المباشر، ما يعني صعوبة تحقيق نتائج عسكرية حاسمة في هذه المنطقة التي ستخضع لسلسلة من الأنشطة الحربية المتكررة قبل وقت طويل ـ نسبياً ـ من انخراطها في الأوضاع الجديدة، وإذا حفلت الغزوة الأولى بمجموعة من الغنائم أسهمت في تطوير إمكانات المسلمين المعيشية، فإن الغزوتين التاليتين لم تحققا شيئاً في هذا المجال، ما يشير إلى استعداد تلك القبائل لتأمين النجاة لها ولأنعامها ومختلف أموالها في وقت واحد.

تجدر الإشارة في هذه الفترة إلى عملية الاغتيال التي نفذها الصحابي عمير بن عدي الخطمي، في أعقاب معركة بدر حيث تمكن من قتل عصماء بنت مروان إحدى نساء بني خطمة التي كانت تؤذي النبي، وتعيب الإسلام، وتقوم بالتحريض وفقاً للرواية التاريخية[1] التي تنتهي إلى ظهور "الإسلام في بني خطمة" بعد استخفاء رجال مسلمين من هذه القبيلة تخوفاً من قومهم "وكان منهم رجال يستخفون بالإسلام خوفاً من قومهم".[2]

---

(١) الواقدي: المغازي ج١ ص١٧٢ و١٧٣ و١٧٤.

(٢) المصدر نفسه، ص١٧٤.

الحلقة الثانية: بين أحد والخندق

بعد ثمانية أشهر تقريباً على آخر غزوة في تلك الجهة، وبعد قرابة ثلاثة أشهر على نكبة المسلمين في أحد، قامت جموع من قبيلة بني أسد بالتحضير للسير إلى المدينة مستهدفين سرحها في الأطراف، في عملية سريعة على متون الخيل، مستعدين للقاء ممكن مع الرسول(ص) الذي وصلته الأخبار قبل مسير الجموع، فأرسل صاحبه، أبو سلمة بن عبد الأسد برفقة مئة وخمسين من المسلمين على رأس خمسة وثلاثين شهراً من تاريخ وصول النبي المدينة، فوصل أماكنهم في قطن[1] بعد أن كانوا تفرقوا في أنحائهم، فوزع أصحابه في أكثر من جهة قبل أن يعودوا إليه سالمين، وقد أصابوا إبلاً وشاء[2] ولم يلقوا أحداً كما ينقل الواقدي.[3]

ربما كانت هذه السرية العمل العسكري الوحيد الذي أحرز المسلمون فيه نجاحاً في تلك الظروف الصعبة بعد معركة أحد وقبل فاجعتي بئر معونة والرجيع. وإذا استثنينا عملية زعيم بني لحيان، فلا شك بأن هدف هذه السرية منع بني أسد من استغلال هذه الأوضاع، وبالتالي تحقيق مآربهم في السلب والاعتداء. وإذا كان بإمكاننا ـ بشكل ما ـ ضمّها إلى الأعمال السابقة

---

(١) قطن: جبل بناحية فيد به ماء لبني أسد. ابن سعد: غزوات ص٥٠. الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج٤ ص٣٧٤.

(٢) شاء: جمع شاة. ابن منظور: لسان العرب م٤، ص٢٣٦٦.

(٣) الواقدي: المغازي ج١ ص٣٤١ و٣٤٢ و٣٤٣. ابن سعد: غزوات ص٥٠.

أيضاً في هذه المنطقة، حيث تكون الحملات العسكرية في أراضي الخصم، فقد كانت بالدرجة الأولى تعبيراً عن سياسته في إعادة الاعتبار للقوة الإسلامية التي من المفترض أنها أصيبت باهتزاز ملحوظ بعد أحد، هذه السياسة التي بدأها الرسول(ص) منذ ثلاثة أشهر تقريباً في حمراء الأسد.

سرية عبد الله بن أنيس إلى عرنة[1]

يضع الواقدي هذه السرية في الجزء الثاني[2] من كتابه على رأس أربعة وخمسين شهراً، بينما نراه في المقدمة[3] يضعها بين غزوتي غطفان وبني سليم السالفتي الذكر، وعلى رأس خمسة وثلاثين شهراً. وبما أن الواقدي نفسه يعتبر أن مقتل سفيان بن خالد اللحياني كان سبباً في تحريض بني لحيان لقبيلتي عضل والقارة في حادثة الرجيع[4] فإن من المفروض أن يكون المقتل قبل هذه الحادثة أي قبل الشهر السادس والثلاثين، وهذا ما نرى صحته في ترتيب ابن سعد[5] حيث يؤرخ سرية ابن أنيس هذه على رأس خمسة وثلاثين شهراً وهو التاريخ الأقرب للواقع.[6]

تنقل الرواية[7] أن سفيان بن خالد اللحياني جمّع الجموع لرسول الله،

---

(١) عرنة: واد بحذاء عرفات. الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج٤ ص١١١.
عرنة منزل من منازل هذيل. الهمداني: صفة جزيرة العرب ص٣٢٣.
(٢) الواقدي: المغازي ج٢ ص٥٣١.
(٣) المصدر نفسه، ج١ ص٣.
(٤) المصدر السابق، ص٣٥٤.
(٥) ابن سعد: غزوات ص٥٠.
(٦) راجع: وات، مونتغمري: محمد في المدينة ص٥٠.
(٧) الواقدي: المصدر السابق، ص٥٣١ و٥٣٢ و٥٣٣.

حيث ضوي إليه بشرٌ كثير من أفناء الناس، ذلك أنه كان على مستوى في التأثير وفرادة في الهيبة، ما يجلعه يؤثر في ناظره خوفاً ورعباً. وتمضي الرواية إلى الخدعة التي حبكها ابن أنيس بالتنسيق مع الرسول(ص) حيث ادعى أنه من قبيلة خزاعة يودّ المشاركة مع هذا الزعيم في حملته المقبلة إلى الرسول(ص)، وبعد سلسلة من التودد والتقرب يغتنم الأنصاري غفلة اللحياني، فيعمد إلى قتله ثم يعود إلى المدينة سالماً بعد فترة من التخفي.

تدخل هذه السرية في سياق تصميم الرسول(ص) على مواصلة تهديد هذه القبائل من مغبة السعي في الاعتداء على مدينته، كما تؤكد قدرته في ضرب أعدائه في المكان والزمان اللذين يريده، فضلاً عن مستوى الهدف الذي يريد حتى ولو كان زعيماً بهذا الحجم، كل ذلك كان يتم في أعقاب معركة أحد حيث إعادة الاعتبار للقوة الإسلامية في المنطقة لا يزال يأخذ الكثير من اهتمامات الرسول(ص) الحربية.

بئر معونة والرجيع: بروز الخطر القبلي

ثمة حادثتان مثيرتان وقعتا في فترة متقاربة، تشيران إلى صعوبة التجربة التي عاشها المسلمون في هذه الناحية من شبه جزيرة العرب خصوصاً إذا ما تم ربطهما في سياق المرحلة الحرجة التي دخلها هؤلاء منذ نكبتهم في أحد قبل أربعة أشهر تقريباً من وقوع هاتين الحادثتين اللتين يطلق عليهما الواقدي غزوة بئر معونة وغزوة الرجيع، ويحدّد لهما تاريخاً واحداً بعد ستة وثلاثين شهراً من وصول الرسول(ص) إلى المدينة.[1]

في الحادثة الأولى يوجّه الرسول(ص) إلى قبيلة بني عامر مجموعة من أصحابه قدرت بأربعين رجلاً[2] أو سبعين[3] بمهمة الدعوة ونشر الدين في هذه القبيلة، بناء على توافق مع زعيمها المدعو أبو براء.

وصلت هذه المجموعة إلى بئر معونة[4] حيث تقدم أحد أعضائها لتسليم كتاب الرسول(ص) إلى عامر بن الطفيل الرجل الثاني بعد أبي براء في بني عامر، فما كان من ابن الطفيل إلا أن وثب على حامل الكتاب، وقتله دون قراءة الكتاب، ثم استصرخ بني قومه على البقية فأبوا ذلك، ملتزمين

---

(١) الواقدي: المغازي ج١ ص٣٤٦ و٣٥٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٤٧.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم ج٢ ص٥٥٠.

(٤) بئر معونة: بين أرض بني عامر وحرة بني سليم. ابن هشام: السيرة ج٤ ص١٣٧.

بوصية سيدهم عامر بن مالك أبو براء الذي كان قد أخبرهم جواره للرسول(ص) قبل خروجه إلى ناحية نجد، مما اضطر عامر بن الطفيل إلى دعوة قبائل بني سليم (عصية ورعلا) فنفروا معه حيث تم قتل أفراد المجموعة كافة إلا واحداً منهم لقرابة قبلية.[1]

فيما تقدّم موجز للرواية التي يقدمها الواقدي[2] لغزوة بئر معونة حيث ينقل[3] ورود أخبارها الرسول(ص) في الليلة نفسها التي وردته فيها أخبار حادثة الرجيع.

أما الحادثة الثانية، فينقل أخبارها الواقدي[4] بما يمكن إيجازه على الشكل الآتي:

بعد مقتل الزعيم اللحياني على يد أحد أصحاب الرسول(ص) (كما ذكرنا سابقاً) قام بنو لحيان إلى قبيلتي عضل والقارة يغروهما بالفرائض كي يخدعوا الرسول(ص)، فيرسل إليهم نفراً بحجة الدعوة إلى الإسلام الأمر الذي يغتنمه اللحيانيون، ليثأروا لقتل صاحبهم، ويبيعوا الباقي قريشاً.

وتمت الخديعة بقدوم سبعة أشخاص من القبيلتين المذكورتين إلى الرسول(ص) مقرين بالإسلام طالبين منه إرسال مجموعة من أصحابه يعلمونهم القرآن ويفقهونهم الدين الجديد، فاستجاب الرسول(ص) لهم، وأرسل معهم من المسلمين على عددهم.

---

(١) ابن هشام: المصدر السابق، ص١٣٩.

(٢) الواقدي: المغازي ج١ ص٣٤٦ ـ ٣٥٠.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٤٩.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٥٤ – ٣٥٧. ابن سعد: غزوات الرسول(ص)، ص٥٣ و٥٤.

ووقع المسلمون في المكيدة عندما فوجئوا بمئة رام في أيديهم السيوف فتم أسر ثلاثة من المسلمين بدءاً بعد أن أعطوا الأمان بعدم قتلهم، فيما قُتل الأربعة الآخرون الذين امتنعوا من قبول الأمان الذي سيؤدي بهم إلى قريش في أفضل الأحوال، ثم يقتل الخامس بعد محاولته الفكاك من الأسر وبيع الاثنان الباقيان إلى المكيين الذين قاموا بقتلهما ثأراً لقتلاهم ببدر في مشهد مثير.

ربما كان الرسول(ص) غير مطمئن لنتائج المهمة التي أرسل أصحابه إليها،يدل على ذلك تردده وخشيته في بعثته الأولى "هذا عملُ أبي براء قد كنت لهذا كارهاً [1]" وربما أيضاً لم يكن في وارد القيام بمثل هذه المبادرة لولا طلب القبائل، لكن مع كل ذلك يبقى العنصر الديني في سياسة الرسول(ص) حاسماً، وهو أيضاً أمر تنتهي إليه كل أعماله ومخططاته، فقد كانت الخسارة جسيمة في كلا البعثتين، ما مجموعه خمسين أو ثمانين رجلاً تقريباً من خيرة الصحابة، حيث تمّ انتقاؤهم لمهمة هي غاية في الوعي والصدقية. يظهر ذلك في المشهد المثير الذي نقله المؤرخون[2] عن إعدام المكيين الأسيرين في البعثة الثانية، حيث قدما أنموذجاً راقياً في عمق الإيمان وصلابة الالتزام حتى الرمق الأخير، ما دفع بأبي سفيان إلى قوله: "ما رأينا أصحاب رجل قط أشد له حباً من أصحاب محمد بمحمد(ص). [3]"

---

(١) الواقدي: المغازي ج١ ص٣٤٩.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ج٤ ص١٢٥ و١٢٦ و١٢٧. الواقدي: المصدر نفسه ج١ ص٣٥٨ .٣٦٠ –

(٣) الواقدي: المصدر نفسه، ص٣٦٢.

نتوقف أيضاً في حادثة بئر معونة عند موقف الرسول(ص) من قتل رجلين من بني عامر حيث تشير الرواية[1] إلى أن عمرو بن أمية الضمري، الناجي الوحيد من فاجعة بئر معونة، صادف في طريقه إلى المدينة اثنين من بني عامر، فقام بقتلهما ثأراً لأصحابه، وفوجىء بعد ذلك بأن الرسول(ص) أجارهما. والتزم النبي عهد الجوار، فأرسل إلى أهلهما دية رجلين مسلمين بعد علمه بذلك ومراسلة عامر بن الطفيل بهذا الخصوص وفقاً لمضمون الرواية التاريخية.

وقدم هذا الموقف دلالة على قدرة الرسول(ص) في الفصل بين الالتزام بالعهود والمنطق الذي يلزمه بمحاسبة المجرمين في بئر معونة، وإن انتماء العامريين للقبيلة نفسها لا يمنع من تطبيق عهد الجوار مع قبيلة من الواضح أنها شاركت عبر أحد قادتها في مذبحة ذهب ضحيتها أربعين مسلماً على الأقل. وإذا ما ربطنا موقف الرسول(ص) هذا بالمبادىء الجديدة التي يحملها في هذا المجال و"الآمال[2]" التي لا بد من الحرص عليها في التعاطي مع قبيلة عامر وغيرها من القبائل، أدركنا المغزى الحقيقي للموقف.

لا نعرف لماذا قصد الرسول(ص) بني النضير للاستعانة بهم في تأمين الديتين؟ وإذا كان هؤلاء حلفاء لبني عامر[3] فليس من الواجب عليهم دفع دية رجلين حليفين قتلهما مسلم بطريق الخطأ.

---

(١) الواقدي: المغازي ص٣٥٢.

(٢) وات، مونتغمري: محمد في المدينة ص٤٩.

(٣) الواقدي: المغازي ج٢ ص٣٦٤.

ربما كان ذلك الطريقة الوحيدة التي عبّر فيها الرسول(ص) لعامر بن الطفيل عن ضرورة قيامه هو بدفع الدية عبر حلفائه من بني النضير، وأن ذلك بعضاً من مسؤوليته في بئر معونة.[١]

لا شك بأن حادثتي بئر معونة والرجيع أشارتا إلى عمق الخطر الذي تشكله القبائل على المدينة، ولا شك أيضاً، بأن صدقية هذه القبائل ضُربت بقوة حيث اعتمدت الدين وقضية الالتزام به بذاتها مجالاً للخديعة والمكر مما سيبعد من احتمالات تصديقها أو حتى عودتها عن ذلك قريباً، لكن ذلك يبقى مرتهناً بتأثيره دائماً للصراع مع قريش حيث الأشهر المقبلة ستشهد بدء التحوّل فيه، وأن تداعيات أُحد التي كان صداها في القبائل واضحاً لا تلبث بالاختفاء تدريجياً، الأمر الذي سينعكس في الصراع مع القبائل بشكل تلقائي.

لا شيء لدينا يشير إلى تنسيق كامل مباشر بين قريش والقبائل في هاتين الحادثتين، لكن من الصعب القبول بعدم وجود علاقة بين ما حدث في الرجيع أو بئر معونة من جهة، والصراع الإسلامي القرشي من جهة ثانية، ليس من باب التداعيات العامة لهذا الصراع فحسب، بل ربما، من باب الدخول في توازناته وتغليب الجانب القرشي فيه. ولعل صاحب كتاب الدولة في عهد الرسول(ص) يشير إلى ذلك بقوله: "ولعلها [أي حادثتي بئر معونة والرجيع] كانت بتحريض من قريش أو لجلب رضى قريش."[٢]

---

(١) راجع: وات: محمد في المدينة ص٤٩.

(٢) العلي، صالح أحمد: الدولة في عهد الرسول(ص)، م١ ص٢٣.

غزوة ذات الرقاع[1]

بعد قرابة عام على غزوة الرجيع قضاه الرسول(ص) في متابعة صراعه مع قريش واليهود، استأنف أعماله الحزبية من جديد في هذه الجهة. ففي العاشر من المحرم، وعلى رأس سبعة وأربعين شهراً، خرج الرسول(ص) في أربعمئة من أصحابه لمواجهة جموع من قبيلتي أنمار وثعلبة بعد وروده أخبارهم، فحضر أماكنهم _ وكالعادة في هذه المنطقة– حيث كانوا قد تركوها إلى رؤوس الجبال في أجواء من الترقب والحذر الشديد، صلى فيها الرسول(ص) صلاة الخوف – تحسباً لعمليات غدر – كانت أول صلاة من نوعها حتى ذلك التاريخ. عاد بعد ذلك إلى المدينة دون أن يلتقي بأعدائه، وقد أصاب في محالهم نسوة.

هذه أبرز المعلومات التي ينقلها الواقدي[2] عن غزوة ذات الرقاع.

تتكرر مع غزوة ذات الرقاع الرواية نفسها حيث الجموع الغطفانية[3] ما فتئت تعيد تجربتها بالتجمع في أنحاء نجد[4]، وعندما تصل طلائع الحملات الإسلامية تتفرق هذه الجموع في أماكنها العالية أو في رؤوس الجبال، ما يجعل المواجهة مستبعدة دائماً، إلا في حالة من الغدر والخداع خبرها الرسول(ص) جيداً في نشاطات القبائل خصوصاً في هذه الغزوة حيث شرّع نوعاً من الصلاة أوحى بالقلق الكبير الذي عاشه المسلمون في

---

(١) ذات الرقاع: "جبل فيه بقع حمر وسواد وبياض قريب من النخيل بين السعد والشقرة". ابن سعد: غزوات الرسول(ص) ص٦١.

(٢) الواقدي: المغازي ص٣٩٥ .٣٩٧ –

(٣) الطبري: تاريخ الأمم ج٢ ص٥٥٦.

(٤) المصدر نفسه، ص٥٥٥.

تلك المنطقة المليئة بشتى ضروب الغدر والابتعاد عن المدنية والاستقرار.

غزوة ذات الرقاع نشاطٌ حربي وحيد إلى هذه المنطقة طوال عامين من الزمن بين غزوة الرجيع في نهاية السنة الثالثة، والسرية المقبلة إلى القرطاء[1] في بدء السنة السادسة، وهي فترة اكتملت فيها الظروف ونضجت فيها الأوضاع والامكانات للبدء بمرحلة جديدة في هذه المنطقة.

(١) "القرطاء: بطن من بني بكر من كلاب كانوا ينزلون البكرات بناحية ضرية وبين ضرية والمدينة سبع ليال، والضرية في مياه نجد". ابن سعد: غزوات ص٧٨. الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج٣ ص٤٥٧.

الحلقة الثالثة: بين الخندق والحديبية

سرية القرطاء

كما ذكرنا سابقاً، لقد انقطع الرسول(ص) عن هذه المنطقة قرابة العامين لم يقم فيهما بعمل عسكري مركز باستثناء ذات الرقاع. ومع بدء السنة السادسة للهجرة، كانت الأوضاع العسكرية والامكانات على أكثر من صعيد قد تطورت في مستوى يمكنه من العودة إلى هذه المنطقة بطريقة أقوى وأشد تأثيراً.

لقد كانت نتائج الخندق، ثم تداعياتها، عوناً كبيراً له، كذلك كانت نتائج غزوة بني قريظة التي من المفترض أن تكون أخبارها قد وصلت إلى هذه الناحية من الحجاز فتضعف عزيمة القبائل وتؤثر في مستوى المبادرة لديها.

لم تتحدث المصادر عن أسباب مباشرة دعت الرسول(ص) لتوجيه صاحبه محمد بن مسلمة في محرم على رأس تسعة وخمسين شهراً من مهاجره إلى القرطاء[1] بل تكتفي بالطلب إليه لشن الغارة، وإذ وصل إليهم تمكن من قتل نفر منهم وهرب سائرهم، ثم عاد إلى المدينة ومعه غنائم كثيرة بينها مئة وخمسين بعيراً وثلاثة آلاف شاة، وكان يرافقه في هذه السرية ثلاثون رجلاً من المسلمين.

هذه أبرز المعلومات عن سرية محمد بن مسلمة إلى القرطاء كما

---

(١) الواقدي: المغازي، ص٤. ابن سعد: غزوات الرسول(ص) ص٧٨.

ينقلها الواقدي[1] وابن سعد.[2]

نتوقف عند غزوة القرطاء حيث تمكن المسلمون من قتل نفر من أعدائهم بعد أن كانوا عاجزين عن ذلك في غالب الأعمال السابقة لهذه المنطقة، كذلك الحصول على الغنائم – وبهذا الحجم المثير ـ بعد أن عدمنا ذلك في فترة ما بعد الغزوة الأولى لهذه الناحية، وإذا كان حجم الغنيمة يطرح تساؤلاً حول إمكانية ذلك، خصوصاً إذا ما تأملنا عدد المشاركين في السرية، والوقت الذي صرفه ابن مسلمة للعودة إلى المدينة "غاب تسع عشرة ليلة"[3] مقارنة بالمسافة الزمنية الطبيعية "وبين ضريّة والمدينة سبع ليال"[4]، إلا أن ذلك – مع إمكانية الترجيح لعدد أقل – لا ينفي حجم التأثير الجديد للأعمال الحربية الإسلامية في هذه الجهة.

غزوة بني لحيان:

ينقل ابن سعد[5] أنه ومع هلال ربيع الأول من السنة السادسة لقدومه من مكة إلى المدينة تأثر الرسول(ص) وجداً على أصحابه في بئر معونة، فخرج في مئتين من المسلمين مظهراً أنه يريد الشام، فأسرع السير حتى انتهى إلى بطن غران[6] فسمعت به بنو لحيان، الذين هربوا

(١) الواقدي: المصدر نفسه، ج٢ ص٥٣٤ و٥٣٥.

(٢) ابن سعد: غزوات ص٧٨.

(٣) ابن سعد: غزوات ص٧٨.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر السابق ص٧٨ و٧٩.

(٦) غران: "منازل بني لحيان، وهو واد بين أمج وعسفان". الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج٤ ص١٩١.

في رؤوس الجبال فلم يقدر على أحد منهم، ثم انتقل إلى عسفان[١] حيث كان مصاب أصحابه، فأرسل أبا بكر في عشرة فوارس لتسمع به قريش فيذعرهم فأتوا الغميم[٢] ثم رجعوا ولم يلقوا أحداً، عاد بعد ذلك الجميع إلى المدينة.

لا شك بأن ما تنقله الرواية عن أسباب[٣] غزوة بني لحيان لا يخالف الواقع، ولكن تأخير هذه الغزوة إلى ما بعد أكثر من عامين على مصرع المسلمين في هذه الناحية، ربما يشير إلى خطورة حدوث ذلك خلال الفترة الماضية، وإذا صح هذا التقدير، فإن التغييرات التي طرأت على موازين القوى في المنطقة بعد الخندق وقريظة تفسّر بعضاً من هذا التوقيت لغزوة بني لحيان.

ثمة ملاحظة أخرى في هذه الغزوة التي حاول فيها الرسول(ص) إثارة قريش من خلال توجيهه لصاحبه أن يصل إلى أنحائهم القريبة، وهو أمر يدل على مواصلة الرسول(ص) الضغط والتأثير في قريش بعد الخندق، حيث تأخذ الأنشطة الحربية للرسول(ص) بعداً جديداً، فيه نوع من التكريس للنتائج في المعركة السابقة، وعليه يكون إجراؤه في غزوة بني لحيان طريقة في ترتيب الأثر على ذلك.

---

(١) عسفان: منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة، المصدر نفسه ص١٢١. "منها إلى مر الظهران ثلاثة وعشرون ميلاً" الهمداني: صفة جزيرة العرب ص٣٣٨.

(٢) الغميم: موضع بين مكة والمدينة، بين رابغ والجحفة، المصدر السابق ص٢١٤. "بين مر الظهران وعسفان" الهمداني: صفة جزيرة العرب ص٣٣٠.

(٣) يحدد صاحب كتاب الدرر بأن الرسول(ص) جاء بني لحيان "مطالباً بثأر عاصم بن ثابت وخبيب بن عدي واصحابهما المقتولين بالرجيع".

غزوة الغابة[1]

بعد شهر تقريباً على غزوة بني لحيان، وفي شهر ربيع الأول من السنة السادسة نفذ عيينة بن حصن الفزاري من قبائل عطفان غارة على لقاح الرسول(ص) في الغابة، ومعه أربعون فارساً حيث كان رجل من بني غفار يرعى السرح وامرأة له، فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة في اللقاح، ولما وصل الخبر الرسول(ص) قام بتوجيه أصحابه لمطاردة المعتدين، وبعد فترة وجيزة اجتمع خمسمئة من المسلمين في ذي قرد[2] حيث تمكنوا من رد عشرة من اللقاح من اصل عشرين وسقط واحدٌ من المسلمين وأربعة من أعدائهم بينهم ابن عيينة نفسه، وصلى الرسول(ص) صلاة الخوف للمرة الثانية بعد بني لحيان، ثم عاد الجميع إلى المدينة من دون الاهتمام باقتراح أحدهم مواصلة المطاردة حتى إعادة كامل السرح. تلك خلاصة ما يورده الواقدي[3] وابن هشام[4] في أخبار غزوة الغابة أو ذي قرد.

يرد اسم الزعيم الغطفاني في مواقع عديدة قبل الغابة وبعدها، حيث نجد ذكراً له في غزوة المريسيع[5] (قبل الخندق) عندما كان المسلمون في عودتهم إلى المدينة حين أصابهم خوف من استغلال الغطفاني وجودهم خارج المدينة لنهبها أو الاعتداء عليها، كذلك وجدنا عيينة بن حصن في

---

(١) الغابة: "وهي على بريد من المدينة طريق الشام". ابن سعد: غزوات ص٨٠.

(٢) ذو قرد: "ماء على ليلتين من المدينة بينها وبين خيبر". الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج٤ ص٣٢١. ابن عبد البر: الدرر في اختصار المغازي والسير، ص١٣٥.

(٣) الواقدي: المغازي ج٢ ص٥٣٧ ولغاية ٥٤٦.

(٤) ابن هشام: السيرة ج٤ ص٢٤٣.

(٥) الواقدي: المصدر السابق ص٤٢٢.

عداد الذين خرجوا يوم الخندق لمحاربة المسلمين، وكان على رأس ألف من قبيلته فزارة[1]. وكان الرسول(ص) قد نجح في تحييده عن أعوانه في الأحزاب عبر إغرائه بثلث تمر المدينة، في حال رجوعه عن حصار المدينة، وكادت الاتفاقية أن توقع لولا سعي الأنصار في تبديل الموقف بعد استشارتهم من قبل الرسول(ص)[2]، ولقد جاءت غزوة الغابة بعد قرابة أربعة أشهر من هذه الأحداث.

لا شك بأن هذا القائد النشيط في أعمال الإغارة والسلب لا يزال يتجرّع المرارة التي أصابته في الخندق، وربما أفسدت العلاقة بينه وبين أعوانه في تلك الفترة، ومن المعقول تفسير إغارته تلك امتداداً للموقف في الخندق، ولعل امتناع الرسول(ص) عن قبول اقتراح أحد أصحابه بمواصلة عملية المطاردة بقوله: "إنهم الآن ليقرّون في غطفان[3]" يوحي ببعض المرونة[4] تجاه هذا الزعيم الذي خسر رهانه في الأحزاب، خصوصاً إذا ما تأملنا صعوبة تردّد الرسول(ص) في مثل هذا الموقف، وبطريقة أولى بعد الخندق وقريظة، إلا أن الاتجاه العام للرسول(ص) في تجنب التوغل عميقاً في الصراع مع القبائل يبقى قائماً، ولا يتنافى ذلك مع هذا الترجيح.

---

(١) الواقدي، المصدر السابق، ص٤٤٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٧٧.

(٣) ابن سعد: غزوات ص٨١

(٤) يورد ابن سعد أن الرسول(ص) كان قد وادع "عيينة بن حصن أن يرعى بتغلمين وما والاه إلى المراض، وكان ما هناك قد أخصب وبلاد عيينة قد أجدبت، وتغلمين من المراض على ميلين، والمراض على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة على طريق الربذة" وذلك في أثناء غزوة دومة الجندل الأولى بداية السنة الخامسة للهجرة. ابن سعد: غزوات ص٦٣. ابن خلدون: السيرة النبوية، ص١٣٩.

سرية عكاشة بن محصن إلى الغمر[1]

مرة ثالثة وخلال شهر واحد تقريباً ينقل الواقدي[2] سرية إلى بني أسد بقيادة عكاشة بن محصن من بني أسد في اربعين رجلاً من أصحابه، ووصلت أخبار السرية قبل وصولها، فهرب القوم إلى عليائهم، حيث تمكن المسلمون من الاستيلاء على مئتي بعير عادوا بها إلى المدينة دون مواجهة.

ربما كانت هذه السرية امتداداً لسرية أبي سلمة بن عبد الأسد إلى القبيلة نفسها منذ قرابة ثلاثة أعوام، ولكن مع اختلاف في المكان والأسباب، حيث كانت جموع هذه القبيلة هي المبادرة. وقد أدت أعمالها إلى تنظيم السرية الأولى، فيما كانت السرية الثانية عملاً بادر إليه الرسول(ص)، لم تتضمن روايته أسباباً فعلية لدى الطرف الآخر.

أيضاً، كما في السرية الأولى، فقد تمكن المسلمون من الحصول على غنائم في السرية الثانية، ما يمكن أن يستوحى منه قدراً أكبر من الاستقرار لهذه القبيلة مقارنة مع القبائل الأخرى حيث الصعوبة في الحصول على الغنائم كانت غالبة.

من جديد تعود القبائل الغطفانية إلى الواجهة بعد غياب استمر أكثر من أربعة أعوام، منذ الغزوة الأخيرة في ذي أمر بدء السنة الثالثة من وصول الرسول(ص) المدينة.

فقد وجّه الرسول(ص) في شهر ربيع الثاني من السنة السادسة سريتين

(١) الغمر: "ماء لبني أسد على ليلتين من فيد طريق الأول إلى المدينة". ابن سعد: غزوات ص٨٤

(٢) الواقدي: المغازي ج٢ ص٥٥١.

إلى بني ثعلبة وأنمار في ذي القصة[1]، الأولى: بقيادة محمد بن مسلمة، والثانية: بقيادة أبي عبيدة بن الجراح.

ويتابع الواقدي[2] وابن سعد[3] اللذان ينقلان أخبار السريتين بما يمكن إيجازه على الشكل الآتي:

في السرية الأولى، يرافق ابن مسلمة عشرة من المسلمين يصلون ليلاً إلى أماكن القوم حتى إذا نام المسلمون تنبه أعداؤهم إليهم فحضر مئة رجل منهم، تمكنوا من قتل أعضاء السرية كافة، وقد جرح ابن مسلمة قبل أن يعود إلى المدينة بصعوبة، حيث وجّه الرسول(ص) أبا عبيدة في اربعين رجلاً إلى مصارع القوم فلم يجدوا أحداً ووجدوا نعماً وشاةً فساقوها عائدين إلى المدينة.

أما في السرية الثانية، فتنقل الأخبار عن جدبٍ في بلاد ثعلبة وأنمار دفعهما إلى الإغارة على سرح المدينة وهي بهيفا، وقبل أن يتم ذلك كان الرسول(ص) قد وجّه أبا عبيدة إليهم فحضر أماكنهم مع عماية الصبح حيث أغار عليهم، فهربوا إلى الجبال، ثم أصاب واحداً منهم أصبح مسلماً فيما بعد، وعاد الجميع بعد ذلك إلى المدينة ومعهم نعم ورثة من متاع القوم.

من الممكن أن تكون السرية الثانية مرتبطة بالسرية الأولى، حيث المكان والزمان واحداً، فضلاً عن الجهة المقصودة. وأعداد السرية الثانية هي

---

(١) ذي القصة: "بينها وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً طريق الربذة". ابن سعد: غزوات ص٨٥

(٢) الواقدي: المغازي ج٢ ص٥٥١ و٥٥٢.

(٣) ابن سعد: غزوات ص٨٥ و٨٦

نفسها التي رافقت أبا عبيدة في استدراك السرية الأولى.

تبقى أسباب الثانية واضحة أكثر من الأولى، حيث لم تتضمن الرواية معلومات عن خلفية بعث ابن مسلمة.

في كل الأحوال دلت هاتان السريتان على جهد مركز قام به الرسول(ص) في هذه المنطقة مع قبائل غابت ـ نسبياً ـ عن مسرح الأحداث.

وكان سقوط عشرة من المسلمين في السرية الأولى حدثاً استثنائياً في تلك المرحلة التي توالت فيها الانتصارات العسكرية لهؤلاء منذ غزوة الخندق.

أيضاً، ومع بني سليم بعد القبائل الغطفانية، تعود هذه القبيلة بعد قرابة أربع سنوات على آخر مواجهة معها إلى مسرح الأحداث العسكرية للرسول(ص). فلقد تم توجيه زيد بن حارثة في الشهر نفسه للسريتين الماضيتين (ربيع الآخر من السنة السادسة) حيث يذكر ابن سعد[1] بعثة الرسول(ص) لابن حارثة إلى الجموم[2] ناحية بني سليم، فيتمكن من الحصول على "نعم وشاة وأسرى"[3] لهذه القبيلة قبل أن يعود إلى المدينة دون مواجهة.

ثم يعود الرسول(ص) مجدداً إلى بني ثعلبة في سرية أخرى لزيد بن

---

(١) ابن سعد: غزوات ص٨٦

(٢) الجموم: "ناحية بطن نخل عن يسارها، وبطن نخل من المدينة على أربعة بُرد". ابن سعد: غزوات ص٨٦

(٣) المصدر نفسه.

حارثة إلى الطرف[١] كما ينقل الواقدي[٢] يرافقه خمسة عشر رجلاً حيث تمكن المسلمون من الوصول إلى هدفهم وأصابوا "نعماً وشاةً" بعد هروب الأعراب الخائفين من كون الرسول(ص) قد سار إليهم، وتنتهي الرواية إلى أن هؤلاء عادوا ثم خرجوا في طلب المسلمين حتى أعجزوهم، وفقد بنو ثعلبة عشرين بعيراً في هذه السرية.[٣]

ربما عبر ذلك عن نظرة الرسول(ص) لهذه المجموعات الغارقة في بداوتها، مما أضعف الأمل لديه في إحداث تغيير مباشر في موقفها أو مضمونها حيث وجد في القبائل "تقلباً وفي نفوسهم ضعفاً[٤]" وفقاً لتعبير صاحب كتاب الحجاز والدولة الإسلامية.

قبل الانتقال إلى السرايا بعد السنة السادسة، نتوقف عند السرية الأخيرة في هذه السنة التي جاءت بطريقة ردة الفعل على أعمال سلب قامت بها إحدى المجموعات التابعة للقبائل في المنطقة. ينقل الواقدي[٥] ما مفاده أن مجموعة من قبيلة عرينة قدمت على الرسول(ص) معلنة إسلامها، وقد استوبأت المدينة، فسمح لها الرسول(ص) بالمكوث في لقاحة حيث كانت ترعى بذي الجدر[٦] فبقوا بها حتى صحوا وسمنوا، يشربون من ألبان السرح

---

(١) الطرف: "ماء قريب من المراض دون النخيل على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة". ابن سعد: غزوات ص٨٧

(٢) الواقدي: المغازي ج٢ ص٥٥٥.

(٣) ابن سعد: المصدر السابق.

(٤) بيضون، إبراهيم: الحجاز والدولة الإسلامية ص١٠٨.

(٥) الواقدي: المصدر السابق ج٢ ص٥٦٨ و٥٦٩ و٥٧٠. ابن سعد: غزوات ص٩٣.

(٦) ذي الجدر: "ناحية قباء، على ستة أميال من المدينة". ابن سعد: غزوات ص٩٣.

وأبواله، ثم غدروا على مولى الرسول(ص) في السرح فقطعوا يده ورجله، ثم غرزوا الشوك في لسانه وعينيه حتى مات.

وبلغ ذلك الرسول(ص)، فأرسل خلفهم عشرين فارساً عليهم كرز بن جابر الفهري في شهر شوال، فساروا إليهم واستأسروهم جميعاً ثم قدموا بهم إلى المدينة، حيث قطعت أرجلهم وأيديهم وسملت أعينهم وصلبوا.

تلك بعض مشاهد الغدر والخيانة التي كان على الرسول(ص) التصدّي لها منذ بئر معونة، مروراً بالرجيع إلى هذه الحادثة، والخديعة دائماً في اعتناق الإسلام، وهو أمر لم يتوان الرسول(ص) في المغامرة فيه، والتضحية في سبيله. ما حدث كان– على الأرجح – عقوبة للارتداد عن الدين، حيث يتعرّض كل من يظهر عليه ذلك إلى مصير الموت، وهو أمر ربما حمى المسلمين نسبياً من استغلال السهولة في الانتماء للإسلام والدخول فيه.

أما في ما يتعلق بتقطيع أيديهم وأرجلهم وسمل الأعين والصلب، فقد كان ذلك رداً عملياً على فعلة هؤلاء الذين لم يكتفوا بالارتداد ثم الخيانة، بل قاموا بقتل المعني بالسرح، ثم قطعوا يده ورجله، وغرزوا الشوك في عينيه ولسانه، الأمر الذي كان يتطلب من الرسول(ص) إجراءً في مستوى الجريمة هذه لفرض حالة من الرهبة والخوف في منطقة تعجّ بشتى ألوان الإجرام دون مبرر، وربما كانت هذه الطريقة نادرة ومحدودة جداً في المجال الحربي للمسلمين، حيث يورد الواقدي نفسه "أن الرسول(ص) ما بعث بعد ذلك بعثاً إلا نهاهم عن المثلة."[1]

---

(١) الواقدي: المغازي ص ٥٧٠.

غزوتان وست سرايا بين محرم وجمادى الثانية من السنة السادسة لقدوم الرسول(ص) المدينة، ثمانية أعمال حربية متوالية لم تفصل بينها أعمال أخرى ـ باستثناء سرية واحدة سبقت السرية الأخيرة– تمَّ توجيهها إلى القبائل القاطنة في المنطقة المحاذية لمكة والمدينة، في فترة لم تتجاوز نصف عام. وهذه أعلى نسبة في العمليات العسكرية ضد القبائل حتى ذلك التاريخ، مما يرجّح تصميماً لدى الرسول(ص) في تحجيم هذه المجموعات الناشطة من القبائل، ووضع حد لتجمعاتها التي كانت قد تكاثرت في الآونة الأخيرة مهددة الأمن والاستقرار في المدينة.

ومن المعقول اعتبار هذه الأعمال المتواصلة بمثابة مرحلة جديدة في الصراع الإسلامي مع القبائل، أعقبت مباشرة التحوّلات الأخيرة في الصراع مع قريش واليهود، لا سيما الأولى، حيث الهزيمة في الخندق لم تكن حدثاً قرشياً بحتاً، بل كانت أيضاً هزيمة لكل القبائل التي شكلت قسماً كبيراً في ذلك التحالف الضخم ضد المدينة.

لذلك لم يكن الرسول(ص) بحاجة إلى أسباب مباشرة ـ على الطريقة السابقة ـ لتوجيه غزواته وسراياه إلى هذه القبيلة أو تلك، فقد غابت الدواعي المباشرة في غالبية هذه الأعمال مما جعلها خاضعة إلى المبادرة التي يمسك الرسول(ص) بأطرافها كافة.

لكن يبقى أن نشير إلى أن ذلك كله كان في حدود رسَمَها الرسول(ص) بشكل دقيق، فلم يتوغل عميقاً في هذا الصراع حتى مع وجود زمام المبادرة في يديه، وهذا ما نلاحظه سواء في تكوين السرايا من حيث العدد والتجهيز أم من حيث الأهداف المرسومة، فلم نجد ما يشير إلى بروز توجّه حاسم لدى النبي في إنهاء المسألة القبلية في ذلك الوقت، بل حتى

في دعوة مجموعاتها إلى الإسلام.

قبل الانتقال إلى الحلقة الرابعة في أعمال هذه الناحية، نتوقف قليلاً عند غزوة الغابة، حيث يشير السياق العام في الغزوات التي قادها الرسول(ص) إلى ما يمكن تسميته بنهاية مرحلة وبدء أخرى.

فمن الواضح أن غزوة الغابة جاءت بعد سلسلة متوالية من الغزوات، في أكثر من مكان، لم يفصل بينها سوى سرية واحدة إلى القرطاء بقيادة محمد بن مسلمة، وقد وصل عدد هذه السلسلة إلى عشر غزوات.

كما جاءت هذه الغزوة قبل سلسلة متوالية من السرايا، في أكثر من اتجاه، قاربت الخمس عشرة سرية لم يشارك الرسول(ص) شخصياً في أي منها.

وتعتبر غزوة الغابة خاتمة لمجموعة من الغزوات، تقدّر بثلثي إجمالي الغزوات منذ بدء الأعمال الحربية للرسول(ص)، وعلى مدى ست سنوات متواصلة تقريباً.

وعند التدقيق في نوعية الغزوات اللاحقة، نرى تمايزاً عاماً في الحجم، فضلاً عن الحسم الذي يطبع جلّ إنجازاتها.

بناءً على ما تقدم نستنتج ما يأتي:

أنهت غزوة الغابة مرحلة من الأعمال الحربية كان الرسول(ص) مضطراً فيها لتحمّل أعباء القيادة المباشرة، فضلاً عن المشاركة في أدق التفاصيل والأمور، ولم يكن هذا ليتم إلا بعد عامين كاملين من العمل الحربي المتواصل تعرضت فيه التجربة الإسلامية إلى أخطر المواجهات منذ انطلاقتها. وإذ تخرج هذه التجربة سالمة وقوية، خصوصاً بعد غزوتي

الخندق وقريظة، فقد بدأت فعلاً مرحلة جديدة، أصبح بمقدور المسلمين فيها التخلي نسبياً عن تحميل الرسول(ص) أعباء القيادة المباشرة ليصبح بعد ذلك حضور الرسول(ص) علامة.مميزة تسبق الانجازات الضخمة أو الأعمال الكبرى.

بين الحديبية وفتح مكة

نبقى في الناحية الشرقية حيث تتوقف المصادر عن ذكر أي نشاط حربي للرسول(ص)، خلال فترة تقارب العشرة أشهر بين سرية كرز بن جابر الفهري وأول سرية بعدها في شهر شعبان من السنة السابعة.

يبدو لنا أن الرسول(ص)، في هذه الفترة، انشغل مع قريش واليهود في أحداث حاسمة، ومن المعقول أيضاً أن كثافة السرايا التي تم إرسالها في هذه المنطقة في النصف الأول من السنة السادسة- كما أسلفنا – قد أسهمت في إيجاد مناخ من الحذر خيم على حركة القبائل خصوصاً إذا ما ربطنا ذلك بنتائج الحديبية (ذي القعدة سنة ست) حيث هبط الصراع مع قريش إلى أدنى حرارته، فيما شرعت القبائل بالاستفادة من بند حرية التعاقد مع الرسول(ص) ما يعني بدء مرحلة جديدة من إعادة النظر والترقب عاشتها القبائل في ذلك الحين.

سرية عمر بن الخطاب إلى تربة[1] وأبي بكر إلى نجد:

في شهر شعبان من السنة السابعة، يذكر الواقدي[2] بعثة الرسول(ص) لعمر بن الخطاب في ثلاثين رجلاً إلى عجز هوازن في تربة، فيأتي الخبر هوازن التي هربت قبل وصول المسلمين، ولم تقع مواجهة بين الطرفين.

---

(١) تربة: ناحية العبلاء على أربع ليال من مكة طريق صنعاء ونجران. ابن سعد: غزوات ص١١٧.

(٢) الواقدي: المغازي ج٢ ص٧٢٢.

ويتابع المؤرخ نفسه فيذكر سرية أبي بكر إلى نجد في الشهر نفسه حيث يستهدف القبيلة نفسها في غير مكان، وبعد مواجهة سقط فيها سبعة من هوازن تعود السرية إلى المدينة دون إصابات مع بعض السبي، كما ينقل ابن سعد.(١)

من الملاحظ عدم ورود أسباب تقف وراء هاتين السريتين بصورة مباشرة وهو أمر يطرح تساؤلاً حول خلفية هاتين السريتين إلى قبيلة من أضخم القبائل في تلك المنطقة إذ لم يسبق للرسول(ص) أن وجّه إليها سرايا قبل ذلك، الأمر الذي يسمح بافتراض نية الرسول(ص) في الشروع جدياً بفتح الصراع مع هذه القبيلة التي سيكون لها الأثر الكبير في مصير الصراع الإسلامي القبلي.

سرية غالب بن عبد الله إلى الميفعة(٢)

بعد شهر تقريباً على السرية الأولى، أي في شهر رمضان من السنة السابعة، ينقل الواقدي(٣) أخبار سرية غالب الليثي بما يمكن إيجازه بالآتي:

أحد أصحاب الرسول(ص) يتحدث إليه بأنه علم غِرّة من بني عبد ثعلبة، فيرسل النبي سرية إلى هذه القبيلة مؤلفة من مئة وثلاثين رجلاً بقيادة غالب بن عبد الله الليثي، تمكنت السرية من الوصول إلى وسط محال بني عبد ثعلبة، وجرت مواجهة قُتل فيها من صمد في تلك القبيلة، عاد بعدها المسلمون إلى المدينة وفي حوزتهم نعم وشاه دون أسرى.

---

(١) ابن سعد: غزوات ص١١٨.

(٢) الميفعة: "وراء بطن نخل إلى النقرة قليلاً بناحية نجد". ابن سعد: غزوات ص١١٩.

(٣) الواقدي: المصدر السابق ج٢ ص٧٢٧.

تندرج هذه السرية في سياق الصراع بين الرسول(ص) والقبائل، حيث اغتنام الفرصة من الأعداء، إحدى قواعد الحرب "غرة من بنـي عبـد ثعلبـة". هذه الحرب التي تتغير أماكنها مع تغير ظروف عيش القبائل، وتبقي الحركـة ممسوكة والمجال محدوداً "ونهاهم عن الإمعـان فـي الطلـب" فـي أرض لا يأمن المسلمون فيهـا على شيء.

ينقل ابن سعد[1] في أخبار هذه السرية مقتل رجل نطق بالشهادة علـى يد الصحابي أسامة بن زيد بسبب شك الأخير بصدق الرجـل، الأمـر الـذي اعترض عليه الرسول(ص) بقولـه: "ألا شـققت قلبـه فـتعلم صـادق هـو أم كاذب؟".[2]

يستوقفنا هذا الاعتراض للرسول(ص) الذي يؤكد قبـول الإسـلام مـن الشخص مهما حامت الشكوك حوله، ولو كانت التكلفة قاسـية دائمـاً، كمـا رأينا سابقاً في ذي الجدر وغيرها.

سرية بشير بن سعد إلى الجناب[3]

مع شهر شوال من السنة السابعة، مرة أخرى الرسول(ص) أمام غطفـان وزعيمها عيينة بن حصن الذي واعد قومه للزحف إلـى المدينـة، ووصـلت الرسول(ص) هذه الأخبـار قبـل انطـلاق أعدائـه، فبعـث بشـير ابـن سـعد الأنصاري في ثلاثمئة رجل حتى أتوا يمن وجبار، وهي نحو الجناب، فـدنوا من القوم، وتمكنوا من الحصول علـى نعـم كثيـرة قبـل أن يحـذر الجمـع،

---

(١) ابن سعد: غزوات ص١١٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الجناب: "أرض لفزارة وعذرة". البكري: معجم ما استعجم ج٢ ص٣٨.

فيتفرقوا ويلحقوا بعلياء أماكنهم. وعاد المسلمون بالنعم ورجلين قد أسروهما، أسلما بعد لقاء الرسول(ص). ذلك هو المضمون العام لسرية الجناب كما ينقلها الواقدي[١] وابن سعد.[٢]

تنفرد سرية بشير بن سعد كونها جاءت تستبق عزم القبائل على غزو المدينة في تلك الفترة التي لم نعد نسمع فيها مبادرات من هذا النوع في صفوف القبائل المجاورة حيث الاتجاه العام – منذ فترة ما بعد الخندق – في السرايا يكرس المبادرة في أيدي المسلمين دون الحاجة لأسباب مباشرة، لكن غطفان _ وهي القبيلة الحاضرة دائماً في تلك المنطقة – ما زالت على ما يبدو في رهان جديد على تغيير في الأوضاع الخاصة بالصراع القرشي الإسلامي، يعضد ذلك على الأرجح إلحاح الحاجة الضاغطة والدائمة لهذا النوع من القبائل التي تقوم على الغزو المستمر، والمدينة في تلك الأثناء، واحة غنية، في وسط يبحث دائماً عن أدنى شروط العيش.

سرية ابن أبي العوجاء إلى الجموم

بعد أقل من عام على سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم بالجموم يطلب الرسول(ص) من صاحبه ابن أبي العوجاء التوجه إلى هذه القبيلة في سرية تضم خمسين رجلاً، وذلك في شهر ذي الحجة من السنة السابعة، وعلم بنو سليم بقدوم المسلمين إليهم قبل وصولهم، الأمر الذي مكنهم من الاستعداد، وبالتالي إلحاق الهزيمة بالمهاجمين بعد مقتل عامة أفراد السرية وجرح صاحب السرية الذي تمكن بصعوبة من العودة إلى المدينة.

---

(١) الواقدي: المغازي ج٢ ص٧٢٨.

(٢) ابن سعد: غزوات ص١٢٠.

فيما تقدم موجز المعلومات عن هذه السرية التي يقدمها كل من الواقدي[1] وابن سعد.[2]

لم تتحدث المصادر عن دواعي هذه السرية، الأمر الذي يطرح تساؤلاً حول هدف هذا التحرك الذي تم في أعقاب عمرة القضاء مباشرة؟ وهل بالامكان اعتبار هذا التحرك خطوة أولى في المرحلة الجديدة من الصراع الإسلامي القبلي غداة الهدوء الذي سيطر على الجبهة القرشية وحسم الصراع مع اليهود؟ خصوصاً إذا ما توقفنا عند دعوة مسلمي هذه السرية أفراد القبيلة إلى الإسلام[3] وهو أمر نادر حتى تاريخه في أخبار السرايا والغزوات مع قبائل تلك المنطقة.

من الممكن افتراض الأثر الذي سيتركه تسارع الأحداث مع المكيين بهذه الطريقة، حيث بدأ الانهيار في الاطار الذي كان يجمع قريش والقبائل ويوحّد مواقفها من الدين الجديد.

وربما كانت المواجهة بنتائجها الدموية إشارة إلى بدء توغل المسلمين في أنحاء القبائل، خصوصاً إذا ما قارنا هذه السرية بسابقتها إلى القبيلة نفسها، حيث تقتصر الأمور على الغنائم– بعد تأكيد الحضور العسكري – دون مواجهة.

في كل الأحوال، فإن مقتل عامة أفراد السرية يثير أكثر من تساؤل حول دقة هذه المعلومة التي ينقلها الواقدي وابن سعد بطريقة مختصرة وسريعة،

---

(١) الواقدي: المغازي ج٢ ص٧٤١.

(٢) ابن سعد: غزوات ص١٢٣.

(٣) الواقدي: المصدر السابق.

يضاف إلى ذلك عدم إيراد أسماء الشهداء مطلقاً، وهو أمر نادر في مثل هذه الروايات. أما ابن هشام فينقل أخبار السرية بطريقة عامة جداً "غزوة أبي العوجاء السلمي أرض بني سليم أصيب بها هو وأصحابه جميعاً[١]" من دون تحديد العدد وتعميم الإصابة دون توضيح القتلى من الجرحى، وكذلك فعل الطبري.[٢]

أخيراً، لسنا في صدد حسم هذه الإثارة، ولكن من الضروري الوقوف أمام هذا الحدث الاستثنائي في سياق تلك المرحلة.

سرية غالب بن عبد الله إلى الكديد[٣]

ينقل الواقدي[٤] بعثة الرسول(ص) لغالب بن عبد الله الليثي في سرية ضمت بضعة عشر رجلاً إلى بني الملوح بالكديد في صفر سنة ثمان للهجرة، وهم من بني ليث، فدخلوا مجالهم حيث قتلوا المقاتلة وسبوا الذرية قبل أن يجمع القوم أنفسهم في أعداد لا قِبل للمسلمين بها، وقد أنقذوا أنفسهم وغنائمهم بصعوبة قبل أن يعودوا إلى المدينة.

للمرة الأولى تتحدث المصادر عن بني الملوح أو بني ليث كأهداف في حركة السرايا والغزوات في ذلك الوقت، وإذا كنا نفتقر إلى السبب الذي يقف خلف هذه السرية التي كانت تنفيذاً لأمر في "شن الغارة" وفقاً للرواية

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ج٦ ص٢٢.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج٣ ص٢٦.

(٣) الكديد: "موضع بالحجاز على اثنين وأربعين ميلاً من مكة بين عسفان وأمج". الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج٤ ص٤٤٢.

(٤) الواقدي: المغازي ج٢ ص٧٥٠ و٧٥١ و٧٥٢.

التاريخية، فمن المعقول أن يكون هذا العمل في سياق السعي لتكريس أمن المسلمين في المنطقة، حيث يقطن بنو ليث ضمن الدائرة التي لا بد للرسول(ص) من تأكيد مرجعيتها إليه في الأشهر المقبلة.

سرية شجاع بن وهب إلى السِّي[1]

ينقل الواقدي[2] في أحداث ربيع الأول من السنة الثامنة سرية بقيادة شجاع بن وهب قوامها أربعة وعشرون رجلاً إلى جمع من هوازن بالسّي، طلب منه الرسول(ص) فيها الإغارة على هذا الجمع، وتمكنت السرية من تحقيق هذا الهدف وأصابت "نعماً كثيراً وشاه[3]" حيث كانت السهام خمسة عشر بعيراً، كما يذكر أن السرية أصابت "نسوة فاستاقوهن"[4] وأن وفداً من هذا الجمع حضر إلى المدينة معلناً إسلامه "ثم قدم وفدهم مسلمين"[5]، وقد كُلم الرسول(ص) في السبي حيث أُعيد ذلك إليهم.

لعل هذه السرية كانت باكورة الأعمال الحربية مع إحدى أهم القبائل الكبرى في نجد، هوازن، هذه القبيلة التي سيواجهها الرسول(ص) في حنين في أكبر تجمّع للمسلمين بعد بضعة أشهر من هذا التاريخ.

لا توجد إشارة على ارتباط مباشر لهذا الجمع الهوازني بالقبيلة الأم، كما لا يبدو أن هذه السرية كانت في صدد إجراء نوعي في ذلك الوقت،

---

(١) السي: "على جادة البصرة إلى مكة بين الشبيكة والوجرة". الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج٣ ص٣٠١.

(٢) الواقدي: المغازي ج٢ ص٧٥٣ و٧٥٤.

(٣) المصدر السابق ص٧٥٣.

(٤) المصدر نفسه ص٧٥٤.

(٥) المصدر نفسه ص٧٥٤.

خصوصاً إذا ما دققنا في الهدف الذي لم يتجاوز الإغارة أو العدد الذي لم يتعدّ الأربع وعشرين رجلاً ما يرجِّح إمكانية الاقتصار على الحضور الأمني في تلك الناحية والحصول على بعض الغنائم.

أما عن قدوم الوفد واعتناق الإسلام، فمن الممكن أن يكون له علاقة بالسبي الذي كان محور حضورهم عند النبي، وإذا لم يكن لدينا ما يمنع من الاعتقاد بصحة إسلام الوفد، كما أشارت الرواية، فمن المفيد الربط بين الأمرين (استرجاع السبي، الإسلام) للمزيد من فهم الحدث.

سرية ابي قتادة إلى غطفان

يذكر الواقدي[١] هذه السرية محدداً تاريخها في شهر شعبان من السنة الثامنة في المضمون الآتي:

بعث الرسول(ص) أبي قتادة في ستة عشر رجلاً إلى غطفان، نحو نجد، طالباً منهم شن الغارة وعدم قتل النساء والصبيان. تمكنت السرية من الوصول إلى هدفها حيث غنمت مئتي بعير وألف[٢] شاة، وكان السبي كثيراً.

تأتي سرية خضرة لأبي قتادة في سياق المجموعة السابقة من السرايا إلى القبائل الغطفانية حيث الحضور في تلك المنطقة دون دواع مباشرة، يسهم في تكريس القوة الإسلامية فيها، ويمنع القبائل من التفكير مجدداً بغزو المدينة، كما كان ذلك قبل الخندق.

ربما كانت الأوضاع الاقتصادية واحداً من دوافع هذه السرية، حيث

---

(١) الواقدي: المغازي ج٢ ص٧٧٨ و٧٧٩ و٧٨٠.

(٢) يورد ابن سعد "ألفا شاة"، غزوات ص١٣٢.

تذكر الرواية عدم قدرة الرسول(ص) على تأمين المساعدة المالية لأحد أصحابه الذي يريد الزواج[1] فيقنعه بالمشاركة بهذه السرية. كذلك، فإن عدد المشاركين مقارنة بحجم الغنائم يشير إلى تركيز هدف السرية في هذا الاتجاه بالدرجة الأولى.

ليس لدينا ما ينافي ذلك، حيث أن تعدُّد الدوافع لا يحجب وضوح الهدف الاستراتيجي الذي يتمثل بالضغط على القبائل لتطويعها تمهيداً لإدخالها في الإسلام.

سرية أبي قتادة إلى بطن إضم[2]

ينقل ابن سعد[3] هذه السرية في أول شهر رمضان من السنة الثامنة، في اطار التمويه الذي أراده الرسول(ص) لقريش بخصوص غزوة الفتح حيث تضيع الجهة المقصودة عليها، وربما على أصحابه أيضاً، وقد شارك بهذه السرية ثمانية من المسلمين بقيادة أبي قتادة بن ربعي.

وإذ بلغت هذه العملية أهدافها، فإن حادثة جرت فيها تدعو إلى بعض التأمل والتدقيق.

فقد قام أحد أفراد السرية بقتل رجل من أشجع (عامر بن الأضبط

---

(١) يورد الواقدي أن أحد المسلمين تقدم من الرسول(ص) طالباً العون على تأمين مهر زواجه فيجيبه الرسول(ص): "..ما وافقت عندنا شيئاً أُعينك به، ولكني قد أجمعت أن أبعث أبا قتادة في أربعة عشر رجلاً، فهل لك أن تخرج فيها؟ فإني أرجو أن يغنمك الله مهر امرأتك" ص٧٧٨.

(٢) بطن إضم: "بين ذي خشب وذي المروة بينها وبين المدينة ثلاثة برد". ابن سعد: ص١٣٣. "واد بجبال تهامة وهو الوادي الذي فيه المدينة". الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج١ ص٢١٤.

(٣) ابن سعد: غزوات ص١٣٣.

الأشجعي) من دون مبرر "إذ مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي، فسلّم علينا بتحية الإسلام فأمسكنا عنه، وحمل عليه محلّم بن جثامة فقتله[1]" كما عبر أحد المشاركين في السرية. وتقول الرواية بأن آية قرآنية[2] قد نزلت بشأن هذه الحادثة تستنكر هذا الإجراء وتشير إلى إمكانية تحقيق "مغانم كثيرة" بغير هذه الطريقة.

وإذ ينفرد ابن جثامة الليثي، بعد أن أمسك الآخرون، بذلك فإن هذا الأمر كان يعني مثالاً على الصعاب التي كان يتعرض لها الرسول(ص) مع بعض أصحابه، ربما عنت هذه الحادثة فيما تعنيه، صعوبة الأوضاع المعيشية التي كان عليها بعض المسلمين في تلك الفترة حيث أشارت الرواية بأن القاتل كان قد سلب الأشجعي "بعيره ومتاعه، ووطب لبن كان معه.[3]"

أخيراً من الممكن اعتبار هذه السرية خطوة أخيرة في أعمال الحلقة الرابعة من الصراع الإسلامي القبلي في المنطقة المجاورة لمكة والمدينة من ناحية الشرق، وخصوصاً نجد، حيث سيدخل هذا الصراع بعد ذلك في مرحلته الأخيرة في عهد الرسول(ص)، تحسم فيها – بشكل ما _ المسألة القبلية التي أخذت جهداً ووقتاً طويلين من الرسول(ص) دون نتائج حاسمة حتى ذلك الحين.

تميزت هذه المجموعة الجديدة من السرايا بعد الحديبية، بدخول قبائل جديدة إلى ساحة الصراع، وفي مقدمتها بعض الفروع من هوازن وبني

---

(١) الواقدي: المغازي ج٢ ص٧٩٧.

(٢) قرآن كريم، سورة النساء: آية ٩٤.

(٣) المصدر السابق.

الملوّح، كذلك وصول المسلمين إلى مناطق لم يسبق لهم قصدها، الأمر الذي يوحي بنوع من الانتشار الأوسع من دون التوغل الفعلي في هذه المنطقة التي ستظل بعيدة ـ نسبياً ـ عن مواقع الانجاز أو الاستقرار للمسلمين.

لم يظهر لنا تطوّر في أوضاع القبائل باتجاه المسلمين في أعقاب صلح الحديبية، كما يفترض، على الأقل في حدود الأهداف والنتائج التي أنجزتها هذه المجموعة من السرايا التي بلغت تسع سرايا، ما يرجح تأخر تفاعلات هذا الصلح في هذه المنطقة إلى ما بعد فتح مكة.

الحلقة الخامسة: بعد فتح مكة

غزوة حنين[1]

أدركت قبائل هوازن وثقيف القاطنة إلى الجنوب الشرقي من مكة والمدينة والقريبة من مكة، الآثار المترتبة على فتح مكة، وكانت تتوقع توجّه جيوش الفتح إليها قبل مكة، على ما ينقل الطبري[2]، فسارعت إلى الاستعداد والتأهب للمعركة المقبلة، حيث الثقة بقدراتها الحربية تفوق المكيين الذين لم يخبروا الحرب جيداً "والله ما لاقى محمد قوماً يحسنون القتال، فأجمعوا أمركم فسيروا إليه قبل أن يسير إليكم"[3] كما قال بعضهم. ولم يمكث الرسول(ص) في مكة أثناء الفتح أكثر من نصف شهر[4] وخرج بعد علمه باستعداد القبائل في اثني عشر ألفاً من المسلمين بينهم ألفا رجل من أهل مكة (المسلمون الجدد) ووصل حنين في العاشر من شوال من السنة الثامنة للهجرة.

وبدأت المعركة في ظروف ساعدت القبائل بصورة واضحة حيث الاستعداد المسبق مكنها من مفاجأة المسلمين الذين نقل عن أحدهم قوله:

---

(١) حنين: "واد بجنب المجاز قريب من مكة بينه وبينها ثلاث ليال". الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج٢ ص٣١٣. حنين: "ماء لهوازن قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً". البكري: معجم ما استعجم ج٢ ص١٠٣، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٩٨.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج٣ ص٧٠.

(٣) الواقدي: المغازي ج٣ ص٥٨٥.

(٤) الطبري: المصدر السابق.

".. ما راعنا ونحن مخطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد"[1] في وقت عانت الحملة الإسلامية ضعفاً في التماسك أشار إليه القرآن الكريم: ﴿ويومَ حُنين إذْ أعجَبتكُم كثرتكُم فلمْ تُغنِ عنكُم شيئاً وضاقَتِ الأرضُ بِما رحُبَت ثمَّ ولّيتُم مُدبرين﴾.[2]

ودخلت المعركة في مرحلة اهتز فيها واقع المسلمين بعنف، الأمر الذي دفع بالرسول(ص) للمناداة على الأنصار "أصحاب السمرة" وغيرهم لتوحيد الصفوف. وأعاد تجميع المسلمين بطريقة ساعدتهم على تحقيق النصر بعد ذلك.

لم تقف ثقيف ـ على ما يبدو ـ موقفاً جدياً في المعركة حيث واجه الأحلاف الموقف بشيء من الفتور، فيما أبدى بنو مالك (القسم الثاني من ثقيف) نوعاً من الاهتمام دل عليه عدد قتلاهم الذي تجاوز السبعين، فيما لم يفقد الأحلاف أكثر من رجلين، ثم عاد الجميع إلى حصونهم في الطائف، وفقد المسلمون أربعة من الأنصار.

كشفت المعركة عن مجموعات ضخمة من السبي أرادته القبائل عامل تشجيع وتثبيت في المعركة حيث المسلمون أمامهم والأهل خلفهم، كما أسفرت عن حجم كبير في الغنائم.

قدِّر السبي بستة آلاف والإبل بأربعة وعشرين ألف بعير والغنم أكثر من أربعين الف شاة.

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ج٥ ص١١٠.

(٢) قرآن كريم، سورة التوبة: آية ٢٥.

تأنّى الرسول(ص) في تقسيم السبي، ووزع الأموال حيث أعطى المؤلفة قلوبهم[1] أول الناس.

ما تقدم، لمحة عامة عن غزوة حنين اعتمدنا فيها الواقدي[2] وابن هشام[3] مصدرين أساسيين.

غزوة الطائف

شكلت غزوة الطائف امتداداً عسكرياً لغزوة حنين، وهذه ابرز أحداثها وفقاً للمصدرين السابقين.[4]

مضى الرسول(ص) بعد انتصاره في حنين إلى الطائف[5] حيث تحصنت بنو مالك والأحلاف، وضرب حصاراً حول حصونه تخللته معارك محدودة طغى عليها الرمي بالنبل حيث سقط عدد من المسلمين، الأمر الذي أدى إلى تجنب المواجهة المباشرة وتعزيز الحصار بدء، ثم التأثير في القبائل بقطع بعض كرومهم.

---

(١) المؤلفة قلوبهم: "قوم من سادات العرب أمر الله تعالى نبيه(ص) في أول الإسلام بتألفهم أي بمقاربتهم وإعطائهم ليرغّبوا مَن وراءَهم في الإسلام... وقد نفلهم النبي(ص) يوم حنين بمائتين من الإبل تألفاً لهم" ابن منظور: لسان العرب م(١) ص١٠٨.

(٢) الواقدي: المغازي ج٣ ص٨٨٠ لغاية ٩٥٣.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ج٥ ص١٠٤ ـ ١٢٩.

(٤) الواقدي:المصدر السابق ص٩٢٣ـ٩٣٧و٩٦٣ـ٩٧٠. ابن هشام:المصدر السابق ص١٥٤ ـ ١٦٢و٢٢٣ ـ ٢٢٥.

(٥) الطائف: "بينها وبين مكة اثنا عشر فرسخاً.. مسيرة يوم للطالع [إليها] من مكة ونصف يوم للهابط إلى مكة". الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج٤ ص٨ و٩. "سميت بالطائف بسبب بناء حائط يطيف بها ولقد استولت عليها ثقيف بعد بني عامر فأحسنت عمارتها وحصنتها حيث لم تنزل العرب مثلها داراً". البكري: معجم ما استعجم ج١ ص٧٠.

بقي الوضع على حاله طوال خمسة عشر يوماً تبعاً للواقدي[1] أو بضع وعشرين ليلة كما ينقل ابن هشام[2]، أعلن الرسول(ص) إثر ذلك إيقاف الحصار ثم توجّه مع أصحابه إلى الجعرانة[3] داعياً ربه هداية أهل الطائف في المقبل من الأيام، وكان عدد الذين سقطوا من المسلمين إثنا عشر رجلاً.

وبعد قرابة العام شعرت ثقيف بضعفها عن مواصلة حرب المسلمين حيث العرب من حولهم تتوافد على الرسول(ص) في ظل أوضاع من الحصار غير المباشر، لا يأمن لهم فيها سرب ولا يخرج أحد إلا اقتطع، مما دفع قبائل الطائف إلى الدخول في مفاوضات حاولوا فيها الحصول على القدر الممكن من المطالب في سياق تراجعي ملحوظ، انتهى بعدها الأمر إلى صلح دخلت فيه ثقيف الإسلام.

تجدر الإشارة إلى أن الرسول(ص) كان قد استقطب زعيم هوازن (مالك بن عوف) في وقت لاحق من الحصار، بعد إغرائه بإعادة أهله إليه مع مجموعة من الغنائم ثم "استعمله على قومه وعلى من أسلم من تلك القبائل حول الطائف.. فكان يقاتل بهم ثقيفاً، لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه حتى ضيّق عليهم"[4] كما يورد الطبري.

شكلت غنائم حنين في حجمها الضخم مادة غنية لمجموعة من المواقف أطلقها الرسول(ص) في تحديد السياسة المستقبلية لدعوته في

---

(١) الواقدي: المغازي ص٩٣٧.

(٢) ابن هشام: السيرة ص١٥٤.

(٣) الجعرانة: "ماء بين الطائف ومكة وهي إلى مكة أقرب". الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج٢ ص١٤٣.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج٣ ص٨٩

المنطقة الحجازية عموماً.

نتوقف أولاً عند سياسة توزيع الغنائم القائمة على مبدأ "تأليف القلوب" حيث نقل ابن سعد[1] خصول مجموعة من قادة قريش وأشرافها على حصص تجاوزت أحياناً المئة من الإبل، من بينهم أبو سفيان وولديه يزيد ومعاوية، كذلك حكيم بن حزام وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وغيرهم، كما حصل بعض قادة القبائل أمثال عيينة بن حصن (فزارة) والأقرع بن حابس (تميم) وغيرهم على مئة من الإبل. وينتهي ابن سعد إلى أن "ذلك كله من الخمس[2]" الذي يعتبر من حصة النبي يصرفه حيث يشاء.

كما تذكر المصادر[3] احتجاج الأنصار على هذه الطريقة في توزيع الغنائم التي لم يحصلوا فيها على شيء، الأمر الذي دفع الرسول(ص) إلى جمعهم، وبالتالي إيضاح أهدافه من تلك الطريقة أمامهم، في جو من الود والتقدير لهم، كاشفاً عن تصميمه في العيش والبقاء معهم، وقد أخصّهم بكتاب تكون فيه البحرين[4] من بعده لهم "أكتب لكم بالبحرين كتاباً من

---

(١) ابن سعد: غزوات ص١٥٢ .١٥٣ –

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٣.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ج٥ ص١٧٦ ـ ١٧٧.

(٤) البحرين: "اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان.. فيها عيون ومياه". الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج١ ص٣٤٦. والبحرين في شط العرب تبعد عن الخشبات سبعون فرسخاً وقراها: الخطن القطيف، الآرة، وهجر، والفروق وبينونة والمشقّر والمزارة، حواثا، سابون، دارين، الغابة، والشنون، ابن خرداذبة: المسالك والممالك، تقديم خير الدين محمود قبلاوي، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق ١٩٩٩ ص٨٩ و٢٠٤. وليس لدينا ما يشير إلى أن هذه القرى كافة كانت ضمن المقصود بالبحرين، كما عبر الرسول(ص) في رواية ابن سعد السالفة.

بعدي تكون لكم خاصة دون الناس".[1]

لا شك بأن حجم هذه الغنائم كان سبباً مهماً في فتح الرسول(ص) هذا الباب الجديد في عملية استقطاب للإسلام، بهذا القدر الكبير نسبياً.

من الصعب علينا الاعتقاد بأن الرسول(ص) كان يروم بذلك دفع الثمن لهؤلاء الرجال مقابل اعترافهم بالدين، وهو أمر لا يتحقق في كل الأحوال نظراً للاختلاف الجوهري بين الموضوعين.

كما أنه من الصعب علينا اعتبار هذه الأموال طريقة في تعزيز الانتماء السياسي للإسلام لدى القادة فقط، وبالتالي قبائلهم والاقتصار عليه دون الديني، وهو أمر يتنافى مع مستلزمات الدين الذي لا يمكن تحديده بالولاء أو الاعتراف بسلطة الرسول(ص) فحسب.

ولا بد لنا في هذا المجال من التفريق[2] النسبي بين هؤلاء الرجال الذين حصلوا على هذه الحصص المميزة، وبالتالي النظر في اختلاف التأثير المتوقع في شخصياتهم من هذا الاجراء.

فما هي الغاية الفعلية التي كان يبحث فيها الرسول(ص)؟

ليس دقيقاً، بالنسبة لنا، تحديد أهداف نهائية لتصرُّف الرسول(ص) حيث تتداخل الأمور في مجرى الأحداث التاريخية بطريقة لا يمكن للباحث العثور على خلفياتها بشكل محدد أو حاسم.

لكن بالإمكان افتراض ما يأتي:

---

(١) الواقدي: المصدر نفسه.

(٢) وات، مونتغمري: محمد في المدينة ص٥٣١.

في الصراع مع قريش، قلنا إن المسألة لم تكن دينية بين الرسول(ص) والمكيين، وإن لبست هذا الثوب بالمظهر العام، كذلك بالإمكان اعتبار ذلك في موضوع الصراع مع القبائل أيضاً. حيث الوثنية عاجزة عن تصليب الانتماء إليها في أي ثمن، ومهما كانت التضحيات أو الإغراءات. إذن لم يكن لقريش ولا حتى للقبائل ما يحاربون من أجله على المستوى الديني البحت، كما لم يكن بأيديهم، وخصوصاً القبائل ما يخسرونه فعلياً في نظام عيشهم وأمنهم مقارنة بمبادىء الدين الجديد، ودائماً بصورة دينية بحتة.

فخلاصة القضية أن نمطاً اقتصادياً وطريقة في تأمين الحياة قائمة على بعض الثوابت ذات المظهر الديني مهددة بالانهيار، وبالتالي وضع الجميع في احتمالات قاسية أمام مصالحهم الاقتصادية وسبل تأمين معيشتهم، وكان كل موقف لهم يصدر عن هذا القلق وتلك الحسابات.

وجاءت غنائم حنين توحي لجميع هؤلاء بأن في مقدورهم الالتزام بالدين الجديد دون قلق أو حسابات اقتصادية صعبة، فكشفت الغطاء عن ذلك السر الذي لا يزال يموّل السلبية في مواقف العرب عموماً وقريش على وجه الخصوص.

باختصار، عالجت غنائم حنين المعادلة المعقدة التي كانت تدور في أذهان القيمين على شؤون بعض العرب في المنطقة الحجازية، حيث الاعتراف بالدين يعني التخلي عن مصادر العيش وربما المجد القائم، وأشاعت معادلة جديدة مفادها أن الاعتراف بالدين هو بالدرجة الأولى مسألة دينية، أما أبعاد ذلك في الحياة العملية فكل شيء قابل للعلاج.

وإذا تأخر الانخراط الجدي للبعض ـ خصوصاً القبائل ـ أو كان بطيئاً

ـ وأحياناً ضعيفاً ـ عند البعض الآخر، فتفسيره يكمن في التجربة الشخصية ومدى الاستعداد الذاتي للتفاعل مع المبادىء الجديدة التي تتطلب نمطاً متقدماً، في الوعي والالتزام، بعض الشيء.

في غنائم حنين أيضاً نتوقف عند سبايا هوازن، حيث قدّر عددها ـ كما أسلفنا– ستة آلاف من الذراري والنساء وهو أكبر رقم حصل عليه الرسول(ص) في أعماله الحربية كافة، ولقد تريّث الرسول(ص) في البدء، وأجّل التوزيع إلى وقت متأخر حيث كان ينتظر قدوم المعنيين لمعالجة القضية بطريقة أخرى.

يذكر ابن هشام[1] حضور وفد من هوازن إلى الرسول(ص)، وهو بالجعرانة يفاوضه في السبي ما يمكن تلخيصه بالآتي:

يبدأ الوفد، الذي ضم عماً للنبي(ص) في الرضاعة، بتذكير الرسول(ص) طفولته حيث قضى شطراً منها بين أفراد تلك القبيلة يتغذى وينمو، ما يعني أن في الحظائر ".. عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك..[2]" على حد تعبير الناطق باسم الوفد، فخيّر الرسول(ص) القوم بين الأموال والذراري، ولما اختاروا الثانية، أعلن لهم أن ما كان له ولبني عبد المطلب فهو لهم، وتوالى على ذلك المهاجرون ثم الأنصار، ثم توقف الأمر عند قادة القبائل عيينة بن حصن (فزارة) والأقرع بن حابس (تميم) واختلف بنو سليم مع زعيمهم الذي رفض إعادة السبي مؤكدين "بلى، ما كان لنا فهو لرسول الله". وتنتهي الأمور بإعادة الذراري إلى أهلها بعد وعد قطعه

(١) ابن هشام: السيرة ج٥ ص١٦٢ و١٦٣. الواقدي: المغازي ج٣ ص٩٥١ و٩٥٢.

(٢) بيضون، إبراهيم: الحجاز والدولة الإسلامية ص١٣٣.

الرسول(ص) للقبائل "أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض[1]، من أول سبي أصيبه".

للمرة الأولى ينتهي الصراع مع القبائل إلى مثل هذه النتيجة، حيث تتم إعادة الأسرى إلى أهاليهم دون مقابل بل بسحبها من أيدي مستحقيها أيضاً، مع كفالة من الرسول(ص) بالتعويض.

لا شك بأن معركة حنين شكلت مع الطائف[2] ذروة الصراع القبلي الإسلامي حيث تستقر "آخر القلاع الوثنية المتزمتة في الحجاز.[3]"

ومن المفترض أن يدخل هذا الصراع في الحلقة الأخيرة، خصوصاً فيما يتعلق بالمنطقة الحجازية، ما يعني تحديد مستقبل العلاقة مع المهزومين خصوصاً والمراقبين من القبائل عموماً، فضلاً عن تحديد الدور لهم في المشروع الذي يحمله الرسول(ص) في شبه جزيرة العرب على الأقل. وكانت المرونة الفائقة التي عرضها الرسول(ص) أمام الوفد الهوازني تشير إلى ذلك كله على الأرجح.

ليس بمقدورنا العثور على موقف أكثر وضوحاً يكون فيه الرسول(ص) مخيراً بين أمرين: أحدهما يتضمن مصالحه الاقتصادية بطريقة مشروعة – في حجم غنائم حنين – والآخر: أهدافه الرسالية البحتة على المدى البعيد، فيختار أهدافه كموقفه في الجعرانة هذا.

---

(١) فرائض: ما فرض في السائمة من الصدقة.... الإبل والبقر، ابن منظور: لسان العرب م(٥) ص٣٣٨٧.

(٢) المرجع نفسه، ص٥٠.

(٣) وات، مونتغمري: محمد في المدينة ص١٥٦.

وفي هذا السياق أيضاً، نفهم عزوف الرسول(ص) عن مواصلة حصاره للطائف. صحيح أن الأمر صعب، وبدأ سقوط المسلمين دون إحراز أي نتيجة فعلية، لكن من الصعب الاعتقاد بأن إيقاف الحصار يعود إلى عوامل عسكرية بحتة. فقد كان بإمكان المسلمين الاستمرار بالحد الأدنى من الحصار دون نقص في الاستعدادات وهي مميزة في تلك الأثناء. وتمكن زعيم ثقيف من تطبيق ذلك بعد إسلامه دون مساعدة، ولا نعرف فيما إذا كانت حصون الطائف أشد منعة من حصون خيبر؟ مع التمايز في القوة الإسلامية الجديدة.

إن المرونة التي أبداها الرسول(ص) مع أهل الطائف تندرج في سياق المراهنة على الزمن، حيث المحيط الإسلامي يضغط بقوة على هذه الواحة التي تقطعت أوصالها مع الخارج، وأمامها الخيار الأفضل، ولكن يلزمها بعض الوقت للنظر بعيداً.

وكان دعاء الرسول(ص) بهداية أهل الطائف في منصرفه عنهم خليقٌ بأصحاب الرسالات العامة، حيث ينعدم تأثير الذكريات الصعبة في هذه الحاضرة قبل الهجرة – على قساوتها – على الموقف بشكل مطلق.

وانتهى أهل الطائف إلى ما يبدو أن الرسول(ص) كان ينتظره ويتوقعه. ونستوحي من المفاوضات التي جرت بعد أقل من عام على المواجهة السابقة أن العنصر الديني كان أشد الأمور ثباتاً في موقف الرسول(ص)، فلم يتنازل عن أبسط الأمور المرتبطة بالتقاليد الوثنية[1] في ذلك الحين ، وإذ بدا لنا أولاً أن حرصاً شديداً على هذه الطقوس والرموز في موقف الثقفيين، فقد

---

(١) ابن هشام: السيرة ج٥ ص٢٢٥.

أثارنا الانهيار السريع لهذا الحرص أمام تصلّب الرسول(ص) حتى زواله تماماً[1]، الأمر الذي يدل على هشاشة تأثير العامل الديني في صراع القبائل.

سرية بني جذيمة

في سياق الأعمال التي وجهها الرسول(ص) خلال وجوده في مكة إبان الفتح كانت غزوة بني جذيمة التي نقلها الواقدي[2] ونوجزها بما يأتي:

بعث الرسول(ص) صاحبه خالد بن الوليد إلى بني جذيمة يدعوهم إلى الإسلام دون استخدام القوة، وأرسل معه ثلاثمئة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار وجمعاً من بني سليم، ولما وصل إليهم أعلنوا: أنهم مسلمون، وقد أقاموا الصلاة، وصدّقوا محمداً، وبنوا المساجد يؤذنون بها.

في هذه الأثناء، حذّر أحد أعضاء القبيلة قومه من مغبة أخذهم بالأحقاد القديمة التي كانت بينهم وبين بني سليم على وجه الخصوص، ولمّا كان بنو جذيمة أصرّوا على تمسكهم بالسلاح، فقد رفض قائد السرية منهم ذلك وطلب التخلي عن سلاحهم، ثم أمر بهم – بعد تجاوبهم – في الأسر، وباتوا في وثاق لا يفك عنهم إلا أثناء الصلاة، ولمّا جاء السحر، وبعد غموضٍ في مصير المأسورين، نادى خالد بن الوليد بالإجهاز على الأسرى، فاستجاب بنو سليم للنداء فيما امتنع المهاجرون والأنصار عن ذلك وأرسلوا أساراهم.

تنفرد غزوة بني جذيمة بالنهاية التي آلت إليها أمورها، حيث لم تنقل

---

(١) ابن هشام، المصدر السابق.

(٢) الواقدي: المغازي، ج٣، ص ٨٧٥ و٨٧٦ لغاية ٨٨٢

المصادر عملاً مشابهاً في نهايته لها من مجمل الأعمال الحربية للرسول(ص). ولا شك أن الظروف الجديدة للدعوة الإسلامية خلال مرحلة فتح مكة سمحت بوجود أحداث من هذا النوع، حيث طغى على بعضها شيءٌ من الغموض كانت هذه السرية أنموذجاً له.

يورد ابن إسحق هذه السرية، ويحدّد إتجاهها الأساسي على الشكل الآتي "وأمره [أي أمر الرسول(ص) خالداً] أن يسير بأسفل تهامة داعياً، ولم يبعثه مقاتلاً، فوطىء بني جذيمة فأصاب منهم"[1] وهو أمرٌ يتوافق مع ما نقله الواقدي كما أسلفنا.

لماذا تجاوز هذا الصحابي الهدف المرسوم لسريته؟

ينقل الواقدي حواراً جرى بين خالد بن الوليد، وعبد الرحمن بن عوف يتهم فيه الثاني الأول بأنه قام بذلك للثأر من عمه "أخذت بأمر الجاهلية قتلتهم بعمك الفاكه".[2]

ورد خالد على بعض أسئلة ابن عوف قائلاً: "جاءَني رسول الله (ص) أن أغير عليهم، فأغرت بأمر النبي"[3] وفي مكان آخر يورد الواقدي بأن عداوةً كانت بين بني جذيمة وبني سليم شجعت على ما حصل.

"وكانت بنو جذيمة قد أصابوهم [أي أصابوا بني سليم] ببرزة وهم موتورون يريدون القود منهم".[4]

---

(١) ابن هشام، السيرة، ج٥، ص ٩٤.

(٢) الواقدي، ج٣، ص ٨٨٠

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه، ص ٨٧٨.

وإذا تأملنا، قول الرسول(ص) بعد بلوغه خبر بني جذيمة "ما أمرت خالداً بالقتل، إنما أمرته بالدعاء"[1] فضلاً عن الإجراءات التعويضية التي قام بها تجاه هذه القبيلة، أمكننا فهم الموضوع على الشكل الآتي: لدى وصول خالد إلى بني جذيمة لاحظ تمسك هؤلاء بسلاحهم، ولما كان له ثأرٌ فيهم فقد اعتَبَر ذلك بمثابة إعلان بالمواجهة، ولم يلتفت إلى تصريحهم أو بناء المساجد فيهم، وإذا صحت الرواية بأنه تبلغ بقيادة السرية بصورة غير مباشرة، من قبل الرسول(ص)، فلقد ساعده ذلك على فهم الهدف على طريقته، أما بنو سليم فاعتبروا الفرصة مفتوحة أمامهم لترتيب الحساب مع خصومهم السابقين، أو في أحسن الأحوال قاموا بتنفيذ الأوامر السهلة لقائدهم على الطريقة التي يرونها من دون الاهتمام بالمحاذير الدينية التي كانوا حديثي العهد بها وبتفصيلاتها.

ورأى المهاجرون والأنصار حقيقة الموقف بمستوى عالٍ من الوضوح، ربما تجاوزوا بذلك قدرة قائدهم على تحديد الموقف المناسب، ذلك أن الأخير لم يسبق بني سليم كثيراً في الدخول إلى الإسلام ودراية أحكامه ومحاذيره.

المشهد الأخير من هذه السرية تمثل بتكليف الرسول(ص) علياً(ع) بتصحيح الموقف والتعويض على بني جذيمة الذين فقدوا "قريباً من ثلاثين رجلاً"[2] طالباً منه وضع أمر الجاهلية تحت قدميه، فأدّى لهم حقوقهم وزاد فيها تحوطاً بما لا يعلم من الأذى، بعد ذلك أسدل الستار على هذه

(١) الواقدي، ج٣، ص ٨٨٢.

(٢) الواقدي، ج٣، ص ٨٨٤.

الأحداث، ولم يكن بعد ذلك ثمة موقف للرسول(ص) يشير إلى تدني ثقته بقائده المخطىء، وقد أرسله في وقت لاحق إلى اليمن ودومة الجندل كما يذكر الواقدي أن الرسول(ص) منع التشهير بخالد وأن الأخير "سيف من سيوف الإسلام سلَّه على المشركين".[1]

لسنا في صدد التشكيك في خطأ خالد بن الوليد، فقد رأينا ما يبعث على الركون إلى ذلك بشكل واضح، ولكن تبقى مهمة الباحث ليس في تصديق الرواية أو تكذيبها فقط، بل أيضاً في مستوى فهمها ووعيها، وهو أمرٌ تدعونا إليه بعض التساؤلات حول الجوانب الغامضة في هذه السرية.

فإذا كانت مهمة هذه السرية الاقتصار على دعوة القوم للإسلام من دون قتال، فلماذا هذا العدد الذي ضمته السرية حيث قدِّر بثلاثمئة رجل؟ وهل بالإمكان اعتبار حمل بني جذيمة السلاح يقتصر على الخوف من المهاجمين في أن يأخذوا بثأرهم قبل الإسلام؟

وإذا كان إعتناق القبيلة الإسلام جاء قبل هذه السرية وأن المساجد قد عمرت سابقاً، وارتفع فيها آذان المسلمين فما هي مهمة السرية إذن؟ وهل كان كل ذلك بعلم الرسول(ص) أو دون علمه؟

إن غموض هذه الأمور ربما سمح لنا بالإفتراض الآتي: لقد أظهر بنو جذيمة بعض الإشارات (بصورة إرادية أو غير إرادية) ساعدت على بعض التشكيك بصدقية إسلامهم، في وقت كانت فيه ميول قائد السرية، ومعه بنو سليم، حريصةً على استغلال ذلك إلى أقصى الحدود حيث يتناغم ذلك مع طريقتهم وهواجسهم السابقة على الإسلام.

---

(١) الواقدي: المصدر السابق ص٨٨٣

سرية عيينة بن حصن إلى بني تميم

تنقل المصادر[1] تفصيلات هذه السرية التي حدثت في شهر محرَّم من السنة التاسعة بما يمكن إجماله على الشكل الآتي:

حضر إلى بني تميم المندوب الذي عينه الرسول(ص) لأخذ الصدقات منهم، ولما عرفوا مطلبه استنكروا عليه، وحملوا السلاح مهددين بعدم السماح في أخذ أي شيء لديهم، ووصلت هذه الأخبار الرسول(ص) الذي وجَّه إليهم عيينة بن حصن الفزاري في خمسين فارساً من العرب ليس فيهم مهاجرٌ واحد ولا أنصاري، فخرج في أثرهم حتى وجدهم قد عدلوا السقيا[2] يؤمُّون أرض بني سليم في الصحراء فانقضَّ عليهم وتمكن من أسر أحد عشر رجلاً، ومثل هذا العدد من النساء مع ثلاثين صبياً عاد بهم إلى المدينة حيث أمر الرسول(ص) بحبسهم.

تلى ذلك قدوم وفد من بني تميم ضمَّ عشرة من رؤسائهم إلى الرسول(ص) يفاوضونه في إطلاق الأسرى، وبعد فترة وجيزة من وصولهم رد الرسول(ص) عليهم سبيهم وأسراهم، وأجاز الوفدَ هدايا شملت الجميع.

تأتي هذه السرية في سياق توجيه المندوبين إلى القبائل لجمع الصدقات ومنهم بني تميم. وشهدنا موقفاً لهذه القبيلة في موضوع رد سبي هوازن اعترضت فيه على دعوة الرسول(ص)، وها هي اليوم تظهر تمسكها بأموالها بأقل من إرتباطها الحيوي بالدين الجديد، معبرةً بذلك عن تأخرٍ في

---

(١) الواقدي، ج٣، ص ٩٧٤ و٩٧٥ و٩٧٦ و٩٧٩. ابن سعد، غزوات، ص ١٦٠ ـ ١٦١.

(٢) السقيا:"قرية جامعة من عمل الفُرع بينهما مما يلي الجحفة تسعة عشر ميلاً"، الحموي،ياقوت:م.البلدان ج٣ص ٢٢٨.

وعي المرحلة الجديدة، وما تقتضيها من إلتزامات جدية.(١)

وهكذا تكون سرية عيينة إليها نوعاً من سياسة الضبط لثنيها عن الاستغراق في همومها ومصلحتها الذاتية، وإيقاظ الوعي لديها في معنى الانخراط الحقيقي في الإسلام.

لم يرد في الأخبار ما يشير إلى وقوع قتلى بين الفريقين، وهو أمرٌ يدل على عناية الرسول(ص) ودقته في تحقيق أهدافه دون الدخول في مشكلات أخرى تعقد الأمور أكثر مع هذه القبائل التي أعلنت – ولو بالاسم – انتماءها للإسلام.

اللافت للنظر أن المشاركين في السرية، وقائدهم بالتحديد، لم يكونوا بعيدين عن التمنُّع الذي وقعت به بنو تميم، فقد كان عيينة بن حصن أنموذجاً فعلياً عن ذلك سواء في قضية رد سبي هوازن، كما رأينا، أم في تاريخه الحافل في إيذاء المسلمين وحربهم.

وإذا كان لنا أن نتأمل قليلاً، في عدم مشاركة أحد من المهاجرين والأنصار في هذه السرية، فإن من المحتمل أن يكون الرسول(ص) قد أراد من هذه القبائل التأثير، بعضها في البعض الآخر، فالذين ذهبوا لثني بني تميم عن موقفهم من "العرب" كانوا في المستوى نفسه، وهم يدركون حقيقة ما

---

(١) يحلل صاحب كتاب الدولة في عهد الرسول(ص) موقف بني تميم على الشكل الآتي: "وظاهر أن إسلامهم كان إسمياً وسطحياً، ومع أن الرسول(ص)(ص) أرسل إليهم من يعلمهم الإسلام، ويقرؤهم القرآن إلا أن كثرة عددهم وتفرق منازلهم لم تيسر تبديل أساليب البداوة التي تعودوها، وظلوا حتى بعد استقرارهم في الكوفة والبصرة يتميزون بالروح البدوية ويوصفون بأنهم "أعراب" وبهذا احتفظوا بأوضاعهم ونظمهم". العلي، صالح أحمد: الدولة في عهد الرسول(ص)، م٢، ص ٥٢٠.

أراد بنو تميم، وعليه يغدو الإجراء مفيداً من ناحيتين: الأولى ظاهرة كما يبدو من الرواية، والأخرى خافية، حيث اعتمد الرسول(ص) توجيه القبائل بالقبائل المماثلة.

يشير التأجيل – إذا جاز التعبير – الذي مارسه الرسول(ص) في الموقف مع الوفد الذي ضم كبار الرجال من القبيلة على نيته في إسماع هؤلاء المزيد من الأخبار عن الدعوة الإسلامية وإنجازاتها وبالطريقة العربية التي يتقنها أعضاء الوفد، ولعل ذلك ما أراده الرسول(ص) من كلام الخطيب ثابت بن قيس والشاعر حسان بن ثابت حيث تشير الرواية[١] إلى تعديل الوفد موقفهم بعد إستماعهم إلى الرجلين.

من غير الإحاطة الموضوعية بهذه السرية إطلاق الخلفية المالية على أعمالها، فليست القضية مرتبطة بالجانب المادي، كما يمكن أن تُفهم المجريات، فقد كانت الصدقات المطلوبة قليلة نسبياً بما يمكن أن يتوقعه المراقب "وكان رسول الله(ص) أمر مصدقيه أن يأخذوا العفو منهم ويتوقوا كرائم أموالهم"[٢] ما يشير إلى نوع من الارتباط المعنوي أكثر من المادي، ولا ترجِّح الأخبار التي سبقت هذه السرية في حنين حاجة فعلية للمسلمين، حيث حصل هؤلاء على مجموعات ضخمة من الغنائم في الأخيرة لم ينالوا مثيلاً لها في كل الفترة التي سبقت.

في كل الأحوال، كان إكرام الرسول(ص) الوفد بالطريقة التي تمَّ فيها، حيث شمل الاهتمام الجميع حتى الغلام الذي "لا شرف له" مع عدم الإتيان

---

(١) الواقدي، ص ٩٧٦ و٩٧٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٧٤.

بذكر على قضية الصدقات أو إفتداء الأسرى والسبي، كل ذلك يشير إلى الخلفية المعنوية لهذه السرية القائمة على قاعدة وجوب الانتماء الفعلي للإسلام.

أخيراً، قدَّمت سرية عيينة بن حصن هذه أنموذجاً إضافياً على سياسة الاحتواء التي ما انفك الرسول(ص) يعتمدها مع القبائل وخصوصاً مع قائد سريته هذه، فقد ذكرنا سابقاً أثناء الحديث عن غزوة الغابة مشاهد عديدة لهذا الرجل مع المسلمين، ولن يكون موقفه في رد سبي هوازن آخر التعابير عن عدم إنخراطه الجدي بالإسلام،لكن على الرغم من ذلك لايزال الرسول(ص) يتعاطى مع شأنه بالكثير من المرونة والتجاوز، ربما لخبرته بالطبيعة البدوية وتقلباتها وحرصه على مواكبة تطوُّرها حتى تستقر فيما يسعى إليه.

سرية الضحاك بن سفيان إلى بني كلاب

ينقل الواقدي[1] أحداث هذه السرية في شهر ربيع الأول من السنة التاسعة للهجرة، نوجزها بما يأتي:

كتب الرسول(ص) إلى أهل القرطاء[2] وزعيمهم حارثة بن عمرو ابن قريط يدعوهم إلى الإسلام، فأخذوا الرسالة، واستخفوا بها رافضين التجاوب، الأمر الذي دفع الرسول(ص) إلى توجيه الضحاك بن سفيان الكلابي إلى هؤلاء الذين "أذهَبَ الله بعقولهم؟ منهم أهل رعد، وعجلة

---

(١) الواقدي، ج٣، ص ٩٨٢ ـ ٩٨٣.

(٢) القرطاء: "بطن من بني بكر بن كلاب كانوا ينزلون البكرات بناحية ضرية وبين ضرية والمدينة سبع ليال"، ابن سعد، غزوات، ص ٧٨.

وكلامٍ مختلط وأهل سفه"[1] وفقاً للرواية التاريخية التقى الطرفان بمكان يدعى زج لاوة[2] وتكررت الدعوة إلى الإسلام دون تجاوب أيضاً، وجرت مواجهة بينهما وهزم أهل القرطاء .

من الطبيعي في هذه المرحلة المتقدِّمة من نمو وانتشار القوة الإسلامية في المنطقة أن يكون إعتناق الإسلام – الهدف الأخير لكل الأعمال الحربية للرسول(ص) – شرطاً أساسياً في استقرار الأمور في كل ناحية من نواحي الحجاز ويستوقفنا في هذه السرية إرسال الكتاب إلى الزعيم القرطي، وهو أمر جرت العادة فيه أن يكون مع الملوك وكبار الزعماء في شبه الجزيرة العربية في ذلك الحين، حيث الطريقة أقرب إلى مكانتهم، لكن لا يبدو أن الزعيم الأخير كان في عداد هؤلاء، والأرجح أن اعتماد وسيلة الكتاب كانت نوعاً من تطوّر الطريقة في الدعوة إلى الإسلام شكلاً ومضموناً، لكن المثير في هذا المجال أن أهل القرطاء ردُّوا بموقف استفزازي أشار إلى ابتعادهم عن الواقع وتطوراته الجديدة. فقد تسلّموا الرسالة و"غسلوها ورقعوا بها إست دلوهم"[3] كما تشير الرواية.

وإذا كانت هذه القبيلة على تأخر ملحوظ في استقراء الأحداث، وفهم الأمور حيث وصفت بـ"أهل سفه" كما أشرنا، فإن ذلك يلقي بعض الضوء على سبب امتناعها من الدخول في الدين الجديد، الاتجاه السائد في ذلك الحين.

---

(١) الواقدي: المصدر السابق، ص ٩٨٣.

(٢) زج لاوة: "موضع نجدي بناحية ضرية". الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج٣، ص ١٣٣.

(٣) الواقدي، ص ٩٨٢.

لم تذكر الرواية المآل التي وصلت إليه الأمور بين الطرفين في موضوع الدعوة، وهل كانت الهزيمة لأهل القرطاء نهاية العلاقة بين الطرفين، وهو ما يمكن استبعاده في تلك الفترة حيث الاتجاه كما ألمحنا، ولعلّ عدم ورود معلومات عن أي غنائم ـ وهو أمرٌ نادرٌ في نتائج الأعمال الحربية الناجحة ـ يعطي بعض الاحتمال بأن أهل القرطاء انتهوا إلى صيغة ما في هذا الاتجاه مع المسلمين، خصوصاً إذا ما توقفنا عند تعبير "جيشاً إلى القرطاء"[١] في مجال الحديث عن حجم السرية التي أرسلت إلى هذه القبيلة.

لا تشير المصادر إلى علاقة بين هذه السرية وسرية محمد بن مسلمة السابقة إلى القرطاء مع نهاية السنة السادسة للهجرة وإلى بني كلاب أيضاً، وكما رأينا لم تصل السرية تلك إلى نتائج عملية في نشر الإسلام، بل اكتفت بالحصول على الغنائم، بل لم تذكر الرواية سعياً في هذا الاتجاه، لكننا في سرية الضحاك نجد موضوع الدعوة إلى الإسلام يتصدّر اهتمام السرية، ويكون في مقدّمة اللقاء بين الطرفين.

ربما أمكن الربط بين السريتين واعتبار الثانية متكاملة مع الأولى، خصوصاً إذا ما توقفنا عند الخلاف الحاد بين أحد المسلمين وأبيه الذي ينتمي إلى القبيلة المعادية، وإصرار الأخير على عدم إعتناق الإسلام.

سرية علي بن أبي طالب(ع) إلى الفلس

يضع الواقدي[٢] هذه السرية، في شهر ربيع الثاني من السنة التاسعة، وهذا موجز روايته:

---

(١) الواقدي، المصدر السابق.

(٢) الواقدي، ج٣، ص ٩٨٤ و٩٨٧.

بعث الرسول(ص) علياً(ع) في مئة وخمسين من الأنصار على مئة بعير وخمسين فرساً إلى محلة آل حاتم، فنزلوا بها مع الفجر، حيث هدموا الفلس وهو صنم من أصنام أهل الناحية، وخرَّبوه وسبوا حتى ملأوا أيديهم من السبي والنعم والشاة، وقد آمن بالإسلام قسمٌ من الأسرى فتم تركه فيما ضربت أعناق الذين أبوا الإسلام.

تعتبر هذه السرية في سياق الأعمال الحربية التي سعى فيها الرسول(ص) لإزالة كلّ معلمٍ من معالم الوثنية في المنطقة، وهو أمرٌ حرص عليه في أكثر من مناسبة (هدم العزى أثناء فتح مكة، عدم التهاون في أصنام الطائف..) حيث لم يكن وارداً التعايش مع هذه المعالم على الإطلاق.

وإن تسمية السرية "بسرية الفلس"[1] أو تحديد هدفها الأساسي "إلى الفلس، صنم طيء ليهدمه"[2] يظهر هذا المستوى من رفض الأصنام حيث تنشغل مجموعة من مئة وخمسين رجلاً من خيار المسلمين في هذه المهمة الدقيقة.

والوثنية بشكل عام، كانت مرفوضة جملةً وتفصيلاً. قد يكون ممكناً التعايش مع كثيرٍ من معالم النصرانية وحتى اليهودية أو حتى المنتمين إليهما – وقد رأينا بعضَ ذلك – لكن لم يرد إقرارٌ للرسول(ص) بذلك مع الوثنية وهو قادرٌ على إلغائه أو إنهائه.

نتوقف قليلاً عند مقتل الذين أبوا الإسلام من الأسرى، حيث نكتشف تطوُّراً جديداً في التعامل مع الوثنيين، لم يسبق لنا مواجهته بهذه الطريقة،

---

(١) الواقدي، المصدر نفسه، ص ٩٨٤.

(٢) ابن سعد، غزوات، ص ١٦٤.

ولم تحدد الرواية عدد هؤلاء الذين نفذ فيهم حكم القتل، وتكتفي في مكان آخر أنه تم "عزل آل حاتم فلم يقسمهم حتى قدم بهم المدينة"[١] ويبدو أن المعزولين كانوا من غير حملة السلاح أو الأسرىن حيث جاء ذكرهم في سياق الحديث عن السبي الذي كانت فيه أخت عدي بن حاتم.[٢]

وإذا كان هذا الإجراء – الجديد بذاته وطريقته – يعود إلى مستوى الشدة التي كان يتعاطى من خلالها الرسول(ص) مع أهل الوثنية، في الخطوة الأخيرة، فإن ذلك أيضاً يشير إلى مرحلة جديدة من نمو القوة على تطبيق هذا الإجراء أيضاً.

ونعني بالخطوة الأخيرة، آخر الأمل والعهد بتلك الجماعات.

أخيراً، ليس لدينا ما يشير إلى خلفية إقتصار السرية على الأنصار، وهل كان ذلك بمثابة الإفساح في المجال أمامهم للحصول على الغنائم المتوقعة حيث حُرموا من ذلك في غزوة حنين، أم هي بدء في العلاقة بين الاثنين (القائد وأفراد السرية) نَسَجت خيوطها المواقف المشهودة لكليهما في الإسلام، وعززت أواصرها الثقة المتبادلة بينهما البعيدة عن الفرز والتصنيف أم إنها صدفة الأحداث وتبادل الأدوار.

ليس لدينا في حدود هذا الموضوع ما يؤكد شيئاً من ذلك.

---

(١) الواقدي، ص ٩٨٨.

(٢) الواقدي: المصدر نفسه.

استنتاجات عامة

ربما كانت سرية علي(ع) إلى الفلس، آخر الأحداث البارزة للقوة الإسلامية في هذه الناحية خلال حياة الرسول(ص).

ولقد بلغت الأعمال الحربية التي وجهت إلى هذه المنطقة رقماً قياسياً بالنسبة إلى المحاور والجهات الأخرى كافة، ما يمكن تقديره بثلث إجمالي الغزوات ونصف السرايا تقريباً.

(ثماني غزوات من أصل ٢٧ غزوة، وثلاثة وعشرون سرية من أصل خمسين تقريباً) وباستثناء غزوة حنين والطائف، فإن إنجازاً نوعياً لم يتحقق في هذه المنطقة، وظلت الأوضاع الأمنية – والدينية دوماً – مرتبطة إلى حدٍّ كبير بحجم القوة الإسلامية في تلك الأنحاء.

لذلك، فسرية عيينة إلى بني تميم كانت أنموذجاً في خلفية إرتباط هذه القبيلة بالإسلام سواءً في الاختبار المالي الذي سقطت دونه، أم بالطريقة التي عادت فيها القبيلة إلى الارتباط مجدداً بالمسلمين.

كذلك، فإن مواقف أشراف القبائل الغطفانية وبني سليم يوم الجعرانة في قضية رد سبي هوازن، ما تزال تنذر بالسلبية عند أول إختبارٍ جديد من هذا النوع، ولم يظهر ما يشير إلى تطوُّر إيجابي في هذا المجال، فلقد كان الانصياع المستغرب لبني سليم في سريّة بني جذيمة أمام أوامر قائد السرية يستبعد مثل ذلك.

بالإضافة إلى ما تقدَّم، فإن الخطر البدوي – إذا جاز التعبير – لـم ينتـه بعد، بالرغم من هذا الحجم القياسي للأعمال الحربية، وما حدث في الرجيع وبئر معونة مرشحٌ للتكرار إذا ما حدثت مناسبة في هذا المجال.

أخيراً، دلت إنجازات الرسول(ص) المحدودة في هذه الناحية ـ مع كل الجهود والأوقات التي صرفها فيها ـ أنها كانت تضم غالبيـة القبائـل البعيـدة عن الاستقرار فضـلاً عـن تـدني المسـتوى الحضـاري فيهـا، وربمـا وجـد الرسول(ص) نفسه مضطراً للتعامل معهـا مـن موقـع الـدفاع حينـاً وبهـدف التطويع حيناً آخر، ولكن لم يظهر لنا أنه كان يرى فيها مجالاً حيويـاً لدولتـه أو دعوته في تلك المرحلة.

الغزوات والسرايا ضد القبائل*

- الجهة الشرقية -

		الزمان	المكان	الأسباب أو الغايات	عدد المشاركين	النتيجة
بين بدر وأحد	١- غزوة قرقرة الكدر	١٥ محرم على رأس ثلاثة وعشرين شهراً	قرقرة الكدر بناحية معدن بني سليم	بلغ الرسول أن بهذا الموضع جمعاً من سليم وغطفان	٢٠٠ رجل	فلم يجد في المجال أحداً وكانت النعم خمسماية بعير
	٢- غزوة غطفان	١٢ ربيع الأول على رأس خمسة وعشرين شهراً	نجد، ذو أمر	أن جمعاً من بني ثعلبة ومحارب قد تجمعوا يريدون أن يصيبوا من أطراف رسول الله	٤٥٠ رجل	لم يلاق الرسول أحداً إلا أنه ينظر إليهم في رؤوس الجبال
	٣- غزوة بني سليم	٦ جمادى الأولى على رأس سبعة وعشرين شهراً	"بحران" بناحية الفرع	بلغ الرسول أن جمعاً من بني سليم كثيراً	٣٠٠ رجل	تفرقوا في مياههم ولم يلق كيداً
بين أحد والأحزاب	٤- سرية أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي	هلال محرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً	"قطن" جبل بناحية فيد	بلغ رسول الله أن طليحة وسلمة ابني خويلد قد سارا في قومهما ومن أطاعهما يدعوانهم إلى حربه	١٥٠ رجلاً من المهاجرين والأنصار	أصابوا إبلاً وشاءً ولم يلقوا أحداً
	٥- سرية عبد الله بن أنيس	صفر على رأس خمسة وثلاثين شهراً	عُرَنة	أن سفيان بن خالد الهذلي قد جمع الجموع لرسول الله	منفرداً	مقتل سفيان بن خالد
	٦- سرية المنذر بن عمرو	صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً	بئر معونة	دعوة بني عامر للإسلام وتعليمهم القرآن وشرائع الإسلام	٧٠ رجلاً من الأنصار	مقتل أعضاء السرية على يد قبائل من سليم باستثناء واحد
	٧- سرية مرثد بن أبي مرثد	صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً	الرجيع	تعليم قبائل عضل والقارة قراءة القرآن وشرائع الإسلام	١٠ رجال	مقتل أعضاء السرية بالتعاون مع المكيين
	٨- غزوة ذات الرقاع	١٠ محرم على رأس سبعة وأربعين شهراً	ذات الرقاع	أن أنماراً وثعلبة قد جمعوا الجموع للمسلمين	٤٠٠ ويقال ٧٠٠	لم يجد في محالهم أحد وقد هربوا إلى رؤوس الجبال
بين الأحزاب والحديبية	٩- سرية محمد بن مسلمة إلى القرطاء	١٠ محرم على رأس تسعة وخمسين شهراً	القرطاء	شن الغارة على بني بكر بن كلاب	٣٠ رجلاً	أغار على بطن من بني بكر بن كلاب فقتل نفراً منهم واستاق نعماً وشاءً
	١٠- غزوة بني لحيان	ربيع الأول سنة ست للهجرة	ناحية عسفان	وجد رسول الله على عاصم بن ثابت وجداً شديداً (المغدورون يوم الرجيع)	٢٠٠ رجلاً	هرب بنو لحيان في رؤوس الجبال ثم خرج بعضهم حتى أتوا عسفان لتسمع بهم قريش ثم رجعوا من دون مواجهة
	١١- غزوة الغابة	ربيع الأول سنة ست للهجرة	الغابة	أغار عيينة بن حصن على لقائح الرسول في الغابة	٥٠٠ ويقال ٧٠٠	استعادة نصف اللقائح مع مطاردة عيينة وقومه
	١٢- سرية عكاشة بن محصن الأسدي إلى الغمر	ربيع الأول سنة ست للهجرة	الغمر	شن الغارة على فرع من بني أسد	٤٠ رجلاً	هروب القوم (المهاجمين) إلى عليـاء بلادهم وحصول المسلمين على ٢٠٠ بعير
	١٣- سرية محمد بن مسلمة	ربيع الآخر سنة ست	ذي القصة	مواجهة بني ثعلبة وعوال	١٠٠ رجل	مقتل أفراد السرية وجرح قائدها

* إن المعلومات الواردة في الجدول تم اقتباسها من كتاب غزوات الرسول وسراياه لابن سعد بالإضافة إلى كتاب المغازي للواقدي، وقد حاولنا اعتماد العبارة الواردة ما أمكن.

تابع - بين الأحزاب والحديبية	١٤- سرية أبي عبيدة بن الجراح	ربيع الآخر سنة ست	ذي القصة	مواجهة بني محارب وثعلبة الذين أجمعوا للإغارة على المدينة	٤٠ رجلاً	هروب القبائل في الجبال مع حصول المسلمين على غنائم
	١٥- سرية زيد بن حارثة	ربيع الآخر سنة ست	الجموم	متابعة بني سليم	--	أصاب المسلمون نعماً وشاءً وأسرى
	١٦- سرية زيد بن حارثة	جمادى الآخرة سنة ست	الطرف	متابعة بني ثعلبة	١٥ رجلاً	أصاب المسلمون نعماً وشاءً وهربت الأعراب في الجبل
	١٧- سرية كرز بن جابر	شوال سنة ست	عُرينة	غدر مجموعة من عرينة بالمسلمين	٢٠ فارساً	أسر المجموعة وقتلها
بين الحديبية وفتح مكة	١٨- سرية عمر بن الخطاب	شعبان سنة سبع	تربة	متابعة عجُز هوازن	٣٠ رجلاً	لم يلق كيداً
	١٩- سرية أبي بكر الصديق	شوال سنة سبع	نجد	متابعة بني كلاب	--	أسر بعض الذراري
	٢٠- سرية غالب بن عبدالله	رمضان سنة سبع	الميفعة	متابعة بني عوال وبني عبد بن ثعلبة	١٣٠ رجلاً	قتلوا من أشرف لهم واستاقوا نعماً وشاء
	٢١- سرية بشير بن سعد	شوال سنة سبع	الجناب	أن جمعاً من غطفان قد واعدهم عيينة بن حصن ليكون معهم ليزحفوا إلى رسول الله	٣٠٠ رجل	أصاب المسلمون نعماً كثيراً وتفرّق الرعاء
	٢٢- سرية ابن أبي العوجاء	ذي الحجة سنة سبع	بني سليم	متابعة بني سليم	٥٠ رجلاً	مقتل أفراد السرية وإصابة قائدها
	٢٣- سرية غالب بن عبدالله	صفر سنة ثمان	الكديد	متابعة بني الملوّح	بضعة عشر رجلاً	الإغارة على بني الملوح ثم هروب السرية
	٢٤- سرية شجاع بن وهب	ربيع الأول سنة ثمان	السّي	الإغارة على بني عامر	٢٤ رجلاً	أصاب المسلمون نعماً كثيراً وشاءً
	٢٥- سرية أبي قتادة	شعبان سنة ثمان	خضرة	الإغارة على قبيلة غطفانية	١٥ رجلاً	قتلوا من أشرف لهم واستاقوا غنائم وسبي كثير
	٢٦- سرية أبي قتادة	رمضان سنة ثمان	بطن إضم	تمويه الاتجاه لحملة فتح مكة	ثمانية نفر	عادوا إلى الحملة الرئيسية ولم يلحقوا جمعاً
بعد فتح مكة	٢٧- غزوة حنين	٦ شوال سنة ثمان	حنين	لما فتح رسول الله مكة مشت أشراف هوازن وثقيف بعضها إلى بعض وحشدوا وبغوا	١٢٠٠٠ رجلاً	هزيمة هوازن مع أعداد ضخمة جداً من الغنائم والسبي
	٢٨- غزوة الطائف	شوال سنة ثمان	الطائف	متابعة ثقيف إلى حصنهم بعد الهزيمة في حنين	المشاركون في حنين عموماً	مقتل ١٢ مسلماً بعد محاصرة الحصن لمدة ١٨ يوماً ثم الانصراف من دون نتائج حاسمة
	٢٩- سرية بني جذيمة	أثناء فتح مكة	قريب من مكة	دعوة بني جذيمة للإسلام	٣٥٠ رجلاً	مقتل مجموعة من أسرى بني جذيمة أعقب ذلك إصلاحاً للعلاقة وتعويضاً عن المقتولين
	٣٠- سرية عيينة بن حصن الفزاري	محرم سنة تسع	بين السقيا وأرض تميم	إلزام بني تميم في دفع الصدقات	٥٠ فارساً من العرب	أسر أحد عشر رجلاً ومثله من النساء أعقب ذلك حضور وفد من بني تميم لتصحيح الموقف
	٣١- سرية الضحاك بن سفيان الكلابي	ربيع الأول سنة تسع	زج لاوة	الدعوة للإسلام في قبيلة بني كلاب	"جيشاً"	رفض بني كلاب الدعوة وهزيمة السرية
	٣٢- سرية علي بن أبي طالب	ربيع الآخر سنة تسع	محلة آل حاتم	هدم صنم طيء	١٥٠ رجلاً من الأنصار	هدم الفلس مع الحصول على نعم وشاء وسبي

الفصل الرابع

الغزوات والسرايا ضد القبائل

أ ـ الجهة الشمالية

ـ دومة الجندل الأولى: الخطوة الأولى نحو الشمال

ـ دومة الجندل الثانية : نحو نوع من الاستقرار

ـ دومة الجندل الثالثة : تكريس الحضور الإسلامي

ب ـ الجهة الغربية

ـ غزوة المريسيع: مرجعية دولة المدينة

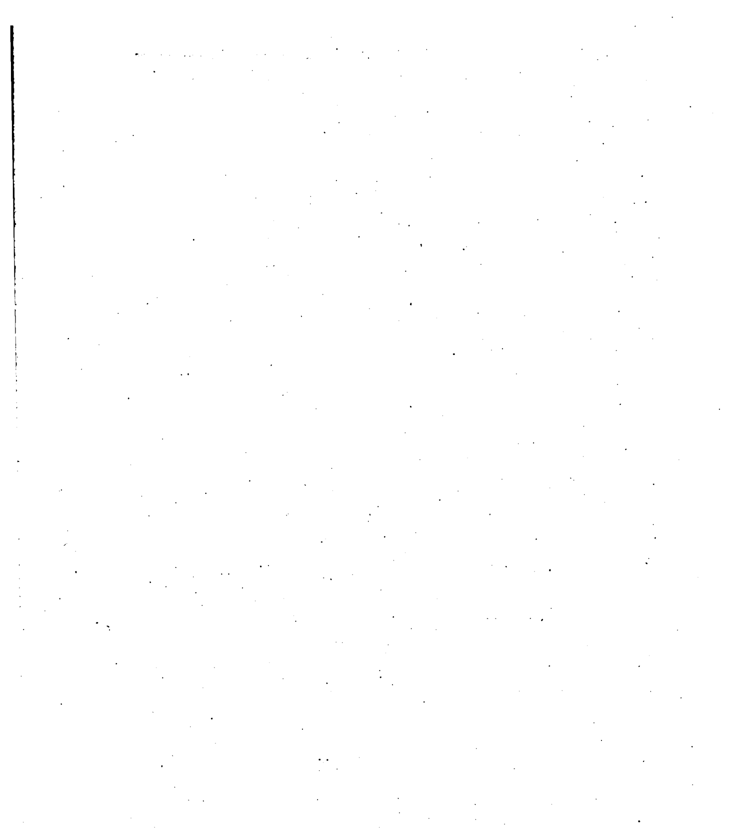
ـ سرية الخيط: الأمن البحري لدولة المدينة

ج ـ الجهة الجنوبية

ـ سرية قطبة بن عامر : الخطوة الأولى نحو الجنوب

ـ سرية خالد بن الوليد : بدء الفتح

ـ سرية علي بن ألي طالب: متابعة الفتح



أ ـ الجهة الشمالية

غزوة دومة الجندل[1]: الخطوة الأولى نحو الشمال

بعد أقل من خمس سنوات[2] من وصوله المدينة، وقبل أن يحسم معركته المركزية مع قريش فضلاً عن المسألة اليهودية في المدينة، وفي أوضاع لا تزال بحاجة إلى المزيد من عناصر القوة والنمو.

أمر الرسول(ص) المسلمين بالاستعداد للتوجّه نحو الشمال، بما عرف حينها بغزوة دومة الجندل، وهذه أبرز المعلومات كما يوردها الواقدي:[3]

أراد الرسول(ص) التقدُّم إلى أدنى الشام حيث نُقل إليه أن دومة الجندل طرف من أطرافه، فلو دنوت منه كان ذلك مما يفزع القيصر بالإضافة إلى ذلك، فقد بلغه أن بدومة الجندل جمعاً كثيراً، وأنهم ينوون الدنو من المدينة. فخرج الرسول(ص) في ألف من المسلمين في ربيع الأول على رأس تسعة وأربعين شهراً، وسار حتى وصل إليهم فأغار على الحاضر منهم، وهرب من هرب في كلٍ وجه، ثم نزل بساحة أهل دومة، فلم يجد بها

---

(١) دومة الجندل: "طرف من أفواه الشام بينها وبين دمشق خمس ليال وبينها وبين المدينة خمس عشرة أو ست عشرة ليلة". ابن سعد – غزوات، ص ٦٢.

"على عشر مراحل من المدينة وعشر من الكوفة وثمان من دمشق واثنتي عشرة من مصر" البكري، معجم ما استعجم المجلد الأول، ج٢، ص ١٨٢.

(٢) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٠٢ و٤٠٣ و٤٠٤.

أحداً حيث هرب الجميع أيضاً بعد سماعهم بقدوم المسلمين.

مما تقدَّم يظهر لنا أمران متوازيان جاءت غزوة دومة الجندل تستهدفهما معاً.

الأمر الأول: تختصره عبارة الواقدي "فلو دنوت منها كان ذلك مما يفزع القيصر"، وهي مقالة من أحد أصحاب الرسول(ص) له، وهو أمرٌ على ما يبدو سياسي بالدرجة الأولى وبأداة عسكرية، فإذا كان المقصود إثارة الخوف لدى القيصر، فإن ذلك يعني فيما يعنيه بدء مرحلة من المواجهة أو المقابلة بين الطرفين، شكلت دومة الجندل، الخطوة الأولى فيها.

الأمر الثاني: وهو مباشرة التأثير في القبائل "بغية فك إرتباطها بدولة البيزنطيين ودعوتها إلى الالتحاق بدولة المدينة"[1] وإذا كانت الجموع في تلك المنطقة، قد شكلت تهديداً على مدينة المسلمين، فقد كان ردُّ الرسول(ص) متجاوزاً مخاطر هذا التهديد إلى السعي في تحويل هذه القبائل نفسها إلى اتجاه جديد في انتمائها السياسي وربما الديني.

لا نستوحي سبباً معقولاً لخلفية اجتماع بعض قبائل الشمال على غزو المدينة والدنو منها، وهل كان ذلك بإشارة من الروم للتأثير في تنامي القوة الإسلامية؟ أم هي مبادرة ذاتية قامت بها تلك القبائل تحسباً للأيام المقبلة؟

أما الحديث عن التماثل بين هذه القبائل وسائر القبائل المجاورة لمكة والمدينة في سعيها الدائم نحو المدينة، ففيه بعض التعميم الذي يحتاج إلى الدقة، ذلك أن وضعاً اقتصادياً يختلف بعض الشيء، كانت تعيشه قبائل

---

(١) بيضون، إبراهيم، تاريخ بلاد الشام، ص ٧٩. راجع: جعيط، هشام: الفتنة ص٣٣.

الشمال بالمقارنة مع القبائل المجاورة لمكة والمدينة إلى الشرق، حيث كانت الأولى – وتحديداً في دومة الجندل – أقرب إلى الاستقرار والتمدُّن، يدلُّ على ذلك وجود "سوق عظيم وتجار"[1] فيها.

لذلك، فإن اعتماد التفسير القائم على تخوُّف هذه القبائل يبدو ممكناً، إذا ما تجنبنا التدخل الرومي لضعف الأدلة بين أيدينا، وربما يدعم هذا التفسير تفرُّق تلك القبائل مع وصول الأخبار إليها عن قدوم المسلمين، الأمر الذي يفسِّر عدم وقوع المواجهة بين الطرفين، وعليه يكون تخوُّف القبائل، الذي ربما كان من أسباب اجتماعها على السير إلى أطراف المدينة، هو نفسه السبب في تفرقها وتجنبها المواجهة، لإمكانية إدراكها حجم الخطورة التي بدأت تشكلها القوة الإسلامية الصاعدة.

لا شك بأن وصول الرسول(ص) إلى هذه المنطقة التي تبعد قرابة سفر أسبوعين عن المدينة وفقاً لابن سعد[2] يحمل الكثير من الدلالات في تلك الأثناء، وجاءت نتائج الحملة بمثابة شق الطريق أمام المسلمين للحملات اللاحقة.

إضافة إلى ذلك، تمكن المسلمون للمرة الأولى من الاقتراب ـ دون خسائر ـ من الجبهة الأشد خطورة، والأغنى موارد[3] في آن واحد، وسوف تنعكس ـ من جهة أخرى ـ آثار هذه الحركة مزيداً من الضغط والحصار

---

(١) الواقدي، المغازي، ج١، ص ٤٠٣. ابن كثير: البداية والنهاية ج٤ ص٩٢.

(٢) ابن سعد، غزوات الرسول(ص)، ص ٦٢.

(٣) يرى المؤرخ العلي أن غزوة دومة الجندل الأولى تشير إلى أن "مسلمي المدينة وتجارهم خاصة، كانوا قد بدأوا ينمون التجارة بين المدينة والشام" العلي، صالح أحمد، الدولة في عهد الرسول(ص)، م١١٢، ص ٢٣٢.

على الجبهة القرشية، حيث بدأ المسلمون يحضرون في المكان الذي تصدر عنه أسباب العيش ومعطيات الاقتصاد المكي.

وإذا كانت هذه الجبهة سوف تتعرض لبعض التجميد في الفترة التالية، ريثما يتم حسم الصراع مع قريش والمسألة اليهودية، فإن انطلاقة جديدة سوف تظهر مع بدء السنة السادسة ويتبلور فيها بصورة أوضح مخطط الرسول(ص) الفعلي في هذه المنطقة الذي بدأ مع هذه الغزوة.

سرية زيد بن حارثة إلى حسمى[1]

بعد قرابة العامين على غزوة دومة الجندل الأولى يوجِّه الرسول(ص) زيد بن حارثة إلى المنطقة الشمالية برفقة خمسمئة رجل من المسلمين، وهذه أبرز الأحداث كما ينقلها الواقدي[2] وابن سعد:[3]

عاد دحية بن خليفة الكلبي موفد النبي إلى قيصر الروم بعد أن سلَّم الأخير رسالة خاصة من النبي. وكان هرقل قد أجاز ضيفه بمال وكساه، وفي طريق العودة لقيه ناسٌ من جذام بحسمى فقطعوا عليه طريقه وأصابوا كلَّ شيء لديه، الأمر الذي دفع النبي، بعد بلوغه الخبر، لتوجيه زيد بن حارثة مع خمسمئة رجل، بينهم دحية، إلى المنطقة نفسها، فقتلوا من اعتدى على دحية وبعضاً ممن كان في المحلة، وحصلوا على غنائم كثيرة فيها ألف بعير

(١) حسمى: "أرض ببادية الشام بينها وبين وادي القرى ليلتان، وأهل تبوك يرون جبل حسمى في غربيهم". الحموي، ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص ٢٥٨.
- "موضع من أرض جذام" البكري، معجم ما استعجم، م١، ص ٨٢

(٢) الواقدي، المغازي، ج٢، ص ٥٥٥ و٥٥٦ و٥٥٨ و ٥٦٠.

(٣) ابن سعد، غزوات، ص ٨٨

وخمسة آلاف شاة ومئة من السبايا، نساءً وصبياناً.

في تلك الفترة كان أحد زعماء جذام زيد بن رفاعة قد حصل على كتاب من الرسول(ص) في خصوص قومه ودعوتهم إلى الله ورسوله، وقد أجابوا إلى ذلك وأسرعوا، ولقد فوجىء النبي بما حدث مع الجذاميين بعد عودة زيد بن رفاعة إليه يشكوه ما أحدثت سرية زيد بن حارثة فيهم، الأمر الذي دفعه - أي الرسول(ص) - إلى استدراك ما فعله أصحابه، فأرسل إليهم لإعادة كل ما في أيديهم من الأموال والحرم، وتم ذلك بالشكل المناسب.

بدءاً، نتوقف عند أسباب هذه السرية التي تقتصر - وفقاً للمصادر - على عملية الاعتداء على موفد الرسول(ص) إلى هرقل، هذا الاعتداء الذي لم يتجاوز سلب الموفد هدايا القيصر، في حين لم تذكر الرواية نية في القتل أو غير ذلك مما يسهم في فهم آخر لردة فعل الرسول(ص). من الممكن - على سبيل الافتراض - أن يكون هذا التصرُّف عفوياً باعتبار استلام بني جذام كتاب من الرسول(ص) يشير إلى تقبل هؤلاء الدعوة إلى الإسلام مبدئياً، وبذلك يكون ما حمله دحية ولبسه من ثياب كان مصدر إغراء للذين اعتدوا عليه، ومن الممكن أيضاً - إذا ما سمحنا لأنفسنا المزيد من الافتراض - أن يكون الاعتداء على دحية عملاً موجهاً إلى القيصر والمسلمين معاً، حيث أن السلب ذاته كان رسالة من القيصر إلى الرسول(ص)، لكنه افتراض لم يرد في المصادر ما يدعمه ويقويه.

في كل الأحوال ليس من السهولة على الرسول(ص) توجيه هذا العدد من المسلمين إلى تلك المنطقة لمجرد رد الفعل لما حدث مع موفده المذكور الذي ينتمي إلى قبيلة كلب، لا سيما إذا توقفنا عند الكتاب الذي

كان بأيدي الجذاميين، حيث من المفترض أن تكون العلاقة سلمية بين الطرفين، ولقد كان إلتزام الرسول(ص) بمضمون الكتاب دليلاً على هذه العلاقة أو في أقل تقدير على النية الطيبة التي كان يحملها لهذه القبيلة التي "سيكون لها تأثير هام في مسار السياسة التي انتهجها الرسول(ص) إزاء القبائل العربية في الشام".[١]

يبقى لدينا أن نفترض بأن الرسول(ص) حاول الاستفادة من حادثة موفده بما يسهم في متابعة سياسته في المنطقة التي بدأها منذ دومة الجندل الأولى بشكل فعلي، وأن هذا الحجم من الاستعداد إن دلّ على شيء فإنه يدل على تصميمه في تحقيق ذلك بالقوة عند عجزه عنه في السياسة والديبلوماسية مع حرص أكيد على اعتماد الطريق الثاني على تكلفته الباهظة أحياناً كما رأينا في إعادة الغنائم لهذه السرية.

سرية زيد بن حارثة إلى وادي القرى[٢]

يذكر الواقدي[٣] هذه السرية في حديثه عن مجمل غزوات وسرايا الرسول(ص)، ولم يفرد لها تفصيلاً، وكذلك ابن سعد[٤]، كما لم نعثر على ذكرها في سيرة ابن هشام. أما الطبري[٥] وابن الأثير[١] فنقلاها في حدود

---

(١) بيضون، ابراهيم، تاريخ بلاد الشام، ص ٨٧

(٢) وادي القرى: "واد بين الشام والمدينة، وهو بين تيماء وخيبر فيه قرى كثيرة وبها سمي وادي القرى، وهو مع الحجر والجناب، منازل قضاعة ثم جهينة وعذرة وبلي". الحموي، ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص ٣٣٨.

(٣) الواقدي، المغازي، ج١، ص ٥.

(٤) ابن سعد، غزوات، ص ٨٩

(٥) الطبري، تاريخ الأمم، ج٢، ص ٦٤٢.

جملة واحدة ضمن أخبار السنة السادسة بهذه الصيغة "سرية زيد بن حارثة إلى وادي القرى في رجب".

وإذا تابعنا أخبار هذه الجهة (وادي القرى) ومع زيد تحديداً، فمن المعقول أن تكون سريتنا هذه في سياق واحد مع سابقتها ولاحقتها، حيث الأولى[2] كانت وراء وادي القرى والثانيّة[3] دونه، ومن الممكن أن تكون موجهة إلى القبائل القاطنة في تلك الناحية، ولما لم يرد في المصادر تفصيلات عن مواجهة أو سقوط أحد من الطرفين فضلاً عن نتائج أخرى، فمن المحتمل أن لا تكون ثمة مواجهةٌ حدثت في هذه السرية.

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٢٠٩.

(٢) ابن سعد، غزوات، ص ٨٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٠.

دومة الجندل الثانية: نحو نوعٍ من الاستقرار

سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل

بعد أقل من عامين على غزوته الأولى إلى دومة الجندل، في ربيع الأول بدء السنة الخامسة وجَّه الرسول(ص) صاحبه عبد الرحمن بن عوف إلى هذه الحاضرة مرة أخرى في شعبان القسم الأخير من السنة السادسة.

لم تنقل المصادر ـ كما في الغزوة الأولى ـ أسباباً كافية لهذه السرية التي بلغ تعداد المشاركين فيها "سبعمئة رجل"[١] وتقتصر على أمر الرسول(ص) لابن عوف "أن يسير من الليل إلى دومة الجندل فيدعوهم إلى الإسلام"[٢] محدداً الخطوط العامة "اغز باسم الله وفي سبيل الله فقاتل من كفر بالله لا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليداً"[٣] وتمضي الرواية حتى وصول المسلمين إلى دومة حيث نجحوا في دعوة "الأصبغ بن عمرو الكلبي وكان نصرانياً وكان رأسهم"[٤] إلى الإسلام كما تزوج قائد السرية ابنة زعيم دومة المدعوة "تماضر" بعد إشارة من الرسول(ص) في أن "يتزوج بنت الأصبغ".[٥]

---

(١) الواقدي، المغازي، ج٢، ص ٥٦٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٦١.

(٤) المكان نفسه.

(٥) المكان نفسه.

في تحديد أسباب الغزوة الأولى، كان الدنو من الشام لتخويف القيصر ومواجهة الظلم الذي يتعرَّض له المارُّون في المنطقة، بالإضافة إلى تفريق التجمعات التي كانت تهدِّد المدينة.

أما في هذه السرية فلا نعثر - في النص التاريخي - على ما يشير إلى تلك الأسباب، مما يعزِّز احتمال تراجع هذه الأمور - على الأقل في تلك الفترة - كذلك كان عدد المشاركين في الغزوة الأولى ألفاً من المسلمين، في حين تراجع هذا العدد إلى سبعمئة رجل في السرية اللاحقة، مع الاهتمام بالمشاركة المباشرة للرسول(ص) في الأولى وتوكيل أحد أصحابه في قيادة الثانية.

وعليه فإذا كانت الحملة الثانية عسكرية بالدرجة الأولى، فمن المفترض أن يكون العدد موازياً للغزوة السابقة على الأقل، بسبب عدم القدرة حينذاك على تثبيت الحضور فعلياً إلا إذا كان هناك ما يمكن إفتراضه بأن الأمور أخذت بالليونة والسهولة لمصلحة المسلمين وهو ما يمكن ترجيحه.

من جهة أخرى تميزت هذه السرية بالمضمون الديني بالمقارنة مع سابقتها بشكل لافت.

ففي الوقت الذي غلب الطابع الأمني على الأولى (تخويف القيصر، تأمين العبور، مواجهة التجمعات القبلية) كان الطابع الديني شديد الظهور في السرية الثانية "اغز باسم الله وفي سبيل الله" وهذا جديدٌ من نوعه في هذه الناحية، مما يرجِّح أمرين أساسيين:

١ - نضوج الأوضاع لنشر الإسلام، في ذلك الفرع من قبيلة كلب.

٢ – حرص الرسول(ص) على نشر الدين الجديد في اسرع فرصة ممكنة.

لا نعرف خلفية تأخر الأصبغ "ثلاثة أيام"[١] في اعتناقه الإسلام، كما ليس بين أيدينا ما يوضح سبب هذا التغيير في دين هذا الرجل النصراني، ذلك أنه من الصعب أن يتم النظر إلى هذا الأمر من منظور ديني بحت، خصوصاً فيما يتعلّق بالزعماء والقادة السياسيين، والأصبغ زعيمٌ في قومه، ولقد لحق به قومه عند اعتناقه الإسلام[٢] وفقاً للرواية التاريخية.

وعليه بالإمكان ترجيح حدوث تغييرات أعقبت الغزوة الأولى أسهمت إلى حد كبير في توجّه هذه القبيلة نحو القوة الصاعدة في الحجاز، في وقت أثبتت فيه الأخيرة قدرتها على دخول المنطقة الشمالية بغير صعوبة، لذلك ربما كان إسلام الزعيم فضلاً عن قومه نوعاً من تقدير الظروف الجديدة، ولعلَّ ذلك ما يمكن أن نستوحيه من الانكماش النسبي في التعاطي مع هؤلاء من قبل قائد السرية، حيث أشارت المصادر إلى فرض "إعطاء الجزية"[٣] على أهل دومة، مما يقلِّل من احتمال الانخراط الجدي لهؤلاء في الإسلام[٤]. لا نريد التقليل من البعد الديني لإسلام الأصبغ، فربما كان له تجربة شخصية في التدين والانفتاح على الأفكار الوافدة من الجنوب، لكن بحكم موقعه ومكانته لا بد أن يكون السياسي مقدَّماً على غيره في هذا المجال.

---

(١) الواقدي، المغازي، ص ٥٦١.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص ٥٦٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) وات، مونتغمري، محمد في المدينة، ص ١٧٣.

في كل الأحوال ثبتت دومة الجندل الثانية الركيزة الأولى للمسلمين في هذه المنطقة المقبلة على جملة إجراءات سوف تعجِّل في دخولها الفلك الإسلامي الجديد.

سرية علي بن أبي طالب(ع) إلى بني سعد في فدك[1]

تندرج هذه السرية في سياق الحملة على اليهود في خيبر، فلقد عقد بنو سعد ما يشبه الاتفاق مع يهود خيبر، يكون بموجبه لهؤلاء الإمداد والدعم مقابل حصول بني سعد على نصيب من تمر اليهود "على أن يجعلوا لهم من تمرهم كما جعلوا لغيرهم"[2]. وصلت الأخبار عن بني سعد "أن لهم جمعاً يريدون أن يمدُّوا يهود خيبر"[3] فوجّه الرسول(ص) علياً(ع) في "مئة رجلٍ إلى حي سعد بفدك"[4] وذلك في "شعبان سنة ست".[5]

وإذ تمكن بنو سعد من النجاة بأنفسهم قبل وصول السرية، فقد تمت الإغارة على نعمهم ومواشيهم، حيث أصبحت غنائم بأيدي المسلمين، وقدر عددها "خمسمئة بعير وألف شاة".[6]

ربما كانت مفاجأة المسلمين هذه القبيلة أسهمت في هذه النتائج "سارت إلينا جموع محمد وما لا طاقة لنا به قبل أن نأخذ للحرب أهبتها"[7]

---

(١) فدك: "بينها وبين المدينة يومان" البكري، معجم ما استعجم، م٢، ج٣، ص ٢٦٨.

(٢) الواقدي، ج٢، ص ٥٦٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المكان نفسه، ص ٥٦٣.

(٧) المصدر نفسه.

كما قال سيدٌ في بني سعد، لكن تنامي القوة الإسلامية ومهارتها في التحرك السريع في تلك المنطقة أصبح من الأمور التي ستعتاد عليها قبائل الشمال أيضاً.

وسنرى فيما بعد أن خيار عدم المواجهة في صفوف تلك القبائل لاحقاً سيسهم بالمزيد من الحضور الإسلامي في تلك الناحية، كما سيعزّز القناعة لدى الرسول(ص) بأن جبهته تلك لن تشهد أعمالاً حربية حامية إلا بمقدار إرتباطها بمصالح الروم ونفوذها المباشر.

سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة[1] في رمضان سنة ست

خرج زيد بن حارثة في تجارة إلى الشام فيها بضائع للمسلمين من أصحاب النبي، وكان معه ناسٌ من أصحابه، ولما كان دون وادي القرى لقيه ناسٌ من بني فزارة من بني بدر فضربوه وضربوا أصحابه حتى ظنوا أن قد قتلوا، ثم قدموا إليهم فسلبوهم.

تمكن زيد بعد ذلك من العودة إلى المدينة، حيث بعثه الرسول(ص) في سرية إلى ذلك القسم من فزارة، فتمكن أفراد السرية من أسر امرأتين قتلوا إحداهما لاحقاً كما قُتل إثنان من بني فزارة.

تلك أبرز المعلومات عن هذه السرية كما ينقلها الواقدي[2] وابن سعد[3] مثلت سرية زيد هذه نوعاً من الأعمال التأديبية، أرادها الرسول(ص) في سياق محاولته عبور النواحي الشمالية بالطريقة الاعتيادية.

---

(١) أم قرفة: "اسم لعجوز كبيرة في السن، في تلك الناحية". ابن سعد: غزوات، ص ٩٠.

(٢) الواقدي، ج٢، ص ٥٦٤ و٥٦٥.

(٣) ابن سعد، غزوات، ص ٩٠ و٩١.

لا شك بأن هذا الإجراء – قيام زيد في تجارة إلى الشام – كان جديداً من نوعه منذ بدء السنة الخامسة، تاريخ أول عمل حربي منظم للرسول(ص) في المنطقة الشمالية، ومن الصعب أن يقوم الرسول(ص) بذلك دون ما يساعد على ذلك ولو من باب التوقعات في عدم تجرؤ القبائل على الاعتداء، وإذا كان ثمة متغيرات حتى ذلك الحين فإننا أمام حدثين مرّا سابقاً: أحدهما يتعلق بقبيلة جذام، حيث شهدنا تكريساً لعلاقة سلمية مع الرسول(ص) في أعقاب سرية زيد إلى حسمى، والآخر بقبيلة كلب حيث تمكن عبد الرحمن بن عوف من تركيز المحاولة الأولى في تقريب أهل دومة الجندل من الإسلام.

ليس واضحاً بالنسبة إلينا تأثير هذين الحدثين في مبادرة زيد بالقيام بتجارته إلى الشام، لكن بالإمكان افتراض إسهام لهما في إيجاد مناخ ما على الأقل لدى المسلمين.

أما ما تعرَّض له زيد مع بني فزارة (القبيلة التي ما فتئت ناشطة في أعمال السلب بين الفينة والأخرى) فلا يمكن وضعه في سياق الخطر الفعلي، بل ربما كان عملاً محدوداً لم يسفر عن سقوط قتلى للمسلمين، وهكذا كان الردّ أيضاً محدوداً حيث لم نشهد إستعداداً استثنائياً (غموض عدد السرية، وتجهيزها، فضلاً عن أبرز المشاركين فيها) كما لم تنقل المصادر مواجهة حامية مع هذا الفرع من فزارة.

وفي خصوص طريقة قتل المرأة العجوز، والتي أخذت السرية إسمها منها (أم قرفة) فيبدو أنه تصرُّف فردي قام به أحد المشاركين في السرية "قيس بن المحسر" جرّاء تجرُّؤ هذه المرأة على الرسول(ص). وإذا كانت المصادر قد سكتت عن موقف الرسول(ص) من ذلك بل لم تشر إلى هذا

الاسم "أم قرفة" قبل السرية ولا بعدها، فإننا لا نستطيع اعتبار ذلك تنفيذاً لأمرٍ من الرسول(ص).

سرية بشير بن سعد إلى فدك شعبان سنة سبع

وجَّه الرسول(ص) صاحبه بشير بن سعد يرافقه ثلاثون رجلاً من المسلمين إلى بني مرة بفدك، ولما وصلت السرية أنحاءهم وجدت نعمهم مكشوفة فيما هم ماكثون في بيوتهم فاستاقوها وعادوا منحدرين إلى المدينة، حين ذلك تناهت الأخبار إلى المرِّيين الذين حملوا على أفراد السرية ولحقوا بهم، فأصابوهم وقاتل بشير حتى ارتث وضرب كعبه، ثم تحامل بعد ذلك، وعاد إلى المدينة.

بلغ الرسول(ص) ما فعلت بنو مرة بأصحابه فردَّ على ذلك بإرسال صاحبه غالب بن عبد الله الليثي في مئتي رجل إلى مصارع المسلمين، ولما تمكنوا من الوصول إلى ذلك المكان وقعت مواجهة بين الطرفين صمد فيها المريون ساعة قبل أن ينهزموا. وقد أحاط بهم المسلمون حيث استولوا على عدد كبيرٍ من النعم والشاه والذرية، كانت حصة أحدهم ـ وهم مئتا رجل ـ عشرة أبعرٍ أو عدلها من الغنم وكان يحسب الجزور بعشرة من الغنم.

يتبين لنا وجود سريتين مترابطتين في الأحداث وقد نقلنا أهم ما ورد في رواية الواقدي[١] بهذا الشأن وابن سعد.[٢]

يضع الواقدي أخبار سرية غالب في سياق سرية بشير، أما ابن سعد

---

(١) الواقدي، ج٢، ٧٢٣ و٧٢٥ و٧٢٦. ابن سعد، غزوات، ص ١١٨.

(٢) ابن سعد، غزوات، ص ١٢٦.

فيفصل الأولى عن الثانية، ويفرد لها تفصيلاً لاحقاً، كما يذكر لها تاريخاً معيناً في صفر من السنة الثامنة، وهو ما لا يتعرَّض له الواقدي، وإذا كان ضرورياً وجود فترة زمنية بين السريتين، تسمح بتوارد الأحداث خصوصاً فيما يتعلق بقيادة غالب بن عبدالله السرية الثانية، التي يفترض أنها تمت بعد قدوم الأخير من الميفعة[1] أو من الكديد[2] على أبعد تقدير. وفي كلا الحالتين يغدو تاريخ ابن سعد هو الأقرب للواقع من دون أن يتنافى ذلك مع الواقدي الذي لم يذكر تاريخاً محدّداً لهذه السرية كما أسلفنا.

مجدداً إلى فدك، وبعد عام على آخر سرية إلى هذه الناحية مع اختلاف في القيادة والقبيلة المقصودة، حيث كانت السرية الأولى بقيادة علي(ع)، كما كان بنو سعد المستهدفين في هذه السرية. أما في السرية الثانية، التي تمت في أعقاب غزوة خيبر وأفول الحضور العسكري اليهودي عن تلك المنطقة، فقد استهدفت بني مرة في حين لم تظهر المصادر خلفية هذه السرية التي قادها بشير بن سعد فتكتفي (أي المصادر) بتوجيه ثلاثين رجلاً إلى تلك القبيلة التي لم يسبق أن ذكرت في سياق أنشطة الرسول(ص) الحربية حتى ذلك الحين.

نستوحي من العدد المحدود للمشاركين في السرية الأولى لابن سعد (٣٠ رجلاً) ثم تجنُّب المواجهة مع بني مرة والاقتصار على الغنائم، الطابع التقليدي حيث من المعقول أن المسلمين اعتادوا على تجريد السرايا إلى هذه المنطقة التي كانت في طور التحوّل إلى الإطار الإسلامي. وعليه تكون

---

(١) الواقدي، ج٢، ص ٧٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٥٠.

هذه الأنشطة بمثابة دفع بالأمور في الاتجاه السائد، أما في موضوع عدد الذين سقطوا في سرية ابن سعد فمن الصعب الافتراض أن جميع المشاركين طالهم القتل كما يظهر من رواية ابن سعد "فأصابوا أصحاب بشير" ذلك أن الواقدي يضيف إلى العبارة نفسها "وولّى منهم من ولّى"(١) مما يعني إمكانية بقاء قسم من أفراد السرية على قيد الحياة، يؤيد ذلك عدم ورود أسماء الشهداء الثلاثين في المصادر، وهو أمرٌ نادرٌ في أخبار السرايا التي يسقط فيها مثل هذا العدد.

لم يصمد المرّيون إلا قليلاً في مواجهة السرية الثانية، ومع غياب العدد الفعلي لهذه القبيلة، فقد استفاد المسلمون من الحجم الكبير لغنائمها الذي يعادل نحو ألفي بعير بالإضافة إلى التداعيات المعنوية التي تحملها هزيمة هؤلاء على مستوى الحضور الإسلامي في تلك المنطقة، والتحوّل تدريجياً نحو الاتجاه الإسلامي المتنامي.

نتوقف في هذه السرية عند حوار(٢) أورده الواقدي بين الرسول(ص) وأحد أصحابه حول مصير الرجل الذي يلوذ بالشهادة تخوُّفاً بعد قطع يد أحد المسلمين، حيث أجابه الرسول(ص) بعدم قتله. وإذا كان ذلك نوعاً من الافتراض قام به المقداد بن عمرو، فقد كان جواب الرسول(ص) مثيراً لناحية قبوله بإسلام الرجل حتى بداعي الخوف أو الحيلة للنجاة من الموت، وهو أمرٌ في كل الأحوال يظهر مستوى حرص الرسول(ص) على نشر الإسلام، ولو في أدنى مراتب الاعتراف.

---

(١) الواقدي، المصدر السابق، ص ٧٢٣.

(٢) الواقدي، الجزء الثاني، ص ٧٢٦.

أخيراً، نلاحظ غياب الدعوة إلى الإسلام في هاتين السريتين مما يرجِّح إمكانية ابتعاد هذه القبيلة عن أجواء التجاوب وبالتالي عدم نضوج الوعي لديها فضلاً عن استغراقها في الحياة البدوية، حيث تخلت عن مجموعة ضخمة من الغنائم إلى مكان آخر على ما يبدو.

سرية كعب بن عمير إلى ذات أطلاح ربيع الأول سنة ثمان

انطلقت سرية كعب بن عمير الغفاري ـ وفقاً للواقدي[1] ـ في شهر ربيع الأول من السنة الثامنة إلى ذات أطلاح من أرض الشام، وهي "من وراء وادي القرى" في خمسة عشر رجلاً. ولما وصلت هذه الناحية، وجدت جمعاً كثيراً تقدمت نحوهم تدعوهم إلى الإسلام فلم تلق تجاوباً، بل قامت فئةٌ من ذلك الجمع برشق السرية بالنبل، فلما رأى المسلمون ذلك قاتلوهم حتى قُتلوا، ولم يبق من أفراد السرية سوى جريح واحد، ولقد همَّ الرسول(ص) ـ بعد بلوغه مصرع أصحابه ـ بالبعث إلى أعدائه، لكن وصله أنهم ساروا إلى موضعٍ آخر فتركهم.

يكتنف الغموض هذه السرية في أكثر من جانب.

فالأسباب والوجهة غير واضحتين، وهذا العدد القليل المرسل إلى هذا المكان البعيد نسبياً لا يتوافق مع الأحداث التي جرت ما يستدعي احتمال وجود مباغتة تعرَّض لها المسلمون أو عرَّضوا أنفسهم لها، كذلك قيام السرية بدعوة الجمع إلى الإسلام بطريقة لا تخلو من بعض الحذف أو الحبك على الأرجح، كما يظهر من اتجاه الرواية أن أفراد السرية

---

(١) الواقدي، الجزء الثاني، ص ٧٥٣.

بادروا إلى المواجهة، فيما كان موقف الطرف الآخر مقتصراً على الرشق بالنبل في البدء، ولقد لقي الجميع مصرعهم ـ باستثناء جريح واحد ـ بما يشبه العمل الاستشهادي، وتنتهي المسألة بتراجع الرسول(ص) عن البعث إليهم بعد تصميمه ذلك، حيث وصلته الأخبار عن انتقال الجمع إلى مكان آخر. بالرغم من هذا الغموض، فإن بإمكاننا افتراض الطريقة الآتية لهذه السرية:

في هذا الوقت المتقدِّم من نمو القوة الإسلامية في المنطقة، وبعد عمرة القضية حيث دخل الصراع مع قريش في مرحلة التجميد الفعلي لمصلحة المسلمين، وأيضاً بعد سلسلة من العمليات الناجحة في هذه الناحية من الشمال، من الممكن أن يكون الرسول(ص) قد بعث هذه السرية بمهمة استطلاعية[1] في تلك المنطقة من وراء وادي القرى تمهيداً لمتابعة مشروعه الخاص في الانتشار فيها، وأن ما واجهه المسلمون لم يكن في وارد خطتهم، فقد فوجئوا بهذه الجموع التي شرعت برميهم بالنبل، وحاول أفراد السرية دعوة هؤلاء إلى الإسلام من منطلق قيامهم بواجباتهم قبل فوات الأوان، لكنهم اضطروا أخيراً للمواجهة بصورة غير متكافئة أدت إلى سقوط كامل أفراد السرية، وربما تراجع الرسول(ص) عن بعثه ذلك للسبب نفسه، كإجراء موقت، حيث سنرى فيما بعد تحركاً جديداً من نوعه إلى مؤتة سوف يلقي المزيد من الضوء على الأهداف الفعلية لهذه السرية.

---

(١) بيضون، إبراهيم، تاريخ بلاد الشام، ص ٨٩.

سرية ذات السلاسل[1]

تأتي غزوة السلاسل في أعقاب حملة مؤتة الشهيرة، حيث ينقل الواقدي وابن سعد تاريخاً لها في شهر جمادى الثانية من السنة الثامنة، وهذه أبرز أحداثها كما يرويها هذان المؤرخان :[2]

تناهت الأخبار إلى الرسول(ص) بأن فروعاً من بلي وقضاعة، تجمعت، وهي تنوي الهجوم على أطراف المدينة، فأرسل صاحبه عمرو بن العاص بعد أن عقد لواءه ومعه ثلاثمئة رجل فيهم سراة المهاجرين والأنصار، وكان قد طلب من قائد السرية الاستعانة بالقبائل العربية في طريقه، بلي وعذرة وبلقين، حيث أنه كان لعمرو قرابة نسَبية بقبيلة بلي من ناحية أمه.

ولمَّا وصل المسلمون إلى تلك الناحية فوجئوا بالأعداد ما دفعهم إلى الإرسال للنبي(ص)، حيث مدَّهم بسرية أخرى بقيادة أبو عبيدة بن الجراح بلغت مئتي رجل فيها من المهاجرين والأنصار.

بعد اجتماع السريتين دخل المسلمون بلاد بلي وأربكوا أهلها، ثم تابعوا إلى حيث يسمعون بالجموع التي كانت تتفرق قبل وصولهم حتى انتهوا إلى أقصى بلاد بلي وعذرة وبلقين فوجدوا جمعاً قليلاً خاضوا معهم مواجهة محدودة أسفرت عن هروبه بعد انكساره، بعد ذلك أقام المسلمون أياماً يلاحقون فيها قبائل تلك الناحية يمنعون اجتماعها، ثم عاد الجميع إلى المدينة.

---

(١) ذات السلاسل: "وراء وادي القرى بينها وبين المدينة عشرة أيام". ابن سعد، ص ١٣١.

(٢) الواقدي، ج٢، ص ٧٧٠ و ٧٧١. ابن سعد، غزوات، ص ١٣١.

لا يذكر ابن هشام نية بعض القبائل النيل من المدينة كسبب من أسباب هذه الغزوة، ويكتفي بالإشارة إلى "أن رسول الله بعثه [أي عمرو بن العاص] يستنفر العرب إلى الشام"[1] ما يرجح إحتمال قيام الرسول(ص) بمبادرة ذاتية إثر مقتل قادة حملته في مؤتة، حيث النتائج الميدانية – على الأقل – لم تكن في مصلحة الحضور العسكري للمسلمين في تلك الناحية، ولا يعني ذلك عدم حدوث تجمعات قبلية تهدِّد المدينة كما أسلفنا، وإنما من المعقول أن تكون هذه الأحداث أيضاً في سياق تداعيات مؤتة.

وكان اختيار عمرو بن العاص إشارة إلى المهمة الاستيعابية لسريته، ولعل طلب الرسول(ص) من قائده الاستعانة بالقبائل المحاذية لطريقه يوحي إضافة إلى استثمار العلاقة النَّسَبية المذكورة بوجود نوع من المناخ يسمح بإمكانية التعاون مع القبائل، ذلك أن قبيلة بلي كانت في بعض فروعها هدفاً لهذه السرية في الوقت الذي يطلب فيه من ابن العاص الاستفادة من قرابته مع هذه القبيلة، ثم إن ذكر قبائل أخرى "عذرة، وبلقين.." من بين القبائل التي على قائد السرية الاستفادة منها والاستعانة بها يعزِّز ما أشرنا إليه في خصوص وجود مناخ ملائم مع القبائل. صحيحٌ أن شيئاً من قبيل الاستعانة لم يتحقق، ولكن يبقى ذلك مؤشراً على تطوُّر الموقف القبلي جوهر الأحداث في تلك الفترة.

لا بد في الحديث عن نتائج غزوة السلاسل من التأمل في سهولة حركة المسلمين، كما يوحي به توالي الأحداث، في هذه المنطقة التي تقع خلف وادي القرى، وتستلزم عشرة أيام من السفر المتوالي. ولعلَّ ذلك يؤيد

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٦، ص ٣٤.

ما ذهب إليه أحد المؤرخين المعاصرين في اعتبار ما تحقق في غزوة السلاسل مرتبطاً بالهدف الأساسي لغزوة مؤتة بقوله "ذلك الهدف الذي تبلورت نتائجه الأولى في سرية ذات السلاسل". [1]

فقد أخفقت القبائل فعلاً في مواجهة ذلك العدد المحدود من المسلمين، والذي لم يتجاوز الخمسمئة رجل، كما تمكن المسلمون من المكوث أياماً في تلك المنطقة يفرضون حضوراً مؤثراً، منع تلك القبائل من الاجتماع، في ساحة، هي كل البلاد العائدة إلى بلي وعذرة وبلقين كما يُستوحى من النص التاريخي.

(١) بيضون، إبراهيم: تاريخ بلاد الشام، ص٩٤.

دومة الجندل الثالثة: تكريس الحضور الإسلامي في الشمال

سرية أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل

في أثناء غزوة تبوك تورد المصادر[1] سريةً لخالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل، وقد كان ملكاً على الأخيرة، كما كان نصرانياً. وهذه أبرز المعلومات الواردة:

بعث الرسول(ص) صاحبه خالد بن الوليد من تبوك في أربعمئة وعشرين فارساً إلى أكيدر بن عبد الملك في دومة الجندل، حيث كانت الخطة اعتقال ملك دومة، واستغل المسلمون خروج أكيدر في رحلة صيد، حيث تمكنوا من أسره، في حين قُتل أخوه وهرب رفيقاه، بعد ذلك صالح ملك دومة الجندل المسلمين في السرية على تقديم ألفي بعير وثمانمئة رأس وأربعمئة درع ورمح ثم صحب السرية في عودتها إلى الرسول(ص) برفقة أخيه، حيث حُقِنَ دَمُ الاثنين، وتم الصلح على الجزية وكتب كتاباً في الصلح ـ قبل إخلاء سبيلهما ـ تضمن النقاط الآتية:

١ – إستجابة أكيدر للإسلام وخلع الأنداد والأصنام.
٢ – للمسلمين أنواع عديدة من الأراضي في الدومة.
٣ – الوسائل العسكرية مع الحصن بيد المسلمين.

---

(١) الواقدي، ج٣، ص ١٠٢٥ و١٠٢٦ و١٠٢٧ و١٠٢٨ و١٠٣٠.
ابن سعد، غزوات، ص ١٦٦.

٤ – أشجار النخيل وموارد المياه، ومراع محددة للماشية بأيدي أهل الدومة.

٥ – لأهل الدومة الحق في الزراعة مع ضرورة إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

ويخلص الكتاب أخيراً إلى تقديم المسلمين الوفاء والصدق لأهل الدومة.

في البدء لا نعرف سبب التغيير في تسمية ملك الدومة من الأصبغ بن عمرو الكلبي إلى أكيدر بن عبد الملك الكندي، وهل ثمة صراعٍ بين القبيلتين حدث بعد اقتراب الأول من المسلمين أوصل الثاني إلى الحكم أم أن تقسيماً في أراضي الدومة يسمح بوجود إسمين عليها، وهو ما لا تشير إليه المعلومات الواردة من قريب أو بعيد، حيث يختفي اسم الزعيم الكلبي، ولم يعد ثمة أخبار عنه في سياق التفصيلات العديدة عن الدولة.

من الممكن اعتماد التفسير الأول إذا ما تقيَّدنا بحدود النص التاريخي، وهذا ما يذهب إليه صاحب كتاب "تاريخ بلاد الشام" مرجحاً أن يكون حكم الملك الكندي "على حساب نفوذ الملك السابق وقبيلته التي أخذت تقترب حينذاك من المسلمين".[1]

ما يهمنا من هذه المناقشة الإشارة إلى أن الرسول(ص) كان مضطراً للعودة إلى الدومة بعد خسارته الإنجاز الذي تحقق مع الملك السابق في السرية الأخيرة.

---

(١) بيضون، ابراهيم، تاريخ بلاد الشام، ص ٩٦.

نعود إلى إنجازات المسلمين الجديدة في هذه المنطقة، حيث نتوقف عند مضامين كتاب الصلح التي تشير حيناً إلى دخول الزعيم النصراني في الإسلام، (النقطة الأولى والخامسة) في حين أننا نجد نوعاً من الفصل بين الطرفين، بل والتضييق إلى حد التعبير عن انعدام الثقة بينهما في النقاط الباقية، وهو أمر غريب في تعاطي الرسول(ص) مع الذين يدخلون في الإسلام.

قد يكون من المحتمل عدم دخول الملك الكندي في الإسلام، وأن ما نجده في الكتاب، في هذا الاتجاه، يكون نتيجة "الصقل والتحريف"[١] لكن من الصعوبة بمكان إهمال الكتاب بشكل كامل تحت هذا العنوان.

لا بد لنا من التأمل قليلاً في بعض النقاط الواردة في كتاب الصلح للوقوف على مستوى الأهمية التي كان يرى الرسول(ص) لهذه البلدة من جهة، وتأثير ذلك في مجمل حركته في الشمال من جهة أخرى.

وفقاً للنقطة الثانية والثالثة، تم "نزع جزئي لملكية الأرض، وتام للسلاح وأدواته ووضع حصنهم تحت الاحتلال"[٢] على حد تعبير صاحب كتاب نشأة الدولة الإسلامية.

وليس غريباً أن يقوم الرسول(ص) بهذا الإجراء، في منطقة تعج بالقبائل المعادية وفي بلدة "مكشوفة"[٣] نسبياً. فالاتجاه العام لهذه الشروط ربما أوحى بحرص الرسول(ص) على إحراز الحد الأدنى من الاطمئنان

---

(١) قاسم، عون الشريف، نشأة الدولة الإسلامية، ص ٢١٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٢١٥.

(٣) قاسم: المرجع نفسه، ص ٢١٦.

لنيات هذه المجموعة الداخلة حديثاً في الفلك الإسلامي والقادمة على احتمالات مختلفة في الظروف والعلاقات مع المحيط، ثم بالإمكان أيضاً، فهم هذه النقاط وخصوصاً الثانية في سياق تصميم الرسول(ص) على تثبيت الحضور الإسلامي في تلك الناحية حيث تكون ملكية الأرض أو الحق في بعض إنتاجها نوعاً من الارتباط الوثيق بها، وهذا ما كان يحتاجه المسلمون في ذلك الحين. أخيراً، تبقى دومة الجندل في المكان الأبرز من تخطيط الرسول(ص) واستراتيجيته في منطقة الشمال، فلقد بدأ بها خطوته الأولى إلى هذه الناحية، وكانت في آخر أعماله المركزة تقريباً في هذه المنطقة، الأمر الذي يؤكد العبارة التي أطلقها مؤرخ معاصر من أن دومة الجندل، كانت بمثابة "مفتاح الشام بالنسبة إلى المسلمين"[1]. لذلك فإن سرية خالد بن الوليد إلى الدومة، في وقت كان لا يزال المسلمون فيه متأهبين لمعركة مع الروم في تبوك تعتبر تكريساً لما سعى إليه الرسول(ص) منذ السنة الخامسة في جعل هذه البلدة محطةً أساسية للأعمال والنشاطات الحربية المقبلة.

(١) بيضون، ابراهيم، تاريخ بلاد الشام، ص ٨.٨

استنتاجات عامة

تميزت الجبهة الشمالية، أو الصراع مع قبائل الشمال، في أكثر من جانب حيث تتوالى الأحداث بشيء من العزم والتصميم يختلف عن ما ألفناه في باقي المحاور. فإذا كان الصراع مع قريش طريقة في الإخضاع، ومع اليهود تعبيرٌ عن صعوبة التعايش، ومع القبائل الشرقية نوعاً من الطرق الدفاعية حيناً والاستيعابية حيناً آخر، وكذلك مع الجنوبية والغربية مع ميل دائم نحو الاستيعاب، فقد كان مع قبائل الشمال متجاوزاً الدفاع والاستيعاب إلى التوسّع والانتشار أيضاً.

نلاحظ ذلك، منذ الخطوة الأولى إلى دومة الجندل، حيث كان عدد المشاركين الذي، بلغ ألفاً من المسلمين، يطرح تساؤلاً حول الأهداف الأخيرة للرسول(ص) وما إذا كانت هذه الناحية فعلاً "تحتل مكاناً مرموقاً في تفكير محمد الستراتيجي"[1] كما يعبر وات.

ومثلت دومة الجندل منذ البدء المكان الأول في حركة الغزوات والسرايا في هذه الناحية، فضلاً عن أنها كانت "الطرف" الأبرز الذي شهد نوعاً من إجراءات الاستقرار، كما رأينا في كتاب الصلح مع ملكها الكندي.

ولعلّ ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى ما تمثل "من موقع حيوي في

---

(١) وات مونتغمري، محمد في المدينة، ص ١٥٧.

التجارة الشامية لا ينافسها فيه سوى بصرى"[1] كما يرى المؤرخ بيضون في وقت يستفيد منها المسلمون المزيد من التضييق على قريش أولاً ثم تأمين الحاجة التي يفرضها تنامي قوتهم في المستقبل.

إذاً تختصر دومة الجندل جانباً من تطلعات الرسول(ص) في تلك المنطقة، حيث "المتنفس... يقع على طريق الشمال"[2] ويقدِّم مصدراً في "الرفاهية المادية"[3] من شأنه الإسهام في "تأمين مصادر جديدة لتحسين الوضع المعيشي في دولته"[4] فضلاً عن أنها الركيزة الأولى في "خطة الرسول(ص) (ص) التوسعية".[5]

لا شك بأن اعتناق القبائل الشمالية الإسلام – كما نستوحي – كان على درجة عالية من الصعوبة والتعقيد، ليس بسبب ارتباطها بالدولة البيزنطية فحسب، بل في انتماء الغالبية منها إلى الدين المسيحي في ذلك الوقت، الأمر الذي منع ما يمكن تسميته بالتحوّل الديني بين تلك القبائل على الأقل في حياة الرسول(ص)، وهذا ما يراه وات في قوله "لا تؤيد دراسة القبائل القول إن نجاحه في الشمال هو الذي شجعه على الاهتمام كل هذا الاهتمام بهذه المنطقة، فقد كان نجاحه ضئيلاً"[6] مما يعزِّز احتمال قبول الرسول(ص) انضمام تلك القبائل سياسياً في المرحلة الأولى تمهيداً للانتماء

---

(١) بيضون، ابراهيم، تاريخ بلاد الشام، ص ٨٨

(٢) وات، المرجع السابق، ص ١٥٨.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) بيضون، المرجع السابق، ص ٨٥

(٥) المرجع نفسه.

(٦) وات، مرجع سابق، ص ١٧٥.

الديني الذي ستسهم في تحقيقه الظروف المقبلة والأحداث المتوالية، على قاعدة اكتفاء الرسول(ص) بتحقيق التوسع في ذلك الوقت على الأقل.

ولكن هل كان يعني ذلك انتقاصاً من الاستراتيجية الأساسية للرسول(ص) في مشروعه مع قبائل تلك المنطقة. من الصعوبة الاعتقاد بذلك، فقد كان الجانب الديني – على غموضه واختفائه أحياناً – "هدفه الأسمى"[١] وأن افتراض سعيه "في ذلك الحين دعوة جميع العرب إلى الإسلام"[٢] بمن فيهم قبائل الشمال يعتبر من أكثر الاستنتاجات المنسجمة مع المسار العام لكل السرايا والغزوات، وإن التخلي عن ذلك سيكون بمثابة إهمال المفتاح الرئيس الذي يمكّننا من فهم هذه الأعمال برمتها.

أخيراً، لا بد من الاهتمام بتأثير هذه السرايا في مجمل الأحداث الإسلامية التالية في المنطقة، حيث ستعتبر بمثابة "الإرهاص الأول لحركة الفتوح"[٣] فيها، ومن خلال ذلك ستبدو الأمور أكثر جلاءً أمام الباحث، فيتمكن بعدها من إكمال الصورة التي ربما – كان للرسول(ص) وضع خطوطها الأولى من دون أن تسمح له حياته المحدودة في إظهارها بالطريقة التي نفهمها اليوم.

---

(١) وات، المرجع السابق، ص ٦١.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) بيضون، إبراهيم، تاريخ بلاد الشام، ص ٨٩

ب ـ الجهة الغربية

غزوة المريسيع[1]: مرجعية دولة المدينة

امتازت الجبهة الغربية من المدينة ـ إذا جاز التعبير ـ بالكثير من الاستقرار والتعاون بين القبائل القاطنة فيها والرسول(ص)، وتنقل المصادر علاقات موادعة وتعاون جرت بين بعض هذه القبائل والمسلمين، كما لم ترد معلومات تعكّر هذه الأجواء حتى السنة الخامسة للهجرة، فقد جرت في بدء شعبان منها غزوة المريسيع التي حفلت بالكثير من التفصيلات نوجزها – وفقاً للواقدي[2] – بما يأتي:

تناهت الأخبار إلى الرسول(ص) أن بني المصطلق ـ وهي فرعٌ من خزاعة تقطن ناحية الفرع ـ وعلى رأسها الحارث بن أبي ضرار، أجمعت على حرب المسلمين، فابتاعت الخيل والسلاح، وتهيأت للمسير، وكانت قد أوفدت إلى العرب تدعوهم للمشاركة أيضاً.

إثر ذلك دعا الرسول(ص) المسلمين إلى عدوّهم، وأخبرهم خبرهم، فأسرع هؤلاء بالخروج، كما خرج معه بشرٌ كثيرٌ من المنافقين، لم يخرجوا في غزوة قط رغبة في الغنيمة والسفر القريب، وفقاً للرواية التاريخية.[3]

ولما وصلت أخبار قدوم المسلمين إلى بني المصطلق تخوّف زعيمهم

---

(١) المريسيع: "اسم ماء في ناحية قديد إلى الساحل. بينها وبين الفرع نحو يوم وبين الفرع والمدينة ثمانية بُرد". الحموي، ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص ١١٨ – ابن سعد، غزوات، ص ٦٣.

(٢) الواقدي، ج١، ثم الثاني من ص ٤٠٤ لغاية ٤٢.

(٣) ابن سعد: غزوات، ص٦٣.

الحارث بن أبي ضرار، كما تفرّق عنه جمعه من أفناء العرب، قبل أن يحمل المسلمون عليهم، حيث لم يتمكن أحدٌ في القبيلة من الفرار، وسقط منهم عشرة رجال فيما أسُر سائرهم، ولم يسقط من المسلمين إلا رجلٌ واحد بطريق الخطأ، وحصل المسلمون على سبي كثير وغنائم وفيرة، وقدِّر الأول بمئتي أهل بيت، والثانية بألفي بعير وخمسة آلاف شاة.

وكانت قد جرت إثر ذلك أحداث أخرى أدت إلى زواج الرسول(ص) من ابنة الحارث بن أبي ضرار، الأمر الذي أسهم بإعادة ما يقارب من نصف السبي. أما القسم الباقي فقد تم فداؤه "ودخل الحارث وولديه ومعه ناسٌ من قومه في الإسلام".[1]

وحدثت، في هذه الغزوة فتنة شديدة كادت أن تودي باجتماع المسلمين في ذلك الوقت، حيث تنازع مولى عمر بن الخطاب مع آخر من الأنصار على الماء، أدى ذلك إلى مناداة كل من الاثنين لقومه، وإذ تمكن بعض المهاجرين من ضبط الأمور، فقد استغل زعيم المنافقين عبد الله بن أبي هذه الحادثة وصرَّح بكلام خطر في المهاجرين اعتبرهم فيه مكاثرين لأهل المدينة في بلدهم، وأنهم نافروهم فيه، مسجلاً على قومه تهاونهم في وصولهم إلى هذا الموقف الذليل، ثم هدَّد بإخراج المهاجرين من المدينة لدى العودة إليها.

وصلت هذه الأخبار إلى الرسول(ص) الذي حاول التخفيف من تأثيرها عبر افتراض احتمالات متعدِّدة للشخص الذي نقل المعلومات بدءاً، ثم الانطلاق بالمسلمين للعودة إلى المدينة بطريقة وتوقيت، لم يعتد

---

(١) ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ٢٥٩.

المسلمون عليهما، يمنع بذلك التداول في هذا الأمر، وحاول بعض المسلمين، كما حاول ابن زعيم المنافقين نفسه، حسم الموقف باقتراح قتل عبد الله بن أبي إلا أن الرسول(ص) كان لا يرى داعياً لذلك، طالباً الصبر ومتفهماً الحادثة بشكل آخر.

تعتبر المصادر أن خلفية غزوة المريسيع قامت بشكل أساس على مواجهة بني المصطلق التي كانت أعدت للحرب عدتها. ربما كان ذلك صحيحاً، لكن لا بد من التوقف عند الأمور الآتية.

إن المعلومات الواردة عن هذه القبيلة، إذا ما أخذنا عدد السبي الذي كان شاملاً "مئتي أهل بيت"[١]، ثم التخوُّف الشديد الذي تنقله المصادر عن سيد بني المصطلق لدى سماعه أخبار مجيء المسلمين، كذلك عدد القتلى الذي لم يتجاوز "العشرة"[٢]، كل ذلك أدى إلى هزيمة بني المصطلق بطريقة سريعة. وإذا أضفنا إلى ذلك مشاركة المنافقين التي كانت تقوم أساساً على الرغبة في الغنيمة – كما أسلفنا – مما يرجِّح سهولة الحصول عليها، يؤيد ذلك كلامٌ للرسول(ص) مع أحد المسلمين الجدد يغريه بالمشاركة في هذه الغزوة "فإني أرجو أن ينفلنا الله أموالهم".[٣]

إن ما تقدَّم ربما لا يؤكد تهديد هذه القبيلة المسلمين فعلياً وأن هذه الغزوة ـ مع فرض أنها كانت رد عدوان محتمل لهذه القبيلة ـ ليست بصدد موقف الدفاع بقدر ما هي تتجاوز ذلك إلى دخول عالم القبيلة، وبالتالي نشر

---

(١) الواقدي، ج١، ص ٤١٠.
(٢) المصدر نفسه، ص ٤٠٧.
(٣) المكان نفسه، ص ٤٠٩.

الإسلام بعد ذلك في صفوف أفرادها. صحيحٌ أن غروراً ما كان قد دفع هؤلاء إلى تلك المغامرة "فوجد قوماً مغرورين قد تألبوا وجمعوا الجموع"[١] ولكن شيئاً لا يشجعهم على ذلك[٢]، حيث كان الرسول(ص) منذ فترة وجيزة في أقصى الشمال، وفي دومة الجندل تحديداً، يضع الركائز الأولى لدولته في ذلك المكان البعيد.

تجدر الإشارة هنا إلى أن بني المدلج كانوا في تعاهد مع الرسول(ص) منذ الفترة الأولى لوجوده في المدينة، ولم تذكر المصادر تدخلاً لهذه القبيلة في أحداث هذه الغزوة مع أن بني المصطلق كانوا "حلفاء بني مدلج"[٣] أما في ما يتعلق بتفرُّق العرب فلا يوجد لدينا ما يؤيد أن هؤلاء كانوا القوة الأساسية في التهديد المفترض.

قد يكون في وارد القبيلة القيام بعمل حربي يسعى في الحصول على الغنائم، كحدٍّ أقصى، وعلى غفلةٍ من المسلمين في ذلك الوقت الذي لم تحسم فيه الأمور الأمنية للرسول(ص)، وعشية غزوة الخندق بالتحديد، علماً بأنه لم يكن لهذا الفرع من خزاعة أي استفادة – وفقاً للمصادر التي بين أيدينا – من التحضيرات الخاصة بالأحزاب والتي يفترض أنها كانت قائمة في ذلك الوقت الذي لا يفصل الغزوتين عن بعضهما أكثر من بضعة أشهر

(١) الواقدي، المصدر السابق، ص ٤٠٥.

(٢) يميل صاحب كتاب الدرر في اختصار المغازي والسير إلى اعتبار الغزوة بمثابة إغارة من دون داعي التجمُّع والتهديد الذي تذكره المصادر: "وقد قيل أن بني المصطلق جمعوا لرسول الله(ص) فلما بلغه ذلك خرج إليهم.. والقول الأول أصح أنه أغار عليهم وهم غارُّون" ابن عبد البر، الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٣٧.

(٣) الواقدي، ج١، ص ٤٠٤.

(أربعة أشهر تقريباً).

وحدث بالفعل ما قرَّب بني المصطلق من الإسلام، حيث يُنقل عن اعتناق زعيم القبيلة الإسلام مع ولديه وناسٌ من قومه مما يعزِّز فرضية عدم وجود ظروف فعلية لعمل عدواني حقيقي وخطر من جهة أهل المريسيع أولاً، ثم في تطلعات المسلمين في هذه الغزوة وأهدافهم فيها ثانياً.

في غزوة المريسيع مرة جديدة، بعد بني القينقاع، ثم بني النضير يبرز عبد الله بن أبي وقد أتعبه يأسه من المستقبل، وهو يرمق تنامي القوة الإسلامية، وتألّق مكانة الرسول(ص) فيها، فيستغل خلافاً عادياً بين مولى لمهاجر مع حليف لأنصاري، ليطلق جملة من المواقف والتصريحات كادت أن تودي باجتماع المسلمين و"تطيح وحدتهم وتدفع بهم إلى شفير الحرب"[1] لولا تدارك المعنيين وفي مقدمتهم المهاجرين وفقاً للرواية التاريخية.[2]

لم تتحدث المصادر عن وقوع أحداث فعلية جراء هذا التثوير الذي قام به الزعيم الخزرجي، وباستثناء الإجراء الذي قامت به بعض الأوس والخزرج حيث "شهروا السلاح"[3] فإن الأمور بقيت ضمن الحدود الممسوكة، ولكن كل ذلك كان بفعل وعي الطرفين الموقف، حيث لم ترد معلومات عن انضمام أحد من القيِّمين أو المؤثرين في كلا الطرفين إلى ابن

---

(١) بيضون، ابراهيم، الأنصار والرسول(ص)، ص ٨٥.

(٢) الواقدي، ج٢، ص ٤١٥ و٤١٦.

(٣) المصدر نفسه.

أبي أو اعتماد مقولته ما يؤكد "صلابة الجبهة الإسلامية"[1] وقدرتها المميزة "في معالجة هذه الأزمة"[2] كما يرى ذلك صاحب كتاب الأنصار والرسول(ص).

وتم عزل ابن أبي من دون قرار بذلك من الرسول(ص)، وشارك في هذا الأمر غالبية المهاجرين والأنصار، ما دفع رأس المنافقين للانطواء على نفسه يجتر مرارة موقفه الذي لم يجلب له إلا المزيد من الخيبة وتدني المكانة.

لا يعني ذلك عدم وجود فرصة فعلية لرواج مقولة ابن أبي في أوساط بعض المسلمين، فكان إجراء الرسول(ص) ومبادرته السريعة إلى العودة إلى المدينة بطريقة وتوقيت استثنائيين، لم يعهدهما منه المسلمون سابقاً، إشارة بالغة على إرادة الرسول(ص) في تجنيب المسلمين الخوض في المتاهة التي أرادها لهم ابن أبي، وإذا كانت الظروف قد حالت دون تفاعل تصريحات الأخير - كما أسلفنا - فإن حدوث ما يمكن أن يحفر في نفوسهم دون التعبير المباشر يبقى قائماً، وربما كان ذلك ما حاول أن يتجاوزه الرسول(ص) أيضاً.

ثمة موقف آخر للرسول(ص) في هذه الحادثة يلقي المزيد من الضوء عليها فقد اقترح أحد المهاجرين على الرسول(ص)، قتل الرجل كما عبَّر ابن عبد الله بن أبي عن استعداده للقيام بذلك بنفسه، ولكن الرسول(ص) أجاب الأول بأنه لا يريد أن "يتحدث الناس أن محمداً

---

(١) بيضون، ابراهيم، المرجع السابق، ص ٨٦

(٢) المرجع نفسه.

يقتل أصحابه"[1] وردّ على الثاني موضحاً: "ما أردت قتله وما أمرت به، ولنحسنن صحبته ما كان بين أظهرنا".[2]

ربما نستوحي من ذلك، أكثر من التزام الرسول(ص) مبدأ التسامح والتراحم مع أصحابه أو المنتمين إلى الإسلام، فنفترض تقديراً فعلياً للرسول(ص) مفاده أن مواقف ابن أبي هي دون الخطر الحقيقي الذي يمكن أن يتهدّد المسلمين، وبذلك فإن جوابيه السابقين، يعبران عن "القرار الحكيم"[3] أكثر من اللفتة الأخلاقية، هذا القرار الذي جنب فيه المسلمين الوقوع في "خطر الصراع الداخلي"[4] في أي شكل من أشكاله.[5]

نبقى في الاتجاه الغربي لمكة والمدينة لنتوقف عند العمل الحربي الثاني للرسول(ص) في هذا الاتجاه:

سرية الخبط أميرها أبو عبيدة بن الجرّاح

يذكر الواقدي[6] بعثة الرسول(ص) لأبي عبيدة بن الجراح في شهر رجب من السنة الثامنة يرافقه ثلاثمئة رجل من المهاجرين والأنصار إلى

---

(١) الواقدي، ج٢، ص ٤١٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٢١.

(٣) بيضون، إبراهيم، الأنصار والرسول(ص)، ص ٨٧

(٤) المرجع نفسه.

(٥) يميز صاحب كتاب (نظام الحكم والادارة في الإسلام) بين انتماء هذا الفريق الفعلي للإسلام وبين سعيه إلى تغيير المشروع السياسي القائم في تلك الفترة حيث كان المطلوب بالنسبة إليهم تحقيق "حكومة يكونون هم قيادتها وجهازها التنفيذي" شمس الدين، محمد مهدي: نظام الحكم والادارة في الإسلام ص٢٣٦.

(٦) الواقدي، ج٢، ص ٧٧٤ و٧٧٥.

حي من جهينة في ساحل البحر، وقد أصابهم جوعٌ شديد، ولم تكن معهم حمولة فأكلوا الخبط[1] ومن ذلك أخذت السرية اسمها إثر ذلك اقترض أحد المشاركين في السرية "قيس بن سعد" جزوراً فنحرها قبل أن يلقي البحر لهم حوتاً فأكلوا منه اثنتي عشرة ليلة، وتنتهي الرواية دون الإشارة إلى المواجهة في حين أن ابن سعد يذكر عدم حصولها بقوله "لم يلقوا كيداً".[2]

كما نرى من هذا العرض الموجز لرواية السرية فإن الدواعي الفعلية غير واضحة، كذلك لم نعثر على تحديد دقيق للهدف فضلاً عن تحقيقه فيما بعد، لذلك فإن غموض ذلك كله يدفع إلى المزيد من الافتراض والتحليل.

رأينا في السابق أن قبيلة جهينة كانت من القبائل الأولى التي ارتبطت مع الرسول(ص) بنوع من الموادعة، منذ الأشهر الأولى لقدومه من مكة إلى المدينة ولم تذكر المصادر – التي بين أيدينا – ما يشير إلى حدوث مشكلات مع الرسول(ص) أو مشاركة لهذه القبيلة في حملات عسكرية تهدِّد المسلمين.

وعليه فمن الصعب الاعتقاد، بأن هذا الحي من جهينة كان على وشك القيام بعمل عدواني ضد المسلمين وأن هذه السرية كانت رداً على ذلك.. لذلك يمكن افتراض ما يأتي:

من المعقول أن سرية الخبط، كانت بمثابة جولة عسكرية للمسلمين في تلك المنطقة، وفي ذلك الوقت المتقدّم من تنامي القوى الإسلامية،

---

(١) الخبط: "ورق العضاه من الطلح ونحوه.." ابن منظور: لسان العرب م(٢) ص١٠٩٤.

(٢) ابن سعد، غزوات، ص ١٣٢.

حيث الحضور في تلك الأنحاء يغدو نوعاً من تثبيت الـولاء وفـرض الأمـن بين قبائلها، يؤيد ذلك هذا المستوى المتدني في التحضير والتجهيز للسـرية، حيث عانت نقص الطعام الذي كاد أن يفتك بأفرادها في وقت – ربما – لم تكن قد حققت كامل أهدافها، ولعل قضاء هذه السرية أكثر من أسبوعين في منطقـة السـاحل – كمـا يُسـتوحى مـن الروايـة – لـه علاقـة بهـواجس الرسول(ص) الجديدة في ما يتعلق بالأمن البحري، حيث سيواجه بعـد عـام على انقضاء هذه السرية عملاً عدوانياً من البحر في السرية التالية التي قادهـا أحد أفراد بني مدلج.

لا تكفي المعلومات الواردة للتأكد من هـذه الفرضـية، ولكـن مـا بـين أيدينا يسمح بإيراد هذا الاقتراح.

سرية علقمة بن مجزِّر المدلجي

تنفرد هذه السرية بخصوصية لم يسبق للمسلمين أن تعرَّضـوا لمثلهـا، فقد ذكر الواقدي[١] وابن سعد [٢] أنه وصل إلى الرسول(ص) معلومات عن مجموعة من الحبشة، ظهـروا لأهـل "الشـعيبة" أو جـدّة وهـي منطقـة فـي الساحل بناحية مكة، فأرسل صاحبه علقمة بن مجزِّر المدلجي إلـيهم علـى رأس ثلاثمئة من المسلمين فخاض [٣] البحر ووصل إلى جزيرة فيه، حيـث كانوا قد هربوا.

---

(١) الواقدي، ج٣، ص ٩٨٣.

(٢) ابن سعد، غزوات، ص ١٦٣.

(٣) وردت عبارة..."وقد خاض إليهم البحر فهربوا منه" عند الواقدي وابـن سـعد بالصـورة نفسـها، المصدران نفسيهما.

لم تظهر الرواية التي بين أيدينا إذا ما كان هذا الظهور الحبشي عملاً تقليدياً للقبائل في تلك العهود، أو أنه نوعٌ من الاعتداء على المسلمين شرع فيه أهل الحبشة.

كما ليس لدينا ما يشير إلى حدوث دواعي اقتتال بين المسلمين وأهل الحبشة، وإن الفترة التي أعقبت هذه السرية لم تشهد شيئاً من هذا القبيل، ولا يعني تدني مثل هذا الاحتمال أن الافتراض الثاني (عمل تقليدي) خال من الخطر، وفي كل الأحوال غدت هذه المنطقة خصوصاً في السنة التاسعة "تاريخ هذه السرية" مجالاً محسوماً للمسلمين وثغراً من ثغورهم، وإذا صح تقديرنا لأهداف السرية السابقة وكان لنا أن نربط بينهما، فيغدو الأمر في هذه السرية تكريساً لما بدأته سرية الخبط لجهة تثبيت الولاء، وفرض الأمن بين القبائل مؤكدة اعتبار تلك الناحية جزءاً أساسياً من الدولة التي يتم تأسيسها في تلك الفترة.

ولعل التماثل في العدد لجهة المشاركين في السريتين يوحي ببعض التشابه للمقاومة المتوقعة، حيث المطلوب لا يتجاوز أكثر من ثلاثمئة رجل تقريباً. لا نعرف إذا ما كان للمسلمين - أو لفريق منهم - وسائل نقل بحرية في ذلك الوقت، توضح المعلومة التي تشير إلى أنهم خاضوا البحر وانتهوا إلى جزيرة فيه، وإذا كان من غير الضروري انتقال الجميع إلى تلك الجزيرة فمن المعقول بالإضافة - إلى الاحتمال الأول - أن فريقاً منهم استفاد من المراكب العائدة لقبائل تلك المنطقة.

كذلك لا بد من تأمل هذه الحساسية التي شعر بها المسلمون أمام الجسم الغريب الذي لمحوه في عرض البحر، ثم المبادرة السريعة التي أطلقها الرسول(ص) حيث يكون الإجراء جديراً برجل الدولة الذي يحمي

حدوده في كل اتجاه، يمنع بذلك الساعين للنيل منها بكل أسلوب حتى ولو كلف ذلك خوض البحر كما هو الحال في سريتنا هذه.

أخيراً، وفي نهاية الحديث عن هذه الجبهة أو الناحية من أنشطة الرسول(ص) الحربية، لا بد من التأكيد أن القبائل الغربية – إذا جاز التعبير – كانت الأضعف في مقاومة المسلمين، كما كانت الأقل خطورة عليهم منذ البدء مقارنة بالشمال والشرق.

والتفت المستشرق وات إلى ملاحظة وجيهة عندما اعتبر أن هذه الناحية قدّمت "أقدم الاتباع ما عدا المهاجرين والأنصار"[١] كما أشار إلى أن غالبية المشاركين في "جيش محمد حين دخوله مكة.. تأتي من المنطقة التي نتحدث عنها الآن"[٢] أي المنطقة الغربية وهذا ما نلحظه لدى مراجعة الرواية التي ينقلها الواقدي.[٣]

---

(١) وات مونتغمري، محمد في المدينة، ص ١٢٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٢٤ كما يرى المؤرخ العلي أن انتشار الإسلام كان "أقرب أثراً في العشائر والقبائل المقيمة في الأطراف الغربية والجنوبية من المدينة" العلي، صالح أحمد، الدولة في عهد الرسول(ص)، م١، ص ٢٧٢.

(٣) الواقدي، ج٢، ص ٧٩٩ و٧٩٨.

ب ـ الجهة الجنوبية

أولاً:سرية قطبة بن عامر بن حديدة إلى خثعم:الخطوة الأولى نحوالجنوب

تنقل المصادر هذه السرية، وتحدد تاريخها في "صفر سنة تسع من مهاجر رسول الله"[١] حيث وجّه الرسول(ص) قطبة بن عامر بن حديدة في "عشرين رجلاً إلى حي من خثعم"[٢] بناحية "بيشه"[٣] قريباً من "تُربه"[٤] والهدف الأساس أن "يشن الغارة عليهم"[٥] وحدثت مواجهة بين الطرفين كثر فيها "الجرحى من الفريقين"[٦] ثم عادت السرية بالنعم والشاء والنساء إلى المدينة، وكانت "سهمانهم أربعة أبعرة أربعة أبعرة..." .[٧]

ثانياً: سرية خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب: بدء الفتح

ينقل الطبري[٨] هذه السرية بما يمكن إيجازه بالآتي:

---

(١) الواقدي، ج٢، ص ٧٥٥. ابن سعد، غزوات، ص ٦٢.

(٢) المصدران نفسيهما، ص ٧٥٤ ثم ص ٦٢.

(٣) ابن سعد، ص ٦٢؛ بيشة: من جهة اليمن، الحموي، ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص ٥٢٩. اليعقوبي: كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، ط١، ص ٨٠ و٨١.

(٤) المصدر نفسه؛ تربة: وادٍ بالقرب من مكة على مسافة يومين منها، نزلت خثعم بين بيشه وتربه، الحموي، ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص ٢١. من مخاليف مكة النجدية وهي الطائف، نجران وعكاظ، تربه وبيشه وبتالة. البكري، معجم ما استعجم، م١، ج١، ص ٢٧٨.

(٥) الواقدي، ص ٧٥٤. ابن سعد، ص ٦٢.

(٦) المصدران نفسيهما، ص ٧٥٥ وص ٦٢.

(٧) ابن سعد، ص ٦٢.

(٨) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ١٢٦ و١٢٨ و١٢٩. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢ ص ٢٩٣.

بعث الرسول(ص) خالد بن الوليد، في ربيع الآخر - أو في جمادى الأولى - من سنة عشر إلى بلحارث بن كعب بنجران[1]، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم، وذلك على مدى ثلاثة أيام، فإن استجابوا له فعليه قبولهم ثم القيام فيهم ليعلمهم القرآن وسنة الرسول(ص)، وفي حال عدم تجاوبهم فعليه قتالهم، وأرسل معه أربعمئة رجل لهذه الغاية.

واختار بنو الحارث بن كعب الإسلام، وأقبل وفدٌ منهم إلى الرسول(ص) في المدينة تلبية لدعوته، حيث عيَّن أحدهم، قيس بن الحصين، أميراً على بني الحارث بن كعب، ثم أرسل إليهم عمرو بن حزم الأنصاري ليفقههم في الدين ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام، وكتب له كتاباً يشتمل على كثيرٍ من تعاليم الدين الجديد ومبادئه وطرق العلاقة مع الناس على اختلاف نحلهم ومذاهبهم.

لعل سرية خالد إلى اليمن كانت النموذج الأكثر تعبيراً عن تحقيق أعمال الرسول(ص) الحربية أهدافها بشكل سريع ومباشر.

فالهدف من هذه السرية، في مستوى عالٍ من الوضوح، والطريقة محدَّدة كلياً بذلك الهدف، والإجراءات اللاحقةً (بعثة عمرو بن حزم، ومضمون الكتاب) إشارات في وجوب انخراط هذه القبيلة بالدين الجديد في كل المعاني المطلوبة.

ربما يعود ذلك إلى مرونة قبائل تلك الجهة، أو لتأثير القوة فيهم كما يستوحى من اعتراف أحد أعضاء الوفد الذي حضر إلى الرسول(ص) "نعم

(١) نجران: "مدينة بالحجاز من شق اليمن" البكري، معجم ما استعجم، م٢، ج٤، ص ١٤٤.

يا رسول الله، نحن الذين إذا زجرنا استقدمنا"[1] وربما عبَّر ذلك عن فراغٍ في الانتماء الديني أو نظرة للمعروض عليهم يطغى فيه المضمون السياسي على غيره، ولا يمنع أيضاً من تكامل كل هذه الاحتمالات بطريقة أدت إلى هذا الانضمام السريع للقبيلة في الدين الجديد، وفي كل الأحوال، فقد بدأنا نشهد هذا الإيقاع السريع في قبول الإسلام منذ السنة الثامنة، وفي غالب الاتجاهات التي اهتم بها الرسول(ص) في غزواته وسراياه.

ثالثاً: سرية علي بن أبي طالب(ع) إلى اليمن: متابعة الفتح

تنقل المصادر[2]، في أخبار شهر رمضان من السنة العاشرة، سرية إلى اليمن بقيادة علي بن أبي طالب(ع) إلى قبيلة مذحج، وفيما لم تظهر أسباباً واضحة لهذه الحملة فإنها تشير إلى ما يمكن وصفه بـ فتح هذه المنطقة في أجواء مختلفة تماماً عن ما شاهدناه في الجهات الأخرى، وهذا ما نستوحيه من وصية الرسول(ص) لقائده حيث الاتجاه الأساسي في غير الحرب إلا عند الاضطرار:

"فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك، فإن قاتلوك فلا تقاتلهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً، فإن قتلوا منكم قتيلاً فلا تقاتلهم، تَلوَّمْهُم تُرِهمْ أناة، ثم تقول لهم: هل لكم أن تقولوا لا إله إلا الله[3]" يتبع ذلك عرض الصلاة عليهم وأن يقدموا الصدقات، فإن تجاوبوا "فلا تبغ منهم غير ذلك"[4] وتختم الرواية بالهدف

---

(١) الطبري، المصدر السابق، ج٣، ص ١٢٧.

(٢) الواقدي: المغازي ج٣ ص١٠٧٩ و١٠٨٠. ابن سعد: غزوات ص١٦٩ و١٧٠.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه ص١٠٧٩.

الاستراتيجي للسرية: "لئن يهدي الله على يديك رجلاً واحداً خير لـك ممـا طلعت عليه الشمس أو غربت".[1]

على هذا الأساس انطلق علي(ع) في ثلاثمئة فارس، وتمكن من دخول تلك البلاد لأول مرة، ولما وصل أدنى الناحية التي يريد فرق أصحابه "فـأتوا بنهب وسبي نساء وأطفال ونعم وشاء وغير ذلك".

وكان بنو مذحج قاوموا في البدء، حيث حدثت مواجهة محـدودة بـين الطرفين سقط فيها عشرون رجلاً من هـذه القبيلـة قبـل أن يتفـرّق رجالهـا وتواجه الهزيمة، وكانت السرية كفّت عن طلبهم، ثـم دعـوهم مجـدداً إلـى الإسلام "فسارعوا وأجابوا وتقدم نفر من رؤوسائهم فبـايعوه علـى الإسـلام وقالوا: نحن على من وراءنا من قومنا وهذه صدقاتنا فخذ منهـا حـق الله"[2] ثم عادت السرية إلى المدينة وفي حوزتها غنائم عديدة.

تندرج سرية علي بن أبي طالب(ع) إلى اليمن في السياق نفسه للسرية السابقة لهذه الجهة والتي قادها خالد بن الوليد.

فالقتال عند الضرورة فقط، والهدف دخول هذه القبيلة الإسلام مع تـأن يصل إلى حد الصبر على قتل أحد أفراد السرية ـ كما عبرت الوصـية ـ أمـا قبول الصلاة فإحدى التعبيرات العملية التي يطمئن إليهـا المسـلمون فـي أن القبيلة قد انخرطت جدياً في الإسلام. كذلك يكون تقـديم الصـدقات نوعـاً من الانتماء المدني لدولة المدينة، وفي كل الأحوال فإن "هداية" أفـراد هـذه القبيلة تعادل كل ما يمكن الحصول عليه "خير لك مما طلعت عليه الشمس

---

(١) الواقدي، المصدر السابق ص١٠٨.

(٢) المصدر السابق ص١٠٨.

أو غربت" كما أسلفنا.

وهكذا على غرار السرية السابقة وبشيء من التطور السريع في أهداف السرايا، نحن أمام "فتح" هذه المنطقة التي بقيت بمنأىً عن كل الأنشطة الحربية للمسلمين طوال السنين العشر الماضية، كامل الفترة الزمنية للغزوات والسرايا.

هذا هو الاتجاه العام، ولكن كيف جرت التفصيلات؟

في اللقاء الأول مع المذحجيين، رفض هؤلاء الإسلام، ورموا المسلمين "فأبوا ورموا في أصحابه[1]" وتقدم للبراز اثنان من الفريقين، وسقط المذحجي ثم تبعه عشرون من قومه بعد احتدام المواجهة، ولم يرد سقوط أحد من المسلمين.

لن نشكك في دقة التزام قائد السرية بوجوب سقوط أحد المسلمين قبل الشروع في قتل الفريق الآخر ـ كما رأينا في الوصية ـ فربما سارت الأمور بطريق فرضت عليه المواجهة دون القدرة على الإمساك بتفصيلات المعركة التي تبقى نتائجها ـ عادة ـ غامضة إلى حين النهاية، حيث ينشغل الجميع في الدفاع عن أنفسهم عبر التخلص من الطرف الآخر أحياناً. وربما أيضاً فقد المسلمون أحداً منهم أو أكثر، فالمصادر[2] ـ بين أيدينا ـ لا تشير إلى ذلك سلباً أم إيجاباً.

في كل الأحوال، إن حرص قائد السرية على الالتزام بأدق الأمور فيما

---

(١) الواقدي، المصدر نفسه.

(٢) لدى مراجعة المصادر الأساسية الثلاثة: الواقدي وابن هشام وابن سعد، الخاصة لم نعثر على شيء من هذا القبيل.

يتعلق بالغنائم لا يعطي فرصة في تأكيد تهاونه في هذه القاعدة، فقد أورد الواقدي رواية على لسان أحد المشاركين في السرية قال فيها: "وكان علي(ع) ينهانا أن نركب على إبل الصدقة[1]" ولما ارتدى بعضهم ثياباً تعود إلى الخمس أبى عليهم ذلك "حتى جرد بعضهم من ثوبيه".[2]

إلى ذلك لم تنته الأمور عند هزيمة المذحجيين فقد جدّد المسلمون أملهم بالمهزومين ودعوهم إلى الإسلام بعد أن كفوا عن طلبهم "فسارعوا وأجابوا وتقدّم نفر من رؤوسائهم فبايعوه على الإسلام" كما أسلفنا.

ربما لا تكون الأمور قد جرت بهذه السرعة التي يمكن أن يستوحيها قارىء النص، خصوصاً إذا ما تأملنا الأجواء التي ترافق ـ عادة ـ سقوط القتلى، ولكن إذا كان لنا الاعتماد على صحة الرواية ـ حيث لم يرد ما يخالفها ـ فإنه من الممكن أن كرام القوم ورؤساءهم قد قدّروا سريعاً عواقب الأمور فاستدركوا موقفهم، ولعل ذلك يماثل إلى حد ما موقف زعماء بني الحارث بن كعب في السرية السابقة، من دون التقليل من جدية قبول هؤلاء بالإسلام، لا سيما إذا أمعنا النظر بالإيجابية اللافتة التي طبعت تصريحهم عندما وضعوا أموالهم بين يدي قائد السرية قائلين: "فخذ منها حق الله" كما أشرنا.

---

(١) الواقدي: المغازي ص١٠٨١.

(٢) المصدر نفسه.

استنتاجات عامة

ليس من الصعب على من يدرس الجانب الجغرافي في تجريد السرايا والغزوات أن يلاحظ هذا الابتعاد أو الانكفاء عن الجهة الجنوبية الذي دام حتى السنة التاسعة تاريخ أول سرية إلى هذه المنطقة. صحيح أن عدد الأنشطة الحربية مع قبائل الغرب لم تكن أكثر منها في الجنوب، ولكن لم نلحظ هذا الابتعاد كما نراه في الجهة الأخيرة، فلقد كانت لدينا أعمال حربية عديدة في الغرب، وإن كانت غير موجهة إلى قبائل المنطقة، كما كانت لدينا أنواع من العهود والموادعة مع هذه القبائل أدخلت هذه الجهة في مسرح الأحداث منذ البدء.

ربما كان علينا الاهتمام بأمرين كي نفهم خلفية تجريد بعض الحملات العسكرية لدى الرسول(ص):

الأمر الأول: حيوية المنطقة بالنسبة إلى المسلمين على أكثر من صعيد.

الأمر الثاني: التهديد الذي تمارسه القبائل فيها ضد المسلمين. ولعلّ الحملات إلى الشمال كانت نموذجاً دقيقاً للأمر الأول فيما كانت الأعمال الحربية في الجهة الشرقية، وفي نجد تحديداً، مثالاً عملياً على الأمر الثاني. أما الموضوع الديني فمن الممكن أنه قد ارتبط بالظروف المؤاتية أكثر منه بالإرادة البحتة للرسول(ص).

وفي هذا السياق فإن المصادر بين أيدينا لا تشير إلى ما يمكن اعتباره تهديداً للمسلمين صدر عن قبائل تلك الجهة. أما في الموضوع الحيوي

فيبدو أن اتجاه الأمور كان إلى الشمال أكثر منه إلى الجنوب، ذلك أنه في الوقت الذي نعثر فيه على هجرات مختلفة إلى الشمال فإن الجنوب فقد جزءاً كبيراً من بريقه في ذلك الحين.على ما يبدو، ولهذا فإن تأخير الدخول العسكري إلى هذه المنطقة مرتبط إلى حد ما بـ"ترك الأمور تنضج لوحدها[١]" كما يرى ذلك، المستشرق وات حيث يتجاوز المسلمون مراحل عديدة من التعاطي مع القبائل، كانوا مضطرين إليها في الجهات الأخرى. أما في هذه الجهة فإن الأمور تسير رأساً إلى أهدافها النهائية، كما رأينا في سرية خالد وعلي(ع) ويغدو "الفتح" هدفاً فعلياً للسرية لاتعود دونه. وهذا ما لم نلحظه في غالب الأعمال العسكرية في كل الجهات قبل السنة الثامنة.

لدينا حديث للرسول(ص) أطلقه أثناء وجوده في تبوك يلقي بعض الضوء على نظرته لهذه الجهة وقبائلها حيث يقول: "الإيمان يمان[٢]" ولقد عبّر بذلك بعد أن "نظر إلى اليمين ورفع يديه إلى أهل اليمن"[٣] وفقاً للنص التاريخي.

وإذا دلّ هذا الحديث على شيء فإنه يدل على السهولة التي يراها الرسول(ص) في التعاطي مع أهل هذه الجهة، وأن تأخير السرايا إليها يسمح ربما بالمزيد من "استخدام الطرق الديبلوماسية[٤]" كما يعبر المستشرق المذكور.

---

(١) وات، مونتغمري: محمد في المدينة ص١٨٠.

(٢) الواقدي: المغازي ج٣ ص١٠١٧.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) وات: المرجع السابق ص١٧٩.

الغزوات والسرايا ضد القبائل*

- الجهة الشمالية -

		الزمان	المكان	الأسباب أو الغايات	عدد المشاركين	النتيجة
١	غزوة دومة الجندل	ربيع الأول على رأس تسعة وأربعين شهراً	دومة الجندل	أن بدومة الجندل جمعاً كثيراً وأنهم يظلمون من مرّ بهم ويريدون أن يدنو من المدينة	١٠٠ رجل	نزل المسلمون بساحتهم فلم يجدوا بها أحداً فأقاموا بها أياماً وبثوا السرايا ثم عادوا ولم يُصب منهم أحد
٢	سرية زيد بن حارثة	جمادى الآخرة سنة ست	حسمى	الاعتداء على موفد الرسول إلى القيصر	٥٠٠ رجل	الإغارة على قبيلة المعتدي مع قتله والحصول على غنائم في الماشية والنعم مع النساء أعيدت بعد ذلك بموجب اتفاق سابق
٣	سرية زيد بن حارثة إلى وادي القرى	رجب سنة ست	وادي القرى	--	--	--
٤	سرية عبدالرحمن بن عوف	شعبان سنة ست	دومة الجندل	"اغز باسم الله وفي سبيل الله فقاتل من كفر بالله	٧٠٠ رجل	إسلام الاصبغ بن عمرو زعيم قبيلة كلب مع ناس كثير من قومه ثم فرض الجزية على من بقي على دينه في البلدة
٥	سرية علي بن أبي طالب(ع)	شعبان سنة ست	فدك	تآمر أهل فدك (بني سعد بن بكر) مع يهود خيبر ضد المسلمين "أن لهم جمعاً يريدون أن يمدوا يهود خيبر"	١٠٠ رجل	هربت بنو سعد بالظعن وحصل المسلمون على خمسمائة بعير وألفي شاة
٦	سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة	رمضان سنة ست	وادي القرى	اعتداء على تجار مسلمين في وادي القرى	—	الإحاطة بالمعتدين وأسر عجوز (أم قرفة) مع ابنتها
٧	سرية كعب بن عمير	رمضان سنة سبع	فدك	مهاجمة بني مرة	٣٠ رجلاً	مقتل أفراد السرية وجرح قائدها
٨	سرية كعب بن عمير	ربيع الأول سنة ثمان	ذات اطلاح	رصد الأوضاع القائمة	١٥ رجلاً	مقتل أفراد السرية باستثناء واحد منهم
٩	سرية عمرو بن العاص	جمادى الآخرة سنة ثمان	ذات السلاسل	جمعاً من قضاعة قد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله	٣٠٠ رجل +٢٠٠ لاحقاً	وطيء المسلمون بلاد بلي ودوخوها حتى أتوا إلى أقصى بلادهم وبلاد عذرة وبلقين ولقوا في آخر ذلك جمعاً فحملوا عليهم قبل أن يهربوا في البلاد ويتفرّقوا
١٠	سرية خالد بن الوليد	رجب سنة تسع	دومة الجندل	على هامش غزوة تبوك	٤٢٠ رجلاً	أسر ملك الدومة ثم فتح البلدة وإجراء مصالحة على عدد كبير من النعم والسلاح

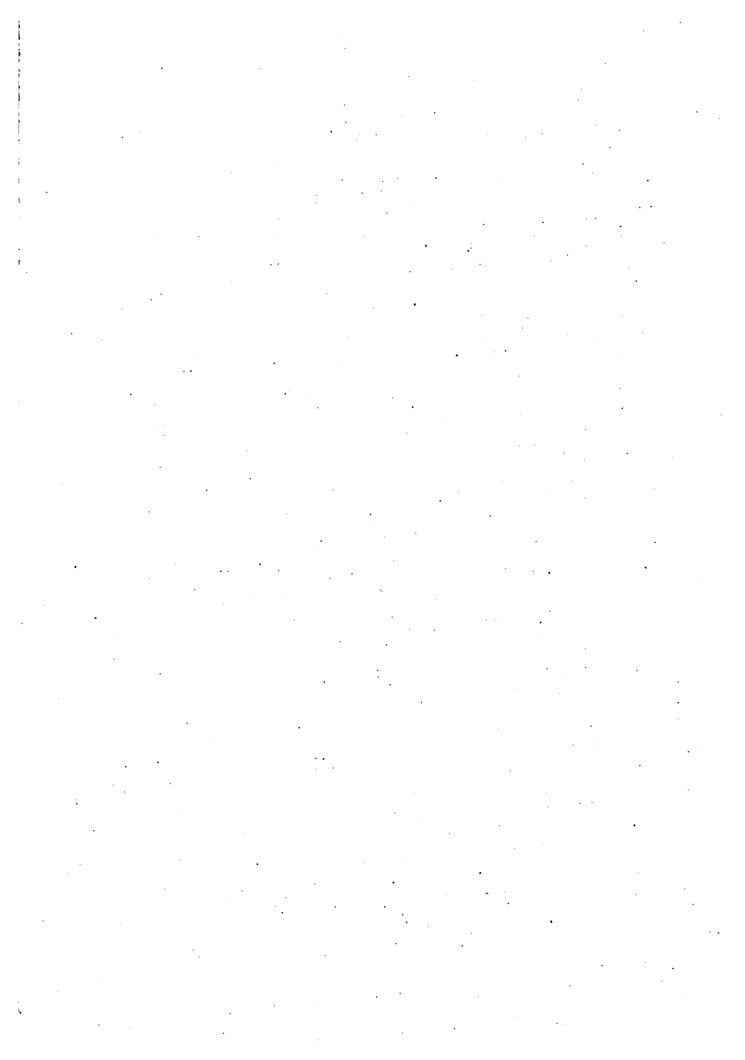
* إن المعلومات الواردة في الجداول الثلاثة تم اقتباسها من كتاب غزوات الرسول وسراياه لابن سعد بالإضافة إلى كتاب المغازي للواقدي، وقد حاولنا اعتماد العبارة الواردة ما أمكن.

الغزوات والسرايا ضد القبائل
- الجهة الغربية -

		الزمان	المكان	الأسباب أو الغايات	عدد المشاركين	النتيجة
١	غزوة المريسيع	شعبان سنة خمس	المريسيع	"فسار [أي الحارث بن أبي ضرار] في قومه ومن قدر عليه من العرب فدعاهم إلى حرب رسول الله فأجابوه وتهيأوا للمسير معه"	ثلاثون فارساً وكبار المهاجرين والأنصار وبشر كثير من المنافقين	أسر سائرهم وسبي الرجال والنساء والذرية ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد
٢	سرية الخبط	رجب سنة ثمان	حي من جهينة بالقبلية مما يلي سائر البحر	مواجهة إحدى فروع قبيلة جهينة	٣٠٠ رجل	لم يلقوا كيداً
٣	سرية علقمة بن مجزر المدلجي	ربيع الآخر سنة تسع	الحبشة	أن ناساً من الحبشة تراياهم أهل جدة	٣٠٠ رجل	فانتهى إلى جزيرة في البحر وقد خاض إليهم البحر فهربوا منه

الغزوات والسرايا ضد القبائل
- الجهة الجنوبية -

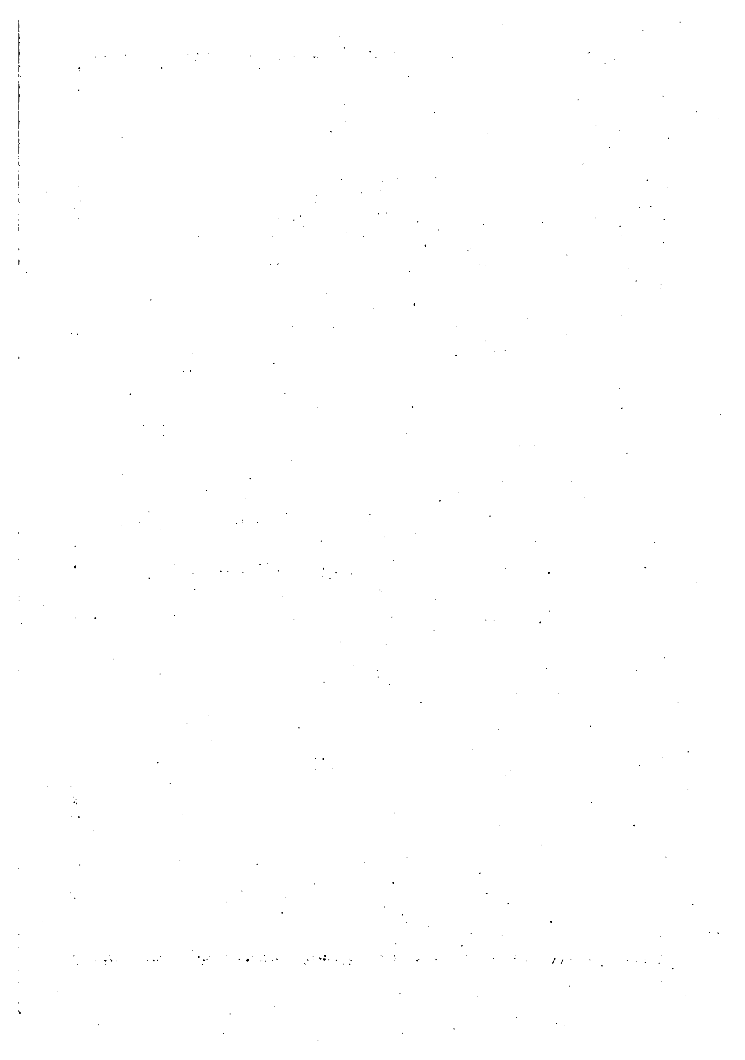
		الزمان	المكان	الأسباب أو الغايات	عدد المشاركين	النتيجة
١	سرية قطبة بن عامر بن حديدة	صفر سنة تسع	خثعم بناحية بيشه	شن الغارة	٢٠ رجلاً	اقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثر الجرحى في الفريقين جميعاً... وساق المسلمون النعم والشاء والنساء إلى المدينة
٢	سرية خالد بن الوليد إلى بني عبد المدان	ربيع الأول سنة عشر	نجران	الدعوة للإسلام	---	التجاوب من قبل بني عبد المدان
٣	سرية علي بن أبي طالب	رمضان سنة عشر	اليمن	الدعوة للإسلام	٣٠٠ فارس	مقتل عشرين من بني مذحج قبل هزيمتهم وبالتالي تجاوبهم مع السرية



الفصل الخامس

المواجهة مع الروم

- تمهيد
- سرية مؤتة: الصدام الأول
- غزوة تبوك: بدء الفتح
- سرية أسامة بن زيد: متابعة الفتح
- استنتاجات عامة



تمهيد

تميزت الجبهة مع الروم بقدر كبير من الأهمية تجاوزت كل اهتمامات الرسول(ص) الأخرى على صعيد الصراع والمواجهة في الربع الأخير من عهده في المدينة.

وذلك ليس بسبب ضخامة العدو الجديد للمسلمين وبالتالي خطورة القرار في المواجهة معه فحسب، بل في المدى العالمي الذي ستدخله الدعوة الإسلامية حيث سيكون التحدّي مختلفاً عن ما ألفته الغزوات داخل شبه الجزيرة العربية التي كان بمقدورها استخدام العسكري تارة ومع الديني أخرى لتحقيق أهدافها، دون أن يكون ثمة مقاومة عسكرية أو دينية تفوق المتوافر لديها. أما في المواجهة مع الروم، فقد بدا أن التحدي سيكون شاملاً متجاوزاً العسكري والديني أحياناً إلى الحضاري بمعانيه كافة وبصورة مباشرة أو غير مباشرة.

وعليه فقد اتخذت هذه الجبهة اتجاهاً متقدماً مثَّل الذروة في تطلعات الرسول(ص) العسكرية والدينية أولاً والحضارية ثانياً، ولقد أسهم في بعض نجاحه غموض مشروعه الحقيقي في أوساط القادة الروم في تلك الأثناء، حيث تم اعتبار هذا المشروع في أحسن الحالات "خروجاً آخر عن الكنيسة الأم من نوع خروج الذين قالوا بالطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة والأريوسيين وغيرهم"[1]

(١) رستم، أسد: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وصلاتهم بالعرب، منشورات المكتبة البولسية، ط٢ ج١ ص٢٣٩.

على حد تعبير المؤرخ رستم.

لا نستطيع تحديد الإجراء الفعلي الذي كان من الممكن أن يتخذه الروم في حال إدراكهم المغزى الحقيقي للحملات الإسلامية ضدهم، لكن ما يتضح لنا أن هذا الإدراك كان بعيداً ليس فقط عن أذهان الساسة وكبار القادة العسكريين للدولة الرومانية في تلك الأثناء، بل عن المفكرين، وربما المؤرخين فيها أيضاً، حيث بقي التفسير المذكور (الانشقاق عن الكنيسة) "عالقاً بأذهان المفكرين الأوروبيين طوال العصور الوسطى"[١] وفقاً للمؤرخ نفسه.

سرية مؤتة[٢]: الصدام الأول مع البيزنطيين

شكلت غزوة مؤتة التي يعدّها ابن الأثير من "الغزوات العظيمة"[٣] محطة رئيسة في مسيرة الإسلام والمسلمين نحو الشمال، كما مثلت الصدام المباشر الأول بين القوة الإسلامية الصاعدة في المنطقة والجيوش البيزنطية التي تستعيد سيادتها في تلك الناحية من بلاد الشام.

في ما يأتي خلاصة عامة لأبرز الأحداث التي شهدتها هذه الغزوة وفقاً

---

(١) المرجع نفسه.يرى بينز ذلك في قوله..."نظر علماء اللاهوت البيزنطيون إلى الإسلام في بادىء الأمر على أنه فرع من الآريوسية ووضعوه في نفس المستوى مع المذاهب المسيحية الأخرى...وفي القرن الثامن نظر يوحنا الدمشقي الذي عاش في البلاط الإسلامي إلى الإسلام على أنه ليس إلا ضرباً من ضروب الانشقاق عن العقيدة المسيحية الحقة" بينز، نورمان: الامبراطورية البيزنطية، تاريخها وحضارتها وعلاقتها بالإسلام، تعريب حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، ص٣٦٣.

(٢) مؤتة: موضع من أرض الشام، من عمل البلقاء. البكري: معجم ما استعجم م٢ ج٤ ص٥٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٢ ص٢٣٤.

للواقدي[1] وابن هشام.[2]

بعث الرسول(ص) صاحبه الحارث بن عمير الأزدي برسالة إلى ملك بصرى، فلما نزل مؤتة اعترضه شرحبيل بن عمرو الغساني، ولما عرفه من رسل محمد قتله ـ وكان أول رسول للنبي(ص)(ص) يقتل ـ وصل خبر مقتل ابن عمير إلى الرسول(ص) الذي اعتبر ذلك بمثابة إهانة كبرى ورسالة قاسية في حق المسلمين، فأمر بالاستعداد للرد على هذه السابقة، وأسرع المسلمون فخرجوا وعسكروا في منطقة الجرف[3] وعين الرسول(ص) ثلاثة أسماء في قيادة الغزوة بالتناوب تحسباً للإصابة: زيد بن حارثة يخلفه جعفر بن أبي طالب، وكذلك عبد الله بن رواحة إذا أصيب جعفر، وذلك في أجواء طغت عليها مشاعر القلق على الجميع، حيث مشى الناس إلى القادة والمشاركين يودع بعضهم بعضاً، وبلغ عدد المشاركين في الغزوة ثلاثة آلاف رجل، انطلقوا في جمادى الأولى من السنة الثامنة وساروا حتى نزلوا في أرض معان[4] من أرض الشام حيث جاءتهم الأنباء أن هرقل قد نزل مآب[5] في جموع من بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام، تبلغ مئة الف رجل، تردّد حينها المسلمون في المضي قدماً، ولكن تدخل عبد الله بن رواحة وتشجيعه لهم حسم الأمر والتقى الطرفان في مؤتة بطريقة غامضة، حيث سقط القادة الثلاثة على التوالي.

---

(١) الواقدي: المغازي ج٢ ص٧٥٥ ـ ٧٦٩.

(٢) ابن هشام: السيرة ج٥ ص٢٢ ـ ٤٣، ابن خلدون: السيرة النبوية ص ١٦٤.

(٣) الجرف: على فرسخ من المدينة، وهناك كان المسلمون يعسكرون إذا ما أرادوا الغزو. البكري: معجم ما استعجم م١ ج٢ ص٢٢.

(٤) معان: "وهي بين الحجاز والشام، حصن كبير على خمسة أيام من دمشق بطريق مكة". البكري: معجم ما استعجم م٢ ج٤ ص٥٣.

(٥) مآب: "من أرض البلقاء". المصدر نفسه.

بعد ذلك قاد خالد بن الوليد المسلمين في عملية انسحاب عائداً بهم إلى المدينة، وقد سقط منهم إثنا عشر شهيداً، في أجواء من الهزيمة أنكرها عليهم المسلمون في المدينة، فيما تفهم الرسول(ص) النتيجة، بطريقة أخرى، تضمنت الأمل والتقدير لأصحابه.

بالرغم من المعلومات الوفيرة عن هذه الغزوة فإن ثمة أمور عديدة يجتاحها الغموض، ما يجعل المجال مفتوحاً أمام التحليل والافتراض.

تعتبر المصادر مقتل أحد رسل النبي(ص) على يد شرحبيل بن عمرو الغساني سبباً لغزوه مؤتة، والتساؤل هنا يبدو وجيهاً عن مكانة هذه الشخصية الغسانية وما إذا كان عملها هذا إجراءً فردياً أم على علاقة ما بالظروف المستجدة بين البيزنطيين والمسلمين في تلك المنطقة، وهو أمر لا يخلو من ترجيح، حيث أننا نشهد هذه الشخصية فيما بعد في قيادة الجيوش التي واجهت المسلمين في مؤتة "وقام فيهم رجل من الأزد يقال له شرحبيل بالناس، وقدّم الطلائع أمامه[1]". وفي رواية أخرى أكثر وضوحاً "وقام فيهم شرحبيل بن عمرو فجمع أكثر من مئة ألف وقدم الطلائع أمامه".[2]

ثم هل كان مقتل هذا الرسول(ص) يستدعي ــ بذاته فقط ـ هذه الحملة التي خيَّم على أجوائها الشعور بالقلق وبالتالي الخوف من عدم عودة المسلمين، خصوصاً إذا ما تأملنا في الاجراء الإستثنائي للرسول(ص)، تعيين ثلاثة أسماء في القيادة بطريقة التناوب، وهو أمر لم نلحظه في سائر الأعمال الحربية السابقة.

---

(١) الواقدي: المغازي ج٢ ص٧٦٠.

(٢) ابن سعد: غزوات ص١٢٩.

نتوقف أيضاً عند "التشكيك بحدوث معركة فعلية بين الطرفين[1]" حيث لم تشر المصادر، إلا على نحو عابر وسريع جداً، إلى ما جرى من تفصيلات مفيدة في المعركة، في حين أكثرت الحديث عن الفترة السابقة واللاحقة، الأمر الذي يرجح حدوث لقاء محدود مع شكل من أشكال المبارزة، خصوصاً إذا ما تأملنا عدد القتلى الذي لم يتجاوز الاثني عشر رجلاً، وهو عدد قليل نسبياً حال وجود معركة فعلية بين الطرفين بالأعداد الكبيرة المذكورة، إلى ذلك أيضاً من المفترض أن يتضاعف عدد الضحايا عند وقوع الهزيمة، كما هو مطروح في الرواية.

ننتقل إلى موضوع الخلفية الفعلية التي قامت بها غزوة مؤتة حيث تجاوزت الأحداث السبب المذكور لهذه الحملة، ذلك أننا لم نعد أمام عملية اقتصاص لمقتل رسول النبي، بل أمام مواجهة فعلية مع الجيوش البيزنطية كما أسلفنا.

ربما فوجىء المسلمون بذلك – ولعل التردد في المواجهة عبر عن ذلك – لكن الحملة في طريقة توجيهها واستعداداتها لا يمكن أن تكون ـ برمتها ـ عملية اقتصاص أو انتقام لمقتل أحد المسلمين في أي شكل أو ظرف، لذلك فالخلفية تتضح أكثر في ما وصلت إليه الغزوة لا في ما انطلقت منه.

وهكذا فالمآل التي وصلت إليه الغزوة ليس صدفة، والطريق الذي اختاره الرسول(ص) يؤدي بشكل معقول إلى ما وصل إليه، لذلك فلا يمكن فهم الغزوة عندما نجعلها "أسيرة الطابع الثأري المتداول[2]" بل هي بالدرجة

(١) بيضون، إبراهيم: تاريخ بلاد الشام ص٩٣.

(٢) بيضون، ابراهيم: المرجع نفسه ص١٢٠.

الأولى "خطوة طليعية في التاريخ العسكري للمسلمين خارج النطاق الحجازي"[١] كما يرى ذلك صاحب كتاب تاريخ بلاد الشام.

وإذا تابعنا التحليل في هذا المجال فمن الضروري إعادة تقويم نتائج الحملة في ضوئه، فلا يعود سقوط ثلاثة من قادة المسلمين أو مناخ الهزيمة الذي ساد صفوفهم مؤشراً حاسماً في تحديد الموقف أو الوضعية التي انتهت إليها القوة الإسلامية في المنطقة، فلم تكن معركة عسكرية "بقدر ما كانت حملة سياسية[٢]". وهذا البعد السياسي يكمن في اصل الحضور في تلك المنطقة[٣] حيث المقصود بالدرجة الأولى ليس تحقيق النصر على القوة البيزنطية، وهذا أمر بعيد في ذلك الحين بل "الاحتكاك الفعلي بالقبائل العربية"[٤] المشروع الأساس في تلك الفترة.

ولم يكن لمؤتة ـ بالتأكيد ـ إنجاز المشروع برمته، ولقد كان لها أهمية الشروع فيه وبلورته، وهي في كل الأحوال محطة أساسية فيه، حيث الأعمال اللاحقة تتجه إلى المزيد من المواجهة التي ستصل بالأمور إلى أهدافها المرسومة سابقاً.

---

(١) بيضون، المرجع السابق نفسه.

(٢) بيضون، ابراهيم: تاريخ بلاد الشام ص٩٤. أبو خليل، شوقي: في التاريخ الإسلامي، ط٢، ١٩٩٦ن ص ١٥٢.

(٣) يعتبر ديسّو ذلك وضعاً طبيعياً في قوله: "...إذا كان الفتح الإسلامي الذي وقع في القرن السابع الميلادي يبدو كما لو كان حادثاً شاذاً قي اتساعه فهو في الحقيقة يعد حركة طبيعية للسكان العرب الذين كانوا يتجهون دائماً إلى غزو الأقاليم الحضرية فحسب بل إلى الإقامة فيها أيضاً" ديسُّو، رينه: العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة د. محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٩، ص٢.

(٤) المرجع نفسه.

لا نعرف إذا كان الرسول(ص) يرمي في مقولته، رداً على اتهام أهل مؤتة بالفرار "ولكنهم كرّار إن شاء الله[1]" تقويم الموقف بلحاظ الأهداف البعيدة، ولكن من الصعب أن لا يكون ذهن الرسول(ص) مشغولاً بهذه الأهداف، في كل تطوّر من تطورات حملة مؤتة، إذ إننا في غير ذلك نرى هذه الحملة قراراً فيه من المغامرة والخطورة الشيء الكثير، وهذا ما يخالف ما ألفناه من التفكير العسكري والسياسي للرسول(ص).

أخيراً، لا يظهر لنا أن الروم قد أدركوا بدقة نوعية هذا الحدث في تلك الفترة. ففي الوقت الذي كان المسلمون ينجزون فيه عملية "منظمة قامت لتؤدي مهمة خاصة..[2]". كان الروم – في أغلب الظن – يحسبون ذلك "غارة كتلك التي اعتاد البدو أن يشنوها للسلب والنهب[3]" على حد تعبير المؤرخ رستم. لذلك لم نجد ما يشير إلى استعداد جدي لمقاومة هذا العمل المنظم في الفترة التالية، الأمر الذي أسهم بتفاعل نتائج هذه الحملة حيث كانت آثارها "بعيدة المدى"[4] وفقاً للمؤرخ المذكور.

---

(١) الواقدي: المغازي ج٢ ص٧٦٥.

(٢) رستم، أسد: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ج١، منشورات المكتبة البولسية، طبعة ثانية ـ بيروت، ١٩٩٨، ص٢٣٧.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) المرجع نفسه. راجع أيضاً: فيليب حتي بالتعاون مع ادوارد جرجي وجبرائيل جبّور: تاريخ العرب، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة السادسة ١٩٨٠، ص٢٠٤.

غزوة تبوك[1]: بداية الفتح

تعتبر غزوة تبوك ذروة التأهب والاستعداد للقوة الإسلامية حتى ذلك الحين، وإذا كانت (أي غزوة تبوك) العمل العسكري الأخير الذي شارك فيه الرسول(ص) بصورة مباشرة، فقد كانت أيضاً قراراً على مستوى كبير من التحدي والخطورة واجهه المسلمون في تلك الفترة.

في ما يأتي ننقل أبرز الأحداث كما يرويها الواقدي[2] وابن هشام.[3]

تتفاوت المعلومات بين الواقدي وابن هشام في تحديد أسباب الغزوة فبينما ينقل الثاني[4] أمر الرسول(ص) للناس بالتهيؤ لغزو الروم من دون الإشارة إلى أي سبب مباشر يورد الأول[5] استعداد الجموع الكثيرة في الشام حيث رزق هرقل أصحابه لسنة وقد أجلبت معه لخم وجذام وغسان وعاملة. وإذ يظهر في سياق الأحداث فيما بعد عدم دقة هذه المعلومات وأنها وصلت إلى الرسول(ص) بطريق الإشاعة – كما يروي الواقدي – فإن ابن هشام لا يتعرض للأمرين معاً (أصل وجود الجموع، اكتشاف الإشاعة).

في كل الأحوال كانت دعوة الرسول(ص) الجميع للتأهب والاستعداد بطريقة وتوقيت غير عاديين، فلقد صرّح ـ على غير عادته ـ بالجهة المقصودة بكل وضوح، كما طلب من الجميع المشاركة في وقت طاب

---

(١) تبوك: "موضع بين وادي القرى والشام". الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج٢ ص١٤.

(٢) الواقدي: المغازي ج٣ ص٩٩٠ و٩٩٥ و٩٩٦ و١٠٠٠ و١٠٠٢ ز١٠١٥ و١٠١٩ و١٠٣٥.

(٣) ابن هشام: السيرة ج٥ ص١٩٥ ـ ١٩٨.

(٤) المصدر نفسه ص١٩٥.

(٥) المصدر السابق ص٩٩٠.

للناس فيه المكوث في مواسمهم، يضاف إلى ذلك الحر الشديد مع الجدب والمسافة البعيدة. كما أرسل إلى القبائل والمكيين يستنفرهم معه.

واضطرب الناس من حوله، فبينما انخرط قسم كبير من الملتزمين في الحملة واستعدوا لها، برزت مجموعة كبيرة من المترددين الذين تصفهم المصادر بالمنافقين، حيث تقدم بضعة وثمانون منهم يستأذنون الرسول(ص) لأسباب غير وجيهة، وكذلك حاولت مجموعة من الأعراب الاعتذار دون أن يحصلوا عليه من الله وفقاً للنص التاريخي.[(١)]

وكان لابن أبي عدد كبير من الأنصار قد تجهزوا في البدء قبل أن يتراجع بهم في اللحظة الأخيرة حيث أخافتهم الحرب مع بني الأصفر.

ولم يعدم الرسول(ص) مشاركة قسم من هؤلاء، وقد خرجوا يرجون الغنيمة، في وقت لم يتمكن فيه من تأمين النقل لمجموعة قليلة من المسلمين.

وانطلقت الحملة في رجب من السنة التاسعة، حيث بلغت أعدادها ثلاثين ألفاً من المسلمين، فيهم عشرة آلاف فرس، ووصل الرسول(ص) تبوك يكتشف زيف الأخبار التي وردته كما أسلفنا.

ولقد حاول الاستفادة من مقامه هناك، فأرسل خالد بن الوليد إلى دومة الجندل، كما عقد اتفاقات عديدة مع القبائل القاطنة في تلك الأنحاء (أيلة، حرباء وأذرح، مقنة) ولقد تم تدوين نصوص واضحة فيها سنتوقف عندها لاحقاً، بالإضافة إلى قيام بعض المسلمين بالشراء والبيع في تلك المنطقة.

---

(١) الواقدي: المغازي ج٢ ص٩٩٥.

وأقام المسلمون في تبوك نحو عشرين ليلة عادوا بعدها إلى المدينة دون قتال.

انطوت هذه الحملة الضخمة في حياة الرسول(ص) على مؤشرات عديدة يمكن للقارىء أن يتلمسها في ثنايا التفاصيل الواردة.

في البدء، نتأمل في الأسباب المباشرة التي انطلقت في أجوائها هذه الحملة – وفقاً للواقدي – حيث "الأسباب الحقيقية وراء هذه الحملة غير واضحة"[1] على الأقل في المصادر، ويزداد الغموض بعد اكتشاف زيف الأخبار الواردة عن الجموع الزاحفة من الشام تهدد المدينة.

وإذا كانت تلك المعلومات وصلت فعلاً إلى الرسول(ص) وأنه أمر المسلمين بالغزو بناء عليها، فإن التساؤل يبرز حول هذه الطريقة البسيطة في تلقي الرسول(ص) الأخبار، خصوصاً في هذا الحجم فضلاً عن ترتيبه الأثر عليها بالشكل الضخم الذي رأيناه في الإعداد للغزوة.

ليس بمقدورنا الخروج عن نص الواقدي، ولكن بالإمكان افتراض طريقة أخرى لفهم هذه المعلومات في ضوء عزم الرسول(ص) على "تأمين الحدود الشمالية"[2] بعد انتصار البيزنطيين على الفرس و"الإشاعات التي راجت عن نياتهم في التسلل إلى داخل الجزيرة"[3] وبذلك تكون غزة تبوك بمعنى من المعاني وقائية أكثر من دفاعية كما توحي به المصادر[4]. ومن

---

(١) قاسم، عون الشريف: نشأة الدولة الإسلامية ص١٢٠.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) قاسم، المكان نفسه.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٢ ص٢٧٧.

الطبيعي أن تكون "الدويلات المسيحية الصغيرة وقبائل العرب على الحدود"[1] في صميم تطلعاته كما رأينا ذلك في مؤتة.

يؤيد ما ذكرناه أننا لم نعثر في روايات الغزوة على نوع من المفاجأة والاستغراب جراء اكتشاف زيف الأخبار، وهو أمر متوقّع من المشاركين في الحملة الذين خرجوا بأجواء بالغة الصعوبة، وظروف غير مؤاتية لهم كما أسلفنا.

وعليه يتضح لنا بصورة أفضل أن غزوة تبوك حلقة جديدة ـ وغاية في الأهمية – في سلسلة حلقات المشروع السياسي للرسول(ص) في الشمال، حاول فيها المسلمون تحقيق ما "أخفقت فيه الحملة السابقة"[2] في مؤتة. ومن الطبيعي أن يكون ذلك في مستوى الضرورة إذا ما واكبنا التطورات المستجدة في الشام.

في غزوة تبوك أيضاً، نتوقف عند هذا الحضور الكثيف للمنافقين، حيث التفاصيل عن أخبارهم وأعمالهم تطغى على غالبية التفاصيل الأخرى، وقد أشار القرآن الكريم[3] بإسهاب كافٍ إلى هذا الأمر محللاً موقفهم بالكثير من المصالح الذاتية والآنية.

ولكن من المفيد طرح التساؤل حول مستوى الخطورة التي كان يشكلها هذا الجمع الذي بدأ يتبلور منذ السنة الثانية في أعقاب غزوة بدر،

---

(١) يرى صاحب البداية والنهاية أن الرسول(ص) عزم على "قتال الروم لأنهم أقرب الناس إليه وأولى بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام ولأهله"، ابن كثير: البداية والنهاية ج٤ ص٩٢. قاسم: المرجع السابق ص١٢١.

(٢) بيضون، إبراهيم: تاريخ بلاد الشام ص٨

(٣) القرآن الكريم، سورة التوبة ابتداء من الآية ٤٢ ولغاية الآية ١٠٨.

وما إذا شهدت الفترة الفاصلة عن تبوك جديداً في هذا المجال.

من الصعب تلمّس نمواً - بل استمراراً في الزخم نفسه - لهذه المجموعة بعد غزوة المريسيع، حيث الانكشاف والإحراج الكبيرين اللذين وقعت فيهما جماعة المنافقين، وأن المحاولة الغامضة لقتل الرسول(ص) في طريق العودة من تبوك حيث قام "أناس من المنافقين وائتمروا أن يطرحوه من عقبة الطريق"[1] لا تعبر عن قرار موحد اتخذته هذه الجماعة ولا هي، في شكل من الأشكال، كانت تتسم بخط توحيدي في أعمالها[2] كما نستوحي من المصادر، بل ربما كان ذلك نوعاً من ردة الفعل الفردية في سياق أحداث تبوك التي شهدت الكثير من الجدل والنقاش الحامي بين الملتزمين توجهات الرسول(ص) والمترددين فيها، لذلك فإن عبارة الواقدي "ليس عسكر ابن أبي بأقل العسكريين"[3] مشيراً إلى حجم قوة أنصار عبد الله بن أبي بالمقارنة مع الملتزمين توجهات الرسول(ص) بالشكل التام، لا يظهر ما يؤيدها في سياق الأحداث التالية، فضلاً عن السابقة. وهذا ما يذهب إليه المؤرخ إبراهيم بيضون في قوله "من المستبعد جداً أن يكون له [أي لابن أبي] هذا الدور الكبير في غزوة تبوك بعدما أصاب حركته من تعثر وتراجع خصوصاً بعد غزوة بني المصطلق"[4]. وإذ يظهر من ذلك المستوى المتدني للخطورة التي كان يشكلها هذا الفريق، فإن تبوك قد شهدت الفصل الأخير من تداعيات هذه الحركة التي "بلغت أيامها الأخيرة في ذلك

---

(١) الواقدي: المغازي ج٣ ص١٠٤٢.

(٢) راجع: العلي، صالح أحمد: الدولة في عهد الرسول(ص) م١ ص١٥٨.

(٣) الواقدي: المغازي ج٣ ص٩٩٥.

(٤) بيضون، ابراهيم: الأنصار والرسول(ص) ص٩٢.

الوقت"[1] على حد تعبير المؤرخ نفسه.

في الحديث عن المنافقين من المفيد أيضاً تسليط الضوء على انضباط هؤلاء ضمن الدائرة الداخلية للمجتمع الإسلامي في المدينة.

صحيح أن زعيمهم أغرى بني النضير على الصمود بوجه الرسول(ص)، ولكنه لم يفعل شيئاً أمام قرار ترحيلهم من المدينة، كما لم ترد في المصادر أي محاولة من قبل اليهود في استمالة عبد الله بن أبي بعد خروجهم من المدينة. وكذلك مع المكيين، لا نعثر في المصادر على أي اتصال بين الفريقين حتى على مستوى الأفراد، ناهيك عن القبائل في أي جهة كانت، وليس جديداً على أهل يثرب طلب النصرة من قريش عند الضرورة، فلقد أملوا بها يوم[2] لم تكن لقريش مصلحة في ذلك، فكيف بهم اليوم وقد ارتبطت كل مصالح قريش بهذا الصراع.

فالأولى بها أن تستغل كل محاولة للنيل من استقرار المسلمين في المدينة، وهذا لم يحصل لا من جهة قريش ولا من المنافقين.

إذن، من الصعب الاعتقاد بأن هذه المجموعة المترددة كانت تحمل، من الرفض، ما يمكنها من الخروج على الجماعة لمصلحة أعدائها، فلقد كانت مواقفها المتعددة قصارى جهدها في التعبير، وجل إمكانياتها بالتجاوز.

في مقابل هؤلاء المترددين برزت مجموعة من سبعة أشخاص

(١) المرجع نفسه ص٩٣.

(٢) في يوم بعاث.

وصفتهم المصادر بالبكائين حيث لم يتمكن المسلمون من حملهم في هذه الغزوة البعيدة، ولقد أشار إليهم القرآن الكريم متحدثاً باسم النبي(ص) ﴿...لا أجدُ ما أحْمِلَكُم عليْه، تولَّوا وأعينهم تَفيضُ مِنَ الدَّمْع حَزَناً ألا يَجدوا ما ينفقُونَ﴾.[1]

لن نتوقف عند هذه الروحية الراقية لهؤلاء في الرغبة بالجهاد والشعور بالخسارة دونه، لكن من المفترض مع مثل هذه المعلومات أن تكون الاستعدادات والتجهيز للغزوة قد طال كل إمكانيات المسلمين في ذلك الحين، حتى كان هذا القصور أمام هذه المجموعة، خصوصاً أن من بين أفرادها أحد الكوادر الأولى[2] في العمليات الحربية التي أعقبت معركة بدر.

في غزوة تبوك نتوقف أيضاً عند موقف للرسول(ص) يعترض فيه على مجموعة من المسلمين أرادت بيع أسلحتها لدى عودتها من هذه الغزوة، مبررة ذلك بأنه "قد انقطع الجهاد"[3] فلقد واجههم الرسول(ص) بقوله: "لا تزال عصابة من أمتي يجاهدون على الحق حتى يخرج الدجال".[4]

من دون الاهتمام باسم الدجّال، وما يرمز إليه من الباطل، كما يستوحى من العبارة، فلقد أظهرت هذه الرواية إمكانية بدء الشعور لدى المسلمين بالسيادة على المناطق كافة في شبه الجزيرة العربية، وأن حملة تبوك بما قدمت من مظاهر القوة والاستعداد عمّقت هذا الشعور في أوساط بعض

---

(١) قرآن كريم، سورة التوبة: آية ٩٢.

(٢) سالم بن عمير.

(٣) ابن سعد: غزوات الرسول(ص) ص٦٧.

(٤) المصدر نفسه.

المسلمين لتدفعهم إلى ذلك الاستنتاج الذاتي عبر قولهم: "قد انقطع الجهاد" وهو أمر لا تتجاوزه المعطيات التاريخية، لكن لا يعدو كونه مرحلة أساسية في حركة الغزوات الإسلامية كما أرادها الرسول(ص)، ولذلك فإن جوابه على تلك الأوساط كان بمثابة إعلان سياسة الجهاد المفتوح، ما يستلزم الاحتفاظ بالسلاح والتحضير الدائم.

ولعلّه بذلك رأى ملازمة ضرورية بين نمو الدعوة الإسلامية وتطورها ـ فضلاً عن استمرارها ـ من جهة، وبين بقاء القوة الإسلامية وحركتها في الاتجاهات المناسبة من جهة أخرى.

لا شك بأن الانتماء للإسلام لم يتجاوز عند غالبية القبائل الانتماء للقوة الإسلامية، ومن ثم الدولة الإسلامية بشكل رئيس، وأن الارتباط بهذا الدين هو ارتباط يقوم على توازن القوة بالدرجة الأولى، لذلك كان الرسول(ص) مضطراً إلى استمرارية الحركة والتطور في جوهر هذا الارتباط الذي شكل الشرايين الحية في دولته الصاعدة، قبل أن يمر وقت طويل تكون فيه هذه القبائل قد تكيفت أكثر مع الدين الجديد وتعمق ارتباطها به روحياً وفكرياً.

ولا شك بأن تلك المدة المطلوبة في إحراز هذا الانخراط لا تعود إلى تمنُّع تلك القبائل بالدرجة الأولى فحسب بل إن الموضوع في جوهره الأساسي تطوّر حضاري أيضاً، ومن غير المتوقع حدوثه بالشكل السريع كما يمكن أن نتصور.

شكلت الاتفاقات التي عقدها الرسول(ص) مع عدة من القبائل القاطنة في النواحي القريبة من تبوك أبرز النتائج المباشرة لهذه الغزوة. وفي ما يأتي قراءة عامة لمجمل هذه الاتفاقات:

١ ـ اتفاقية أهل أيلة:[١]

لدى مراجعة النص المتعلق بالاتفاقية[٢] نخرج بالأفكار الآتية:

ـ منح الأمان الإسلامي لزعيم أيلة وأهلها ومن كان معهم من أهل الشام واليمن وأهل البحر.

ـ الاقتصاص من المخلين بالأمن وعدم كفاية المال دون النفس.

ـ حرية الاستفادة من ماء المنطقة وطرقها.

ويردف الواقدي الجزية على أهل أيلة "ثلاثماية دينار كل سنة وكانوا ثلاثماية رجل".[٣]

٢ ـ اتفاقية أهل جرباء[٤] وأذرح[٥] ومقنا[٦]:

المضمون الأساس لهذه الاتفاقيات[٧] الثلاث يرتبط بالأمان الإسلامي الذي سيمنح لأهالي المناطق المذكورة، مقابل تعهد الأخيرة بإعطاء مبلغ سنوي من المال، وهو مئة دينار مع جرباء وأذرح، فيما يقدّم أهل مقنا ربع غزولهم وثمارهم.

---

(١) أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام وهي آخر الحجاز وأول الشام. الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج١ ص٢٩٢.

(٢) الواقدي: المغازي ج٣ ص١٠٣١. ابن هشام: السيرة ج٥ ص٢٠٧.

(٣) الواقدي: المصدر نفسه. البلاذري: فتوح البلدان ص٦٧.

(٤) جرباء: موضع من أعمال معان بالبلقاء من أرض الشام قرب جبال السراة من ناحية الحجاز، الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج٢ ص١١٨.

(٥) أذرح: اسم بلد في أطراف الشام.. نواحي البلقاء وبين أذرح والجرباء ميل واحد. الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج١ ص١٢٩.

(٦) مقنا: قرب أيلة، المصدر السابق ج٥ ص١٧٨.

(٧) الواقدي: المغازي ج٣ ص١٠٣٢.

كما يورد البلاذري معلومات إضافية في نص[1] آخر لاتفاقية مقنا هذه أبرز ما فيها:

ـ الأمان الإسلامي لأهل مقنا مع عودتهم إلى قريتهم.

ـ مشاركة الرسول(ص) أهل مقنا في قريتهم.

ـ منح أهل مقنا جوار الرسول(ص)، مقابل تقديم ما يمثلون من الرقيق والكراع والحلقة والبزة إلا ما عفا عنه.

ـ كذلك على أهل مقنا بعد ذلك ربع نخيلهم وصيدهم وغزولهم.

ـ مقابلة الخير بالخير والشر بالشر من قبل المسلمين.

ـ الأمير على أهل مقنا منهم أو من أهل بيت الرسول(ص).

في قراءة عامة لهذه الاتفاقيات نستنتج الأمور الآتية:

الأمر الأول: تنامي سلطة الرسول(ص) في المنطقة حيث بدأ بتنظيم علاقاته بأهلها بما يتجاوز فترة مكوثه فيها إلى تفصيلات عديدة تتعلق بـ"الأمن الداخلي"[2] حيناً وأملاكهم وإنتاجهم حيناً آخر.

وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على بدء مرحلة جديدة من الاستقرار ومد النفوذ في المنطقة، تمهيداً لضمها تماماً إلى الدولة الإسلامية الجديدة.

الأمر الثاني: عدم ورود ما يشير إلى استعداد هذه القبائل للدخول في

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص٦٧.

(٢) قاسم، عون الشريف: نشأة الدولة الإسلامية ص١٢٤.

الإسلام حيث الانتماء إلى النصرانية – على ما يبدو – أوجد صعوبة في ذلك[1] في تلك الفترة، وفي الوقت نفسه، لم نشعر بالإصرار على هذا الأمر من قبل الرسول(ص)، ولعل ذلك كان تقديراً للموقف الصعب من جهة ورهاناً على الأيام المقبلة من جهة أخرى.

الأمر الثالث: الشروع في تكوين ما يمكن الاطلاق عليه مالية الدولة الإسلامية،ما يعني توقعات جديدة في موارد الصرف، فضلاً عن الحاجة الحالية[2]، فالجزية السنوية، مالية كانت أو مرتبطة بكمية الإنتاج، وكذلك المشاركة في ملكية الأرض كما رأينا في نص البلاذري لاتفاقية مقنا. كل ذلك يؤسس لمصادر شبه ثابتة تهتم بها الدول والكيانات المستقرة أو النامية، وهو أمر مثير للاهتمام في أن يكون للمسلمين مصادرهم في تلك الناحية البعيدة عن المدينة، وعن حركة المسلمين في تلك الفترة أيضاً.

لقد عاد المسلمون من تبوك من دون إنجازات عسكرية مباشرة، وحالت الظروف الموجودة دون لقاء عسكري فعلي مع الروم، ولا توجد الغزوة بالحجم الذي يمكن للباحث معه اعتبارها مقصودة بالدرجة الأولى عند الرسول(ص) على الأقل.[3]

---

(١) راجع وات: محمد في المدينة، ص١٥٩.

(٢) يرى بينز ارتباطاً وثيقاً بين شبه الجزيرة العربية ومدن الشام على المستوى الاقتصادي يتجاوز الحاجات الموقتة إلى الضرورات المستمرة منذ فترة ما قبل الإسلام في قوله" :كانت سوريا وفلسطين قبل الإسلام مرتبطتين اقتصادياً بالجزيرة العربية."... بينز، نورمان: الامبراطورية البيزنطية، المرجع السابق ص٣٧٦.

(٣) راجع وات: محمد في المدينة، ص١٧٧.

إن مرور المسلمين بهذا الاختبار الأكبر الذي طال كل إمكانياتهم وطاقاتهم في الجهاد كان بمثابة التحضير الفعلي لمستقبلهم المقبل، إذ خبروا أنفسهم جيداً كما خبروا أعداءهم، ثم إنهم تعرّفوا على نماذج راقية بالالتزام وأخرى متأخرة فيه. أما آفاقهم فامتدت إلى المكان الذي لم تتعوّد عليه حركتهم إلا في تجارة مدروسة، أو في ظروف طبيعية صعبة وعامة. لقد أصبح بإمكانهم تكرار السير في هذا الطريق الذي اكتشفوا إمكانية استخدامه مستقبلاً.

والقبائل المراقبة في كل اتجاه، بدأت تتداول معلومات هذه الحملة بالكثير من التقدير والحسابات المختلفة، وسيتعين عليها الاعتراف، مكرهة في أسوأ الأحوال، بكل مستلزمات هذا الجيش الذي خرج شمالاً حيث التحدي يتجاوزها مجتمعة، قبل أن يضعها في دوائر ضيّقة في تقدير الأحجام وإمكانياتها، سيعود المسلمون هذه المرة إلى المدينة وفي خيال بعضهم أن مهمة الجهاد قد انتهت لضخامة ما شهدوا من قوتهم وبأسهم، وأن ذلك يكفيهم شر الأعداء، في أي مكان من شبه الجزيرة العربية، أو الحجاز على الأقل. أما عقودهم مع بعض قبائل الشمال فشكلت مصدراً جديداً في تحسين مواردهم وتعزيز مكانهم في تلك الناحية.

أما المترددين بينهم فتجاوزتهم الأحداث، كما تجاوزت هواجسهم، وحتى حساباتهم الضيقة (للربح والخسارة في الالتزام الفعلي أو عدمه بالإسلام) أصبحت خلفهم أو تكاد، وأمامهم بعد تبوك صورة جديدة لعظمة الإسلام، فيها ما يستدعي إنهاء ذلك التردد الذي طال أمده وفقد مبرره.

كانت تبوك إذن، ذروة الاستعداد والظهور[1] للمسلمين، ومن المفيد أن

---

(١) لقد عبّر صاحب كتاب في التاريخ الإسلامي عن هذا الحجم الكبير في الاستعداد بقوله أن تبوك

يكون ذلك تعبيراً عن أهمية الأهداف المباشرة وغير المباشرة، الراهنة والمقبلة.

ثمة إشارة أخيرة في غزوة تبوك تلقي بعض الضوء على أهميتها، إن متتبع المشاركة الفعلية من الرسول(ص) يرى بوضوح أن مشاركته وقيادته المباشرة في غزوة تبوك تأتي في سياق مرحلة الحسم، فمنذ غزوة الحديبية في ذي القعدة من السنة السادسة انتقلت الأعمال الحربية، التي قادها الرسول(ص)، إلى مرحلة جديدة يطغى على نتائجها الحسم الفعلي للصراع.

هكذا تلت خيبر الحديبية، وهكذا أيضاً جاءت غزوة الفتح ثم غزوة حنين، ولئن تأخرت الطائف قليلاً بعد غزوتها فلقد تركها الرسول(ص) تصل إلى النتائج نفسها ولو بعد حين. ومن الواضح أن الرسول(ص) لم يشارك شخصياً في أي عمل حربي آخر غير هذه الأعمال، لذلك فإن تبوك جاءت في هذه المرحلة بالذات لتؤكد علاقتها بتلك الأعمال الكبرى التي دخلت فيها أعمال الرسول(ص) الحربية، حتى إذا ما أعطيت تلك الهالة من الاستعداد والتحضير، تركت انطباعاً كبيراً في نفوس المسلمين عن مكانة هذه الناحية وأهميتها، وأن الصراع المقبل لا بد أن يتجه شمالاً بكل قوة.

سرية أسامة بن زيد: متابعة المشروع الإسلامي في الشمال

من الواضح لنا أن هذه الغزوة لم تُنجز في عهد الرسول(ص)، وقد تأجل تنفيذها– رغم حرص الرسول(ص) – إلى ما بعد وفاته، ولكنها في

"تعلن لأول مرة في تاريخ الجزيرة العربية النفير العام ومبدأ الحرب الشاملة" أبو خليل، شوقي: في التاريخ الإسلامي ص٢٠٦.

كل الأحوال، كانت قراره وفكرته بالدرجة الأولى. وهذه الدراسة معنية بالتأكيد بخلفيتها وبعض التفصيلات المرتبطة بالتحضير، حيث كانت الأمور تسير وفقاً لتوجهات الرسول(ص) مباشرة.

في الأيام الأخيرة لشهر صفر من السنة الحادية عشرة، أمر الرسول(ص) المسلمين بوجوب التهيؤ لغزو الروم، ثم دعا أسامة الذي كان لا يزال حديث السن، فطلب منه قيادة الحملة والسير بها على اسم الله، حتى ينتهي إلى مقتل أبيه محدداً بعضاً من الأهداف في أهل أُبنى[١]. وأوصاه بوجوب الإسراع والإقلال من اللبث في مناطق الأعداء. وبعد يوم من ذلك دخل الرسول(ص) في مرضه الأخير.

ولما كان الرسول(ص) حريصاً على بعث الجيش، فقد جهد في التشديد على المسلمين بضرورة المشاركة وعقد اللواء لقائده، وهو في حالة المرض، وتظهر الرواية أن غالبية المسلمين كانوا معنيين بالمشاركة بهذه الغزوة، خصوصاً المهاجرين والأنصار الذين استعدوا للخروج جميعاً ـ على ما يبدو ـ في هذه السرية.[٢]

وشعر المسلمون بمرض الرسول(ص)، وحاولوا تأجيل الغزوة إلى ما بعد شفائه، لكن الرسول(ص) كان يصر دائماً على بعث الجيش دون أي تردّد، وتوفي بعد عقد اللواء بحوالى أسبوعين، وكان الجيش لا يزال في المدينة، وذلك في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول.

(١) أُبنى: موضع بالشام من جهة البلقاء. الحموي، ياقوت: معجم البلدان ج١ ص٧٩.

(٢) يذكر ابن سعد ذلك في قوله: "فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلا انتدب في تلك الغزوة.." ابن سعد: غزوات، ص١٩٠.

تلك أهم المعلومات التي ينقلها الواقدي[1] عن غزوة أسامة بن زيد.

إن ابرز ما يثير الباحث في هذه الغزوة أمرين أساسيين:

الأول: توجيه هذه الغزوة في الفترة الأخيرة من حياة الرسول(ص).

الثاني: إصرار الرسول(ص) على بعث الجيش حتى الرمق الأخير.

لم يرد في المصادر ما يشير إلى تطورات في الشام توجب توجيه غزوة على غرار مؤتة وتبوك، كما لم يكن لأهل أبنى ذكر سابق، أو لغيرهم مما عنته هذه الغزوة تحديداً، ما يعني بشكل عام عدم وجود أمر طارىء يستوجب هذه المبادرة المثيرة للرسول(ص) في تلك الفترة.

فلقد جاءت الدعوة إلى غزوة أسامة بن زيد في سياق جملة إجراءات عبرت عن استعداد الرسول(ص) للرحيل، إذ نعى للمسلمين نفسه قبل أشهر قليلة في حجة الوداع.

قد يكون ما ذكره الواقدي في بدء حديثه عن هذه الغزوة: "لم يزل رسول الله(ص) يذكر مقتل زيد بن حارثة وجعفر وأصحابه، ووجد عليهم وجداً شديداً"[2] مؤشراً على الأجواء التي عاشها الرسول(ص) في تلك الأثناء، وربما كان ما نقله صاحب معجم البلدان من أن أُبنى كانت "قرية بمؤتة"[3] تلقي بعض الضوء على الوجهة التي كان الرسول(ص) يفكر فيها، وهكذا يكون كلام الرسول(ص) لأسامة "سر على اسم الله وبركته حتى

(١) الواقدي: المغازي ج٣ ص١١١٧ و١١١٨ و١١١٩ و ١١٢٠.

(٢) الواقدي: المصدر نفسه، ص١١١٧.

(٣) الحموي، ياقوت ج١ ص٧٩.

تنتهي إلى مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل[1]" فضلاً عن تعيين أسامة بن زيد نفسه، ما يعزّز على اعتبار هذه الغزوة على علاقة بنتائج مؤتة.

ولكن هل بالإمكان الاكتفاء بهذا الربط بين الغزوتين للوقوف على دلالات الثانية، خصوصاً في سياق تلك الظروف التي أشرنا إليها؟ ثم ماذا عن التوقيت الذي يفصل غزوتنا هذه عن مؤتة بما يقارب الثلاث سنوات، في حين لم يرد ما يشير إلى سبب التأخير، أو ما يدفع إلى الاستفادة من التوقيت لهذه الغزوة بشكل خاص.

لا نستطيع إخراج غزوة أسامة بن زيد إلى "مؤتة"، كما ينقل الواقدي، عن المؤثرات الأساسية الخاصة بغزوة مؤتة لأبيه، كما لا يمكن تجاوز مشاعر الوجد التي عاشها الرسول(ص) حين بادر إلى توجيه أسامة كما أسلفنا، لكن من الصعب الاعتقاد بأن ذلك هو كل الخلفية لغزوتنا المثيرة هذه.

إن عزم وإصرار الرسول(ص) على بعث جيش أسامة وهو في حالة الاحتضار، هو أكثر من عملية ثأر أو انتقام لمقتل القادة في مؤتة، خصوصاً في ذلك الوقت الحرج الذي يفترض فيه من الرسول(ص) الاهتمام بمستقبل المسلمين بعده وتحضيرهم للمرحلة المقبلة، حيث يكون رسم المحددات العامة لسياستهم الحربية وغير الحربية، التي دفع من أجلها أغنى أيامه وغالب جهده، في رأس الأولويات التي من الممكن أن يكون قد فكر بها وشغلت باله حيث الجبهة مع الروم تنطوي على كل ما من شأنه وضع كل الانجازات، حتى ذلك الحين، في دائرة الخطر الحقيقي.

---

(١) المصدر السابق.

لذلك من المعقول افتراض الآتي:

إن إصرار الرسول(ص) على هذه الغزوة كان بمثابة الوصية العملية للمسلمين في ضرورة الاهتمام بهذه الناحية التي فيها مستقبلهم[1] ووجودهم على حد سواء، ولقد أراد أيضاً الإيحاء بأن مشروعه الذي بدأه في هذه الناحية منذ أكثر من خمس سنوات، لم ينجز بعد، وأن هذه الغزوة حلقة أساسية في سلسلته الطويلة التي لا تنتهي قبل ضمان الأمن في الحدود الشمالية على الأقل، كما أراد لهم عدم التوقف مطلقاً أمام وفاته وأن عليهم الانشغال بهذا الأمر الضروري جداً، حتى عنه وعن رحيله، مؤكداً بذلك– ربما – أنه لا يكون لهم تقديم أي هم آخر على هذا الهدف، أو مقارنته بغيره.

(١) لا يغيب عن بالنا أثناء تحليل هذه السرية تأثير العامل الاقتصادي في وجودها حيث اعتبرت المنطقة التي اتجهت إليها هذه السرية من أغنى ولايات الامبراطورية البيزنطية و"أكثرها انتعاشاً وأكثرها رقياً من الناحية الاقتصادية" بينز، نورمان: المرجع السابق، ص٣٧٣ و٣٧٤ لكن الأمور كانت متداخلة والعوامل متعددة (ديني، سياسي، اقتصادي،..) ما يمنع الاعتقاد بالعامل الواحد مهما كانت قوته وتأثيره.

استنتاجات عامة

ربما كانت الجبهة مع الروم، الجبهة الوحيدة التي بادر إلى فتحها الرسول(ص) من دون أن يضع حداً نهائياً لها أو يحسم نتائجها بشكل تام، فقد تمكن من إنهاء الصراع مع قريش بدءاً من السنة السادسة مع صلح الحديبية، وتدريجياً حتى السنة الثامنة، كذلك حسم الوجود العسكري لليهود في شبه الجزيرة العربية في السنة السابعة في غزوة خيبر، وفيما تمكن من وضع حد معين للقبائل في أكثر من مكان في شبه الجزيرة، وخصوصاً في حنين مع السنة الثامنة. بقيت المواجهة مع الروم جبهة في حجم المستقبل وتحدياً لم يسبق للرسول(ص)(ص) أن قدَّم جهوداً مثيرة مع غيره من التحديات على كثرتها.

من الواضح أن تكون مؤتة أول الصدام المباشر مع الروم، ولكن لا يقتصر الأمر على مؤتة في نشوء هذا الصراع بشكل فعلي وإن بطريقة غير مباشرة، فمنذ السنة الخامسة، ومع دومة الجندل الأولى كانت الأمور تسير بهذا الاتجاه، وكان التهديد الرومي والحسابات الإسلامية قائمة في كل الأعمال التي تلت دومة الجندل حتى مؤتة، ولقد كانت الأخيرة قراراً واضحاً بالمواجهة المباشرة للمرة الأولى، وهذا هو المائز الأساسي فيها.

من الصعب أن تكون مهمة الثلاثة آلاف مسلم في مؤتة حسم الوجود البيزنطي، في تلك الأنحاء الشمالية، على الأقل في ذلك الوقت، ولا يعني ذلك أن الأمور لم تكن في وارد المواجهة تماماً بل كل ما في الموضوع أن

مختلف الظروف المتعلقة بالمسلمين لم تنضج بعد إلى درجة الحسم المذكور.

وفي الاتجاه المعاكس ليس لدينا ما يشير إلى عزم الروم على التدخل المباشر في المجال الإسلامي، في الوقت نفسه أيضاً، حيث حافظ هؤلاء على حدود معينة، لم ترد أخبار على تجاوزها.

وعليه فحملة مؤتة أكثر من رد فعل على مقتل موفد الرسول(ص) كما بينا في الحديث عنها، ولكنها أيضاً أقل من معركة حاسمة مع البيزنطيين في الشمال.

وعليه فقد أدت مؤتة دورها المرسوم بالكثير من النجاح، ولا يمكن الحديث فيها عن هزيمة لمجرد سقوط القادة الثلاثة مع بضعة من المسلمين، فلقد "كان مجرد الخروج إلى الروم والاصطدام بهم في معركة حقيقية، واجهوا فيها فيالقهم المنظمة الهائلة تحت قيادة ملكهم بنفسه، كان بلا شك انتصاراً وحده وبحد ذاته[١]" كما يعبر صاحب كتاب حروب دولة الرسول(ص)، ولقد كان الأمر كذلك بشكل من الأشكال.

وليس بعيداً عن الوضوح، أن مؤتة كانت الإسهام الرئيس الأول للفتوحات اللاحقة "أنها شكلت ما يمكن أن نسميه (ضمير الفتح) انطلاقاً من الهالة التي أحيطت بها وما أحدثه استشهاد قادتها الثلاثة من تأثير في نفوس المسلمين.[٢]"

---

(١) القمني، سيد محمود: حروب دولة الرسول(ص) ج٢ ص١٤٩.

(٢) بيضون، إبراهيم: تاريخ بلاد الشام ص١٢٤.

أما في تبوك فالمعادلة تختلف نسبياً، فلا يمكن اعتبار الثلاثين الف من المسلمين قد خرجوا في عملية استعراض للقوة فحسب، فقد كانت هذه الغزوة بمثابة "الانطلاقة العملية لحركة الفتوح الشامية" وإن ما أنجزته في دومة الجندل الثالثة، ومع العديد من القرى يؤيد ذلك بوضوح، لذلك من المعقول الافتراض بأن الرسول(ص) كان في تبوك يسعى في حسم الوجود البيزنطي في تلك الأنحاء بالفعل وإذا كانت الظروف قد حالت دون لقاء الطرفين، فقد تمكنت هذه الغزوة "الخطوة الجريئة[1]" من "دفع العرب إلى الانصياع لإرادته"[2] وهذا هو الهدف الحقيقي في المواجهة مع الروم.

في كل الأحوال فقد كانت أنشطة الرسول(ص) الحربية في ذلك الحين على مستوى عال من الترابط وتبادل التأثير، فكان "تحركه داخل جزيرة العرب لاينفصل عن تحركه في أطرافها[3]". وتشابكت الأمور إلى الحد الذي كان بإمكان الرسول(ص) فيه التأثير في القبائل في الداخل عبر إثارة الأخبار عن الحضور القوي في الشمال، هناك مع بني الأصفر[4]، حيث تنعدم المغامرة، ولا تشجع التجارب على المبادرة.

وأخيراً في غزوة أسامة بن زيد حيث المشروع السياسي للرسول(ص) يدخل في تحدي المتابعة أو بدء العد العكسي للتراجع والنكوص، فلقد كان الإصرار على هذه الغزوة بمثابة الإصرار على بقاء كل الانجازات التي

---

(١) قاسم، عون الشريف: نشأة الدولة الإسلامية ص١٢١.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) قاسم: المرجع نفسه ص٨٧.

(٤) راجع مقولة لعبد الله بن أبي: "يغزو بني الأصفر.. يحسب محمد أن قتال بني الأصفر اللعب والله لكأني أنظر إلى أصحابه غداً مقرنين في الجبال..". الواقدي: المغازي ج٣ ص٩٩٥ ت ٩٩٦.

تحققت حتى ذلك التاريخ، فضلاً عن الاستمرار بالطريق والنهج نفسه، كما كانت تعبيراً عن التزام الحضور بالجبهة المفتوحة على المستقبل من دون أفق محدد في الزمان حيث الدولة البيزنطية امبراطورية لا تحوطها التقديرات الإسلامية ولا يمكن الاقتصار بالحرب معها على معركة هنا أو هناك، مهما اشتدت الهزيمة أو تألقت الانتصارات.

أخيراً، من الصعوبة تقدير الحيوية العالية التي تميزت بها هذه الجبهة بالمقارنة مع المحاور الأخرى كافة، كما من المبالغة القول بالإحاطة الدقيقة بالتطلعات الفعلية التي كانت تحرك الرسول(ص) وتمدُّه بالقرارات الخطرة والاجراءات الشاقة، ومن المعقول الاعتراف بأن ثمة مجالاً دائماً للبحث، وأسئلة قابلة للطرح تتجاوز هذه الاستنتاجات المتواضعة.

الخاتمة

حاولنا في هذه الدراسة المتواضعة بلورة الاستراتيجية العامة التي اندرجت فيها هذه السلسلة الطويلة من الغزوات والسرايا التي قام بها الرسول(ص) أو أطلقها على مدى عشر سنين من وجوده في المدينة.

واتضح لدينا أنه ومع كثافة هذه الأعمال الحربية، ثم استغراقها في التفاصيل أحياناً، إلا أن الغاية النهائية المتمثلة في نشر الإسلام والسعي في تطبيق مبادئه الأساسية كانت الفكرة المركزية التي وقفت دائماً خلف مختلف هذه البعوث العسكرية، كما وحدت النظرة إليها فضلاً عن الإسهام في فهمها وتحليلها بالشكل المتوازن. وإذا خيِّل للقارىء التعدُّد في الأهداف فربما أشار ذلك إلى التعدد في الطريقة، أو التنوع في الجبهة المقصودة، الذي فرض معايير مختلفة أحياناً.

وسيظهر لنا ذلك من خلال المرونة في حدها الأقصى عندما يكون الموقف قابلاً لتحقيق هذه الغاية في نشر الإسلام والالتزام به، ومن خلال التصلُّب إلى آخر الحدود أيضاً، عندما يشير الموقف إلى الاستحالة أو الصعوبة في تحقيق هذه الغاية النهائية.

وكان الصراع مع قريش طريقة واضحة لإخضاعها، بعد تصديها الخطير للدعوة في مكة، ومن الصعب اعتماد تفسير آخر لهذا الصراع حيث يدخل البحث في مجال التشتت والغموض، يظهر ذلك منذ السرية الأولى وحتى

الغزوة الأخيرة، حيث بمقدورنا تلمّس ذلك مع بعض التوغل في النص والتحليل أحياناً.

ربما غابت نسبياً هذه الغاية في زحمة الصراع وحرارته المرتفعة بين بدر والخندق، وربما أيضاً خُيل إلينا في تلك الفترة أن الأمور لا تنتهي – إذا انتهت – بالسهولة المرجوة وبالتلاؤم مع الغاية الأساسية من هذا الصراع، لكن سرعان ما بدأت الأحداث التي أعقبت الخندق بالكشف تدريجياً عن هذه الاستراتيجية الفعلية، فكانت عمرة القضاء استثماراً فعلياً للمتغيرات السريعة، تتجاوز التوقعات حينذاك، كما كان صلح الحديبية مادة غنية لفهم مصير الصراع وحقيقته الذي كان يسعى فيها الرسول(ص)، وأخيراً فتح مكة ذروة التجلي للخلفية التي قام عليها الصراع برمته، ولم تكن الأحداث التي تلت الفتح وحتى رحيل الرسول(ص) إلا في سياق تأكيد هذه الخلفية وتلك الغاية.

ربما كشفت بعض الأحداث ولا سيما السعي الدؤوب للمسلمين في القضاء على التجارة القرشية، تصميماً فعلياً للرسول(ص) على تحطيم قريش اقتصادياً بعد أن تم إرهاقها عسكرياً، خصوصاً بعد بدر والخندق. ولكن امتداد هذه الأحداث كان يشير إلى حدود ثابتة في ذلك، فقد حاول الرسول(ص) فعلاً الضغط على عناصر القوة لقريش في كل ميدان، ولكن من دون أن يكون ذلك موجهاً إلى قريش نفسها، بل يسعى – عبر ذلك – في تليين موقفها المتصلب ضد الإسلام من خلال التأثير في العناصر نفسها التي كانت تستمد منها هذه الصلابة أو الممانعة.

فإذا كان تهديدها الإسلام نشأ عن شعورها بخطورة هذا الدين على مكانتها ونظام معيشتها، فلقد حرص الرسول(ص) عبر غزواته وسراياه على

التأثير في هذه المكانة وهذا النظام ليوحي إليها بأنها وقعت في محذورها التي حاولت اجتنابه أو حماية ذاتها منه، وفي الوقت نفسه قدّم لها فرصة أفضل وخياراً أسلم حال قبولها الانضمام إلى الدين الجديد.

وفي المقابل كانت قريش وحتى الخندق في غير طريق، فلم تتمكن من فهم سياسة الرسول(ص) إلا في وقت متأخر، ولقد صرفت وقتاً طويلاً بعد الدم والمال، حتى تسنى لها ذلك، وكان مقدراً لها الوقوع في المهانة والذلة عندما خضعت بالقوة للإسلام، لكن الغاية من الصراع فرضت معادلة جديدة أنقذت قريش من ذلك.

لا نعرف شيئاً عن هذا الضعف وقصر النظر الذي أحاط بقرار الزعماء القرشيين حتى تأخروا هذه المدة في وقت تمكنوا فيه من فرض سيادتهم المعنوية على قسم كبير من قبائل غرب شبه الجزيرة العربية، وبغير قوة عسكرية.

من الممكن أن تكون قريش قد حاولت إعادة نظرها في الموقف من الإسلام، في وقت من الأوقات، لكن صدى قتلاها في بدر كان يحرج جميع قادتها، لذلك ربما بدأت نهاية هذا الصراع، من جهة قريش على الأقل، مع المشهد الأخير من غزوة أحد حيث تمكنت هذه القبيلة من الثأر لقتلاها في بدر، الأمر الذي مكنها من الخروج نسبياً من الإحراج المذكور، ولذلك أيضاً، ربما كانت مشاركتها في الأحزاب خياراً حاولت فيه استثمار الواقع العدائي للإسلام في صفوف العرب واليهود أكثر من استمرارها في استراتيجية خاصة بها في هذا المجال، ولم تكن بدر الموعد آخر الأدلة على بدء التراجع المكي في هذا الصراع.

فالمجتمع المكي، كما هو معروف، ليس مجتمعاً حربياً، وليس بمقدوره مواصلة ذلك إلى ما لانهاية، خصوصاً أن الموضوع والقضية الذي أطلق من أجلهما الصراع (انتشار الإسلام، وحماية التجارة) دخلا في مرحلة هي أكثر خطورة من أي وقت مضى، لذلك فإن المقومات الأساسية للموقف المكي سوف تهتز مع مرور الوقت حتى تنهار القضية ويتجاوز الموضوع كل الحدود المرسومة.

من ناحية أخرى، يصعب الاعتقاد بأن الرسول(ص) بادر إلى معارك حاسمة عسكرياً مع قريش، وإذا استعرضنا المحطات الخمس الأساسية في هذا الصراع فإننا سنجد المسلمين إما في حالة دفاع أو في حالة استثمار القوة مع فتح هامش كبير للسياسة.

فقد رأينا في بدر – المحطة الأولى – كيف تحوّل المسلمون من موقف اعتراض القافلة إلى موقف المواجهة مع الذين جاءوا للدفاع عنها بعد علمهم بعودتها سالمة إليهم. وفي أُحد أيضاً جاءت قريش تثأر لقتلاها، وكان الموقف بالنسبة إلى المسلمين دفاعياً أيضاً، أما في الخندق فقد جاءت قريش برفقة القبائل متحالفة مع اليهود للقضاء على المسلمين حيث اضطر هؤلاء للدفاع عن أنفسهم بكل معنى الكلمة.

وفي الحديبية لم تكن الأمور في اتجاه الحرب، ولقد أظهر الرسول(ص) درجة عالية من المرونة، أدت مع شعور قريش بالمتغيرات الجديدة، إلى صلح أنهى الصراع في إطاره الأساسي.

أخيراً، لم تكن غزوة الفتح عزماً إسلامياً على إعلان الحرب وبالتالي خوضها بكل وسيلة، مع كل أجواء الاستعداد والتأهب التي رافقتها، بل كان الهامش ـ هامش المصالحة والتوافق مع قريش في أوسع مجالاته في تلك الأثناء.

أما في الصراع مع اليهود، فقد اختلفت الأمور كلياً فلم يظهر الرسول(ص) أي مرونة فعلية في موقفه من اليهود إلا مضطراً، كما رأينا موقفه في غزوة بني القينقاع بعد تدخل عبد الله ابن أبي في التخفيف من مصير هذه القبيلة اليهودية، أو في قبوله إبقاء اليهود في أراضيهم في خيبر وبعض القرى في منطقة الشمال، وكانت هذه المرونة مرهونة دائماً بمصلحة ووحدة الجماعة الإسلامية، أو استثمار الموارد التي تراكمت بين أيدي المسلمين من دون القدرة على الاستفادة منها بالشكل المطلوب، وفي كل الأحوال، تجاوز الرسول(ص) بعضاً من ذلك عند اختفاء الضرورة أو تدني مستواها كما رأينا في غزوة بني النضير وقريظة.

وهكذا، كانت استراتيجية الحسم العسكري والإلغاء محصورة إلى حدٍّ كبير في الصراع مع اليهود، وكانت المبادرة والمعركة، ثم النتائج إشارات واضحة إلى فرادة، ونوعية مختلفة للغزوة ولعلَّ المشاركة المباشرة للرسول(ص) في جميع الأعمال الحربية مع اليهود وقيادتها بنفسه، توحي بهذا المستوى من الجدية والحسم الذي أراده الرسول(ص) لليهود، وبدا لنا أن الرسول(ص) لم يُعط هذا المستوى من الاهتمام الشخصي لأي من المحاور الأخرى حتى غدا هذا المحور مميزاً إلى هذه الدرجة.

لا يعني ذلك أن الرسول(ص) امتنع كلياً عن دعوة هؤلاء للإسلام، فقد حاول ذلك منذ وصوله إلى المدينة، كما خيَّر اليهود قبيل غزوة بني القينقاع بين الدخول في الإسلام أو الحرب، ولكن لا يبدو أن الرسول(ص) كان يأمل خيراً في ذلك، ولا كانت اليهود في هذا الصدد.

أما تبدُّل الأمور من التوافق على التعايش في البدء (وثيقة المدينة) إلى الصراع الحاد بعد قرابة السنتين، فلا يظهر أنه تحوَّل في جوهر العلاقة بقدر

ما كان تطوُراً طبيعياً فيها، وخرج المكنون من المواقف والهواجس عند كل حدث من شأنه تغيير بعض الموازين، وكانت نتائج بدر نموذجاً في هذا المجالً من جهة اليهود على الأقل.

ولم ترد معلومات عن تمسك أحد الطرفين أو كليهما بالوثيقة أو مضمونها، ما يعني التجاوز الضمني للآفاق التي رسمتها قبل الخروج الكامل عنها. وإذا كان نقض اليهود العهد في غزوة بني قينقاع واضحاً ومحدَّداً، فإنه كان بإمكانهم استدراك ذلك، كما كان بإمكان الرسول(ص) إبداء التجاوب اللازم، لكن اتجاه العلاقة الفعلي كان في غير طريق وأظهرت الفترة المقبلة حجم الهواجس المتبادلة بين الطرفين، ما جعل كل تفكير من هذا النوع بعيداً من الواقع وما يتفاعل فيه.

وتبين لنا أن الوجه الآخر لتصميم الرسول(ص) على إلغاء القوة اليهودية تماماً في المدينة هو تشكيل الهوية الواحدة والإطار السياسي والديني الواحد لدولته المرتقبة، ولم يكن بالإمكان تصوُر هذه الهوية أو هذا الإطار في ظل تعايشٍ ملغومٍ ـ إذا جاز التعبير ـ يعتبر كلّ فريق فيه أنه يمتلك العناصر الكافيةَ في الاستقلال والشعور بالسيادة على الذات، في قناعات دينية متعارضة حيناً وربما متناقضة حيناً آخر.

وكان توقيت الصراع، وبالتالي كل معركة فيه، ضمن الحدود التي كان يمسك الرسول(ص) بزمام الأمر فيها، كما تمكن من استغلال حالة الانقسام والانعزال بين القبائل اليهودية إلى آخر حد حيث لم ترد أخبار عن أي تحالف أو تنسيق فيما بينها في وقت كان التهديد يطال الجميع بصورة مباشرةً أو غير مباشرة.

وكانت غزواته دائماً في أعقاب محطات حاسمة مع قريش، وهكذا

فإن غزوة بني قينقاع جاءت بعد بدر مباشرة وكذلك غزوة بني النضير كانت بعد أحد، ولم يفصل بين غزوة قريظة والأحزاب أكثر من يوم واحد. أما خيبر فكانت بعد الحديبية حيث كان المشاركون في الثانية قد شاركوا في الأولى واقتصر الأمر عليهم.

وإن دلَّ ذلك على شيء فإنه يدل على الترابط في محاور الصراع، حيث يأتي القرار بالمواجهة متناسقاً مع الظروف المختلفة أو ممهداً لها، ولا يكون محصوراً في تداعيات المحور الواحد أو الجهة الواحدة، ولعلَّ ذلك ما يمكن فهمه أيضاً من التحرُّك نحو خيبر الذي، وإن كنا قد رأينا فيه امتداداً للصراع الذي بدأ في المدينة، وأخذ بعداً إقليمياً بعد تأليب اليهود الأحزاب في غزوة الخندق، فإننا نرى فيه أيضاً خطوة متجانسة مع التوجه الجديد نحو الشمال الذي شرع فيه الرسول(ص) منذ عامين على غزوته خيبر، خصوصاً أننا لم نجد ما يدعو إلى هذا التحرُّك بالتوقيت الذي تم فيه بالتحديد.

وفي ما يتعلق بالصراع مع القبائل فقد كانت الاستراتيجية التي اعتمدها الرسول(ص) ـ على اختلاف القبائل وتعدُّدها ـ تقوم على استدراج هذه القبائل أو الضغط عليها لإلحاقها في ركب دولته المرتقبة تمهيداً لإدخالها بالإسلام.

وظهر لنا أن نية حاسمة في استخدام القوة بشكل مطلق مع هذه القبائل لم تكن قائمة، كما أن توقيت قسم كبير من السرايا لم يكن زمامه في يد الرسول(ص) خصوصاً في الجهة الشرقية من المدينة ومكة، فقد كان مضطراً لرد الاعتداء هنا، أو استباق تجمع مشبوه هناك، أو فرض حد أدنى من الأمن في أكثر من مكان في شبه جزيرة العرب، ومن دون أن تكون ثمة مؤشرات

على قبول هذه القبائل فكرة الإسلام أو الانخراط تحت أي عنوان من عناوينه السياسية أو العسكرية.

أما في الجهة الشرقية، فقد استهلكت قبائلها أغلب الأعمال الحربية التي قام بها الرسول(ص)، ليس بالمقارنة مع باقي الجهات فحسب، بل مع مجمل الغزوات والسرايا التي تم تجريدها في ذلك الحين، فقد قدِّر عدد الغزوات بالثلث كما قدِّر عدد السرايا بالنصف تقريباً من مجموع الغزوات والسرايا، وهذا ما دعانا إلى تقسيم هذا العدد إلى خمس حلقات متوالية وفقاً لتداعيات الصراع مع قريش.

ففي الحلقة الأولى يبادر الرسول(ص) بعد بدر إلى القبائل التي شعرت بالخطر جراء النصر الذي تحقق للمسلمين في هذه المعركة فجمعت وعزمت على المسير خصوصاً غطفان وبني سليم، فكانت أعمال الرسول(ص) في هذه الحلقة استباقاً واستدراكاً للخطر الذي عزمت على السير به هذه القبائل.

أما في الحلقة الثانية، فلقد تعرَّض المسلمون إلى مواقف صعبة جراء النكسة التي وقعت في معركة أحد، ما جعل القبائل تشتد على المسلمين، وتصعِّد من خطرها عليهم، وكانت حادثتا بئر معونة والرجيع نموذجاً فعلياً على الحالة الخطرة التي عاشها هؤلاء بين أحد والخندق، لذلك كانت أعمالهم الحربية في هذه الفترة ناشئة عن هذا الوضع بالإجمال.

أما في الحلقة الثالثة، بين الخندق والحديبية فقد استعاد المسلمون زمام المبادرة، وكانت غزوة بني لحيان نموذجاً في سعي الرسول(ص) لرد الاعتبار للمسلمين في المنطقة، خصوصاً في ما يتعلق بالغدر الذي طال أصحابه في بئر معونة والرجيع، وهكذا تحركت السرايا في سياق جديد

عادت معه غطفان وسليم إلى مسرح الأحداث الذي حدّد فيه الرسول(ص) قدرته في التأثير وبالتالي الهزيمة في فروع هذه القبائل.

وفي الحلقة الرابعة بين الحديبيْه وفتح مكة، تابع الرسول(ص) مرحلته الجديدة التي شرع بها بعد الخندق، وشهدت هذه الفترة تنوعاً في المناطق وجديداً في القبائل لم يسبق للرسول(ص) أن واجهه في الفترات الماضية (تربه، الميفعة، الجناب، الكديد).

كل ذلك في ظل أوضاع جديدة فرضها صلح الحديبية، خصوصاً في ما يتعلق بحرية تعاقد القبائل مع أي من الفريقين المكيين أو المسلمين.

وفي الحلقة الأخيرة، اتجهت الأعمال والبعوث الحربية إلى مزيد من الانتاجية والاستقرار في النتائج، فكانت غزوة حنين والطائف نموذجاً عن أعمال هذه الفترة حيث هبط التهديد القبلي إلى أدنى درجاته حتى ذلك الحين.

وكانت أعمال الرسول(ص) في هذه الجهة في أعلى مراتب الصعوبة والتعقيد، في الوقت الذي لم يتمكن فيه من إحراز نتائج تتناسب مع الجهود والأوقات المستهلكة، وأغلب الظن أن الرسول(ص) كان يأمل عدم تحريك هذه القبائل إلا في وقت متأخر يغدو فيها الأمر أقرب إلى النتائج المطلوبة، من دون هذه التكلفة القاسية التي اضطر إلى تقديمها.

وفي خصوص الصراع مع قبائل الشمال، فكان الأمر مختلفاً تماماً ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن هذه القبائل، والأعمال التي وجهت إليها، كانت على درجة عالية من الإنتاجية والتنامي لم تشهدها أي جهة أو قبائل أخرى في هذا الفصل من الصراع.

فلقد شهدت هذه الجهة مبادرات تأسيسية واستعدادات استثنائية في غزواتها والسرايا، ربما كانت فريدة من نوعها وأهدافها.

بهذه الطريقة حاولنا أن نفهم التحرُّك المبكر إلى دومة الجندل بجيش قاربت أعداده الألف رجل قبل حسم الصراع مع قريش، الأولوية المرسومة للمسلمين في ذلك الوقت، وهو استعداد لم نجد مثيلاً له في أي جهة ومع أي قبيلة أخرى، ولقد تابع الرسول(ص) تركيزه على هذه البلدة مرة ثانية وثالثة حتى استقرت الأمور لديه في الأخيرة مع ملكها النصراني الذي تواردت المعلومات عن اعتناقه الإسلام، ولم تكن سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل إلا نموذجاً في هذا السياق.

وفي كل الأحوال لا يظهر أن المردود الاقتصادي (غنائم، سبي) كان مشجعاً للرسول(ص) على المضي في هذه الأعمال، كما لم يكن الإنجاز الأساسي (الانتماء للإسلام) الذي يسعى فيه دائماً مشجعاً له أيضاً، ما يرجح إمكانية وجود مشروع مستقبلي للمسلمين في هذه المنطقة المفتوحة على مصادر عديدة، وقابليات قريبة تسهم في تعزيز القدرات الإسلامية وانتشار الدين الإسلامي فيها.

ومع القبائل الغربية كان المسار سهلاً، والانخراط سريعاً، فمنذ الأشهر الأولى بدأت هذه القبائل تنصاع لإرادة المسلمين وتدخل معهم في روابط موادعة ومحالفة، كانت تنمو وتكبر مع تنامي القوة الإسلامية، وشاركت هذه القبائل فعلياً في الغزوات والسرايا الإسلامية خلال النصف الثاني من العقد الأول للهجرة ولم تكن غزوة المريسيع ـ على كثافة مؤشرات الأوضاع الداخلية ـ فيها عملاً حاسماً في عودة هذه المنطقة إلى الدولة الصاعدة أو تهديداً لها في المستوى الخطر.

أخيراً، مع قبائل الجنوب، تأخرت الأعمال والبعوث العسكرية للرسول(ص) إليها كما كانت الأوضاع على مستوى من القابلية والنضوج، مكنت السرايا من إنجاز أهدافها بسرعة قياسية، كما سمحت بتجاوز المراحل التي كانت تقف عندها الغزوات والسرايا في الجهات الأخرى، محققة الهدف الأخير مباشرة حيث أطلق عليه"الفتح" تعبيراً عن الالتحاق الفعلي والكامل لهذه القبائل بدولة المدينة في ظل أوضاع وعوامل تدفع بالجميع نحو هذا الخيار من دون التوقف أمام تفصيلاته.

أما في الفصل المتعلق بالمواجهة مع الروم، فوجدنا أن ذلك كان قائماً على ضرورة الاتجاه نحو الشمال من دون العزم على مواجهة الروم إلا بالقدر الذي يصطدم هذا التوجه معها، على الأقل حتى ذلك الحين، لذلك كانت المبادرة فعلياً بيد الرسول(ص) إلى حدٍّ كبير، وكان التحرك عملاً توسُّعياً أكثر منه دفاعياً أو وقائياً.

من هنا كانت مؤتة التعبير المنظم الأول عن هذا التوجُّه، ولا داعي للتأكيد أن عدد المشاركين، في هذه الحملة (ثلاثة آلاف رجل) لم يكونوا في صدد عملية ثأر أو انتقام مهما كانت التداعيات الخاصة بمقتل أحد سفراء الرسول(ص).

كذلك لا داعي لاعتماد الإشاعة حول استنفار الروم ضد المسلمين طريقة أساسية في فهم خلفية غزوة تبوك، وفي المنهج نفسه، من غير الموضوعية في اعتبار وجد الرسول(ص) على مقتل القادة في مؤتة خلفية رئيسية لتوجيه أسامة بن زيد إلى مؤتة وإصراره على ذلك حتى الرمق الأخير.

إن ما تقدَّم يضعنا أمام تفسير أشمل نفترض فيه وجود مشروع إسلامي تأسيسي في هذه المنطقة يتجاوز أحداث الماضي، فضلاً عن ظروف الحاضر، إلى المستقبل بكل ما تعنيه عبارة المستقبل من هواجس على الدولة الوليدة أو آمال في نشر الرسالة الإسلامية في هذه الأنحاء.

ومن المؤكد أن تمازجاً في التطلعات الأمنية والاقتصادية وحتى الحضارية، لا يمكن أن يخفي العنصر الديني، الموجود الدائم في كل خطوة وتحرُّك، حيث الرابطة القومية تأخذ بعداً جديداً في هويتها الذاتية.

ولم تكن القوة، بالتحليل الأخير، إلا طريقةً ممسوكةً في تحقيق هذه الأهداف، وإذ يجد الرسول(ص) صعوبة في تحقيق أهدافه الدينية نظراً لكثافة الانتشار المسيحي في هذه المنطقة، فقد اكتفى بالنتائج والإنجازات السياسية كمقدِّمة أولى على طريق هذه الأهداف.

أخيراً، تبقى موضوعة الغزوات والسرايا جديرة بالبحث والدراسة خصوصاً في الفصل الأخير من هذه الدراسة، كما تبقى هذه النتائج، على تواضعها، قابلة للتطوير والتعديل، وربما الحذف وحسبنا في هذا العمل أننا حاولنا، وفي أحسن الأحوال قد أسهمنا في خطوة محددة في هذا المجال.

المصادر والمراجع

أولاً ـ المصادر:

١ـ القرآن الكريم.

٢ ـ ابن الأثير، أبو الحسن علي: الكامل في التاريخ دار صادر ـ بيروت، د.ت. الجزء الثاني (عدد الأجزاء ١٣ جزءاً).

٣ ـ ابن خرداذبه، أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠هـ): المسالك والممالك، تقديم خير الدين قبلاوي، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق ١٩٩٩.

٤ ـ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ):

ـ مقدّمة ابن خلدون، مؤسسة الأعلمي، د.ت.

ـ السيرة النبوية، صححه وخرّج أحاديثه أحمد البزرة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ـ الرياض ١٩٩٨.

٥ ـ ابن سعد، أبو عبدالله محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ): غزوات الرسول(ص) وسراياه، تقديم أحمد عبد الغفور عطار، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨١.

٦ ـ ابن عبد البر الحافظ يوسف (٣٦٨ ـ ٤٦٣هـ): الدّرر في اختصار المغازي والسير، دار الكتب العلمية، طبعة أولى، بيروت ١٩٨٤.

٧ ـ ابن كثير، إسماعيل ابن عمر (ت ٧٧٤هـ): البداية والنهاية، مطبعة السعادة، مصر ١٩٣٢.

٨ ـ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصري: لسان العرب دار صادر ـ بيروت، د. ت.
٩ ـ ابن هشام، أبو محمد عبد الملك (ت ٢١٨هـ): السيرة النبوية، تقديم طه عبد الرؤوف سعد،دار الجيل ـ بيروت، د.ت. (ستة أجزاء، ثلاث مجلدات).
١٠ ـ البلاذري، الإمام أبو الحسن (ت ٢٧٩هـ): فتوح البلدان، منشورات مكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٨.
١١ ـ البكري، عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ): معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق الدكتور جمال طلبه، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٨.
١٢ ـ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ): تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار التراث ـ بيروت، د.ت. الجزء الثاني والثالث (عدد الأجزاء: ١١ جزءً).
١٣ ـ المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ): مروج الذهب ومعادن الجوهر، تقديم محمد السويدي، موفم للنشر ـ الجزائر ١٩٨٩.
١٤ ـ الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٤٥هـ): صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ـ الرياض ـ المملكة العربية السعودية، ١٩٧٤م.
١٥ ـ الواقدي، محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ): كتاب المغازي. تحقيق مارسدن جونس، مؤسسة الأعلمي ـ بيروت ١٩٨٩.
١٦ ـ ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي (ت ٦٢٦هـ): معجم البلدان، دار صادر ـ بيروت ١٩٩٥.

١٧ ـ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ):
ـ تاريخ اليعقوبي، دار صادر ـ بيروت، د. ت.
ـ كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ١٩٨٨.

ثانياً ـ المراجع:

١ ـ أبو خليل، شوقي: في التاريخ الإسلامي، دار الفكر المعاصر، بيروت ـ لبنان، دار الفكر، دمشق ـ سورية، طبعة ثانية ١٩٩٦.
٢ ـ بيضون ـ ابراهيم:
ـ الحجاز والدولة الإسلامية، دراسة في إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٨٣.
ـ الأنصار والرسول(ص)، إشكاليات الهجرة والمعارضة في الدولة الإسلامية الأولى، معهد الإنماء العربي، الطبعة الأولى ١٩٨٩.
ـ تاريخ بلاد الشام، إشكالية الموقع والدور في العصور الإسلامية، دار المنتخب العربي، طبعة أولى ١٩٩٧.
٣ ـ بينز، نورمان: الامبراطورية البيزنطية، تاريخها وحضارتها وعلاقتها بالإسلام، تعريب حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، مطبعة لجنة التأليف، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥ ٧.
٤ ـ توينبي، أرنولد : تاريخ البشرية، الجزء الثاني، نقله إلى العربية الدكتور نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع ـ بيروت ١٩٨٨.
٥ ـ الجابري، محمد عابد: العقل السياسي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٢.

٦ ـ جعيط، هشام: الفتنة، جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، دار الطليعة ـ بيروت، طبعة ثانية.١٩٩٣

٧ ـ حتي، فيليب وجرجي، ادوارد وجبّور، جبرائيل :تاريخ العرب، الطبعة السادسة، ١٩٨٠، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع.

٨ ـ خليل، عماد الدين: دراسة في السيرة، مؤسسة الرسالة دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧.

٩ ـ الدوري، عبدالعزيز: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام،المطبعة الكاثوليكية ١٩٦١.

١٠ ـ ديسّو، رينه :العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٩.

١١ ـ رستم، أسد: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وصلاتهم بالعرب، منشورات المكتبة البولسية، طبعة ثانية، بيروت ١٩٨٩.

١٢ ـ زيدان، جرجي: العرب قبل الإسلام، منشورات مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩.

١٣ ـ شمس الدين، محمد مهدي:

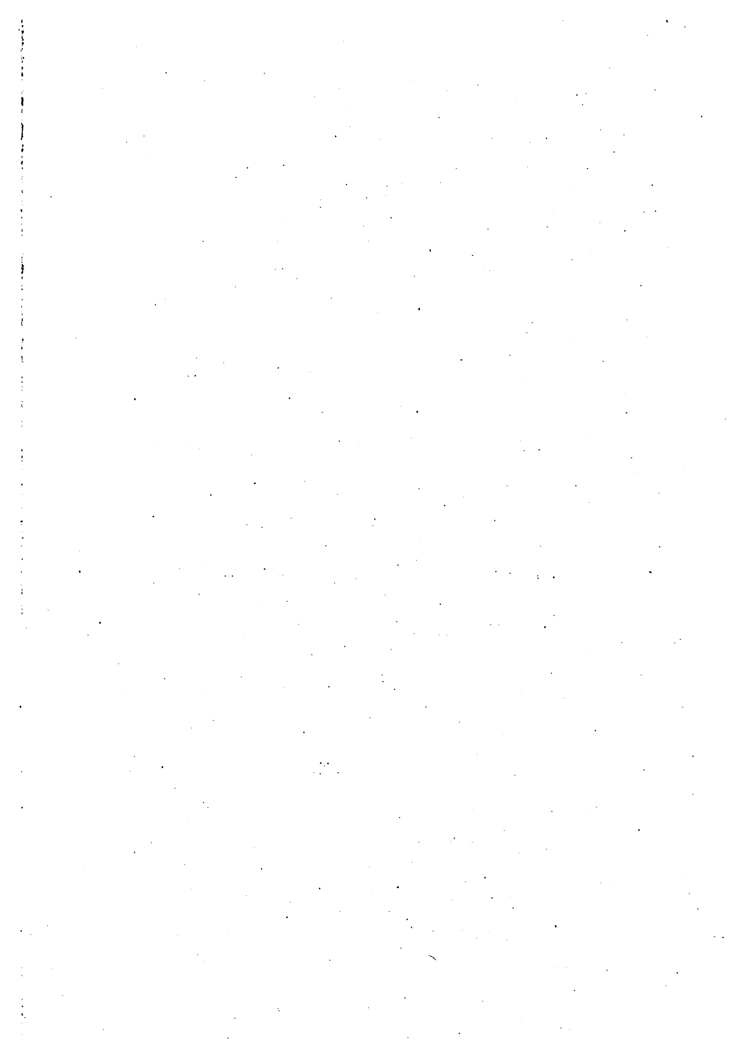
ـ نظام الحكم والادارة في الإسلام، دار الثقافة للطباعة والنشر، قم ـ إيران، الطبعة الثالثة ١٩٩٢.

ـ في الاجتماع السياسي الإسلامي، محاولة تأصيل فقهي وتاريخي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، طبعة أولى ١٩٩٢.

١٤ ـ الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٨٣.

١٥ ـ عبد الرازق علي: الإسلام وأصول الحكم،بحث في الخلافة والحكومة

في الإسلام، نقد وتعليق د.ممدوح حقي،منشورات دارمكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٨.
١٦ ـ العقاد، عباس محمود: عبقرية محمد، منشورات المكتبة العصرية ـ بيروت (د. ت).
١٧ ـ العلي، صالح أحمد:
ـ تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، المجمع العلمي العراقي. د.ت
ـ دولة الرسول(ص) في المدينة، دراسة في تكوُّنها وتنظيمها، الجزء الأول والثاني، المجمع العلمي العراقي، د.ت
١٨ ـ قاسم، عون الشريف: نشأة الدولة الإسلامية على عهد رسول الله، دار الجيل ـ بيروت، دار المأمون المحدود، الخرطوم الطبعة الثالثة ١٩٩١م.
١٩ ـ القمني، سيد محمود: حروب دولة الرسول(ص)، الجزء الأول والثاني، سينا للنشر، الطبعة الأولى ١٩٩٣.
٢٠ ـ نويهض، وليد: الإسلام والسياسة، نشؤ الدولة في صدر الدعوة، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيروت ١٩٩٤.
٢١ ـ مرتضى، جعفر: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، دراسة وتحليل، قم المقدّسة ١٣٠٠هـ ق.
٢٢ ـ مهران، محمد بيومي: دراسات في تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية ١٩٩٣.
٢٣ ـ وات، مونتغمري:
ـ محمد في مكة، ترجمة شعبان بركات، المكتبة العصرية، صيدا. د.ت
ـ محمد في المدينة، ترجمة شعبان بركات، المكتبة العصرية صيدا. د.ت



الفهرس